مقرر مادة

التاريخ الليبي القديم

لطلبة الجامعة المفتوحة

اسم ليبيا ودلالته

توصل أحد أبناء ليبيا في بحث له عن أصل هذه التسمية إلى النتيجة التالية :

« ليبيا اسم عريق في قدمه . . . يرجع إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد ، يستحيل تاريخياً ولغوياً الجزم بصحة رسمه « لوبيا » أو « ليبيا » على أحد الوجهين دون الآخر ، إلا بالاقتصار تحيّزاً على لغة واحدة في عصر بذاته ، وليس هذا ممّا يرضي منطق العلم ولا فضول العلماء . وهو الآن ، شعبياً ورسمياً ودولياً قد شاع وقبل وتأكد على أنّه « ليبيا » »[1] .

ويجدر بنا منذ البداية أن نشير إلى أن المدلول الجغرافي لأسماء الأقاليم والدول لم يكن في القديم محدداً واضحاً كما هو عليه الحال في أيامنا هذه بل كانت البلاد تسمى غالباً باسم الشعب الذي يسكنها . وواضح أن الشعوب مرت بعصور بداوة تختلف طولاً وقصراً وأن الشعب ، أي شعب ، في طور بداوته لم يكن ليستقر ضمن حدود جغرافية ثابتة ، ممّا يجعل رقعة البلاد التي يسكنها أصلاً تمتد أو تتقلص تبعاً لتحركاته وانتصاره أو اندحاره . ومن الناحية الأخرى فإن مسألة الانتماء لوطن معين أو أمّة معينة هي ظاهرة حضارية متأخّرة لا تتولد عند الأفراد والجماعات إلا بعد خروجهم من دور البداوة ، وتحررهم من الرابطة القبلية التي تحتّم عليهم أن يكون ولاؤهم وانتماؤهم للقبيلة وليس للوطن أو الأمة .

وعلى هذا فإن الدلالة الجغرافية لاسم بلد من البلدان كانت تختلف من عصر

---

1 بازامه ، محمد مصطفى ، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ، اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب ، وزارة الأنباء والإرشاد ، بنغازي ، ١٩٦٣ ، ص ٥٩ .

لآخر قبل عصر الاستقرار ؛ فالمصريون القدماء كانوا يعتبرون ليبيا الصحراء المجاورة لهم من الغرب والتي تمتد بعيداً حتى « عالم الأموات » ، بينما استعمل المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كلمة ليبيا ليدل بها مرة على كل الشمال الإفريقي الواقع إلى الغرب من مصر ، ومرة على برقة فقط ، ومرة على إفريقيا عامة . ومن ناحية أخرى فإن تحركات الأفراد والجماعات كانت طليقة إلى حد كبير ولا تخضع لأية قيود غير القيود التي كانت تفرضها عليها مصالحها وظروفها . وستتضح هذه الحقيقة فيما بعد عندما نلاحظ مثلاً مدى الحرية التي كانت القبائل الليبية القديمة تتحرك بها عبر الحدود الليبية — المصرية . ولهذه الحقيقة أهمية بالغة ، كما سنرى فيما بعد ، لما كان لها من أثر على المنطقتين . ثم هنالك مسألة أخرى هي اتساع ليبيا الهائل وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها مما يجعل تعيين خط حدود لها (في الجنوب مثلاً) بصورة قاطعة وثابتة أمراً بالغ الصعوبة حتى في هذا القرن العشرين فما بالك في الأزمنة الموغلة في القدم ؟ وإذن فإن كلمة ليبيا لم تحمل دلالتها الجغرافية الحالية إلا في مطلع هذا القرن — أما في الماضي فقد غلب استعمال كلمة « أنطابلس » (بنطابولس) أي المدن الخمس على المحافظات الشرقية في برقة ، وكلمة أطرابلس (طرابلس) أي المدن الثلاث على المحافظات الغربية في منطقة طرابلس ؛ وكان تاريخ هاتين المنطقتين يمثل إلى حد كبير تاريخ ليبيا بمفهومها الجغرافي المعاصر — أما الدواخل أي المحافظات الجنوبية في فزان فقلما سجل تاريخها بنفس المستوى الذي سجل به تاريخ المنطقتين السابقتين بل قلما حفظ من حقائقه ما يكفي لرسم صورة مرضية لأحوال هذه المنطقة في مراحل تاريخها القديم — ولهذا السبب فإن الدارس أو الباحث لن يستطيع أن يفي تاريخ هذه المنطقة حقه — والرجاء معقود على أن ينشط علم الآثار في إجراء الحفريات والدراسات الضرورية لفتح مغالق تاريخ هذه المساحة الداخلية الواسعة من ليبيا .

ليبيا في أقدم عصورها

﴿ أَوَلَم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتقناهُما وَجعلنا مِن الماء كلَّ شيء حيٍّ أفلا يُؤمِنون . وجعلنا في الأرضِ رَواسي أن تَميدَ بهم وَجعلنا فيها فِجاجاً سُبُلاً لعلَّهم يَهتدُون ﴾ .

الآيتان ٣٠/٣١ من سورة الأنبياء

﴿ وهوَ الذي أنزَل مِن السّماء ماءً فأخرَجنا به نَبَاتَ كلِّ شيء ﴾ .

الآية ٩٩ من سورة الأنعام

﴿ إنّما مَثَل الحَياةِ الدُّنيا كَماء أنزلناهُ من السماء فاختلط به نباتُ الأرضِ مِمّا يأكلُ الناسُ والأنعام حتى إذا أخذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَها وازَّيّنَت وَظن أهلُها أنهُم قادِرُون عَليها أتاها أمْرُنا ليلاً أوْ نَهاراً فجَعَلناها حصيداً كأن لم تَغنَ بالأمْس ﴾ .

الآية ٢٤ من سورة يونس

لأسباب مختلفة أهمها المساعدة على فهم حالة ليبيا في عصور ما قبل التاريخ ، وفهم ما كانت عليه صحراؤها من خصب وازدهار ، قبل أن تصاب المنطقة بالجفاف ، وتتحول إلى صحراء شاسعة قاحلة يجد الدارس أنه لا بد أن يمهد لدراسته بالحديث عن الكرة الأرضية وتكوينها والأحوال الجيولوجية التي مرت بها ، وما ترتب على ذلك من تغير في الأرض نفسها ، وفي أجوائها ومناخها ، مما أدى في النهاية إلى ظهور الحياة والإنسان والمجتمع البشري والتاريخ .

وتتلخص إحدى النظريات العلمية بهذا الشأن في أن الأرض والكواكب السيارة الأخرى كانت جميعها ، بما فيها الشمس ، أم المجموعة ، كتلة واحدة كبيرة ملتهبة تدور حول نفسها . ونتيجة لسرعة دورانها راحت تنفصل عنها

أجزاء صغيرة تبدأ بالدوران حول ذاتها وحول الكتلة الأمّ في الوقت ذاته . ثم أخذت كرتنا الأرضية تبرد شيئاً فشيئاً فنجم عن ذلك تكوّن قشرة يابسة يحيط بها جوّ كثيف مشبع بالرطوبة . ولم تلبث الأبخرة في ذلك الجو أن تكثّفت ونزلت على شكل أمطار غزيرة تجمّعت محيطات وبحاراً وبحيرات وأنهاراً . وأدى استمرار درجة الحرارة في الهبوط إلى برودة الأرض ، وبالتالي إلى تقلصها ، فنجم عن ذلك ارتفاع أماكن هي الجبال والهضاب والتلال ، وانخفاض أماكن أخرى هي السهول والأودية والقيعان . ومن الماء بدأت تظهر الأحياء الأولى وتتطور عبر العصور الطويلة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن . واستغرق هذا التطور مدة يقدرها علماء الجيولوجيا بما يزيد عن أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة هي عمر الأرض . ولكن هؤلاء العلماء لا يستطيعون أن يتتبعوا بدرجة كافية من الدقة سوى الستمائة مليون سنة الأخيرة من عمر الأرض ، وهم يكادون لا يعرفون شيئاً عن المائة مليون سنة الأولى من عمرها ، تلك الفترة التي سبقت تصلب القشرة الأرضية .

أمّا علماء التاريخ الذين يعتمدون على الاكتشافات الأثرية وعلى النقوش والكتابات التي خلفتها الحضارات القديمة ، فهم لا يستطيعون التوغل في الماضي إلى أكثر من ستة آلاف سنة بينما يستطيع زملاؤهم علماء الجيولوجيا أن يصوروا لنا بكثير من التفصيل قصة الأرض قبل بدء التاريخ بستمائة مليون سنة ، معتمدين في ذلك على نوع الصخور وعلى ما تحويه من بقايا نباتات وحيوانات متحجرة .

وبالرغم من أننا لا نعرف سوى القليل عن ثلاثة آلاف المليون من السنين التي انقضت على تصلب القشرة الأرضية ، فإن الحياة بأشكالها البدائية الأولى لا بد أن تكون قد استغرقت في تطورها عدة ملايين من السنين قبل أن تصل إلى مستوى الأشكال المتحجرة الموجودة في كثير من الصخور والتي يرجع تكوينها إلى ما قبل ستمائة مليون سنة . ولم تظهر الحيوانات الفقرية الأولى — وهي أنواع بدائية من الحيوانات التي تشبه الأسماك — إلا بعد انقضاء مائة مليون سنة أخرى .

أمّا الأعشاب فلم تبدأ بالظهور إلا قبل ما يزيد قليلاً عن أربعمائة مليون سنة ، والحيوانات البرمائية قبل حوالي ثلاثمائة وخمسين مليون سنة .

ويرجع تاريخ ظهور الثدييّات — ومنها الإنسان الذي هو أرقاها بفضل عقله — إلى ما يقل قليلاً عن مائتين وخمسين مليون سنة ، ويقدر المختصون أن الإنسان نفسه إنّما خرج إلى حيز الوجود خلال مائة المليون سنة الأخيرة .

وجدير بالملاحظة أن التطور الحياتي لم يستمر سلساً دون انقطاع ؛ فقد نشأت بعض النباتات والحيوانات وتطورت لتنقرض نهائياً بعد ذلك بملايين السنين ، بينما بقي البعض الآخر واستمر دون تغير يذكر .

ولقد نتج عن التغيرات التي طرأت على القشرة الأرضية تغيرات هامة في جغرافية الكرة الأرضية ومناخها ، وهذه بدورها أثرت في تطور النباتات والحيوانات وفي توزيعها الجغرافي .

ويستطيع علماء الجيولوجيا بالاعتماد على الصخور وما تحويه من متحجرات أن يكشفوا عن النمط العام لتطور النباتات والحيوانات ، وعن نشوء المحيطات والقارات وسلاسل الجبال والأنهار والتغيرات المناخية ؛ فنحن نعرف من الأبحاث الجيولوجية أن الأسد ووحيد القرن والفيل وفرس النهر كانت تسرح في يوم من الأيام في بلاد هي خلو منها الآن مثل بريطانيا ، كما نعرف أن قمّة إفرست — حيث اكتشفت حيوانات بحرية متحجرة — تكوّن من صخور كلسية تكونت أصلاً كرواسب تحت سطح البحر .

الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ

تزيد مساحة الصحراء الليبية عن ١,٥٠٠,٠٠٠ كم٢ ، وهي تشكل الجزء الأوسط من الصحراء الإفريقية الكبرى — وهذه الصحراء لم تكن طيلة الوقت صحراء قاحلة كما هي الآن بل كانت في وقت ماض تتمتع بمناخ دافىء ممطر جعلها مليئة بالحياة النباتية والحيوانية . ولعل اكتشاف النفط مؤخراً فيها هو خير إثبات لما نقول إذ إن من المعروف أن النفط ناتج عن مواد عضوية (نباتية وحيوانية) غمرت في باطن الأرض فتحولت إلى نفط نتيجة لأحوال معينة من الضغط والحرارة . ونحن إذا ألقينا نظرة واحدة على عصر البليستوسين [1] (Pleistocene) الذي بدأ قبل مليون سنة واستمر طيلة مليون سنة تقريباً سنلاحظ أنّه تميز بتغيرات مناخية حادة ، وبظهور مخلوقات تشبه القرود ، ولكنها كانت ذكية واستطاعت أن تنمّي ذكاءها إلى حد أنها بدأت تسير معتدلة على القدمين ، وصنعت أدوات حجرية كانت تقطع بها ما تقتله من حيوانات ؛ فوضعت بذلك بداية الانتقال إلى مرحلة الإنسان الأول . وسنلاحظ كذلك أن علماء الجيولوجيا يميلون إلى الاعتقاد أن إفريقيا كانت موطن هذا الإنسان الأول وأنّه انتشر منها إلى آسيا ثم إلى أوروبا . وإذا نحن ألقينا نظرة أخرى على العصر الجيولوجي الحديث « الهولوسين » (Holocene) ، الذي يبدأ قبل عشرة آلاف سنة ، سنلاحظ أن الإنسان تعلم حوالي منتصف هذا العصر كيف يستأنس الحيوانات ويزرع النباتات . وإذن فإن ما نعرفها اليوم بالصحراء الليبية كانت خلال العصر الحجري القديم والمتوسط تعج بالنباتات والحيوانات والناس .

١ انظر العصور الجيولوجية في الملحق (١) .

أما كيف أقفر ذلك البستان وتحول إلى بحر قاحل من الرمال ، فإن علماء الجيولوجيا يشيرون إلى أن عصر الهولوسين تميز بتزايد الجفاف في مناطق مختلفة من الأرض وخاصة في شمال إفريقيا والشرق الأوسط . وأدى استمرار تزايد الجفاف إلى تكوّن الصحاري الحالية في العالم ، وإلى هجرة إنسان وحيوان تلك الصحاري ، وانقراض نباتاتها . والذي يلفت النظر فيما يتعلق بتكوّن الصحاري ، هو أنّنا إذا تصفحنا مصور العالم بادئين بالصحراء الإفريقية الكبرى سنجد أنها تتكون من عدة صحاري متجاورة : فالصحراء الكبرى الأولى في الغرب والصحراء الليبية في الوسط ، ثم تأتي صحراء النوبة إلى الجنوب والصحراء الغربية في مصر . وإذا اتجهنا شرقاً فإنّا سنجد الصحراء العربية أمامنا . وسنجد أيضاً أن هذا الحزام الواسع ، الذي أصبح مجدباً نتيجة لما حل بأجوائه من جفاف حاد متزايد خلال عصر الهولوسين ، يستمر في الامتداد شرقاً فيعبر سوريا والأردن والعراق وإيران وتركستان إلى أن ينتهي في صحراء غوبي في الصين .

والصحراء الليبية ليست كلها صحراء رملية بل تقوم فيها بعض السلاسل الجبلية فهناك مثلاً قمّة بركان « أم الكوسي » التي يبلغ ارتفاعها (١١,٢٠٤) أقدام . وتقوم بين الجبال مرتفعات صخرية تعرف بالحمّادات ، وسهول مكسوة بالحصى ، وكثبان رمل متنقلة . وتخترق المنطقة كلها وديان جافة تشهد أنها كانت يوماً من الأيام مجاري أنهار ، ويشهد بعضها بعمقه وعرضه الكبيرين على قوة الأنهار التي كانت تتدفق فيها . ويؤيد هذا الاعتقاد بوجود أنهار في الصحراء في عصر ما قبل التاريخ وجود رسوم حيوانات مائية كالتمساح محفورة أو مصورة على الصخور . ولا بد أن تلك الأنهار كانت تؤلف شبكة مائية واسعة ربما كانت تتصل بنهري النيل والنيجر وبحيرة تشاد ، ولا بد كذلك أن بعض تلك الأنهار لا يزال جارياً تحت الأرض كمياه جوفية تمد الواحات والآبار الارتوازية بالماء الذي هو سبب الحياة في هذا الجزء من البلاد .

ولقد دلت الشواهد الجيولوجية على أن الصحراء الكبرى كانت في عصر

البليستوسين أقل جفافاً ممّا هي عليه الآن ؛ ولذلك فإنّ الصحراء الليبية كانت في أواخر ذلك العصر تعج بالنباتات والحيوانات والبشر . وكانت تكسو معظم رقاعها أدغال تكفي نباتاتها وأشجارها لتغذية أضخم الحيوانات التي عاشت على وجه البسيطة ، تشهد بذلك كومة عظام المستدون (Mastadon) الهائلة ، الموجودة حالياً في قسم التاريخ الطبيعي بمتحف السراي الحمراء في طرابلس ، والتي كانت قد اكتشفت في صحراء سرت الحالية . والمستدون حيوان يدل هيكله على أنّه كان يضاهي في حجمه الفيل الكامل النمو ، وله أربعة أنياب طول الواحد منها ثمانية أقدام . ولما كان لا يأكل سوى النباتات فلا بد أنّه كان يستهلك أوراق شجرة كاملة في الوجبة الواحدة ؛ ومع ذلك فقد أمكنه أن يعيش في هذه الرقعة التي نسميها اليوم الصحراء الليبية . وقس على هذا المثال عشرات الأمثلة لحيوانات أخرى متعددة ومتنوعة من مثل الفيل والزرافة والإبل ووحيد القرن وفرس النهر والنعامة . وقد كسا سكان هذه المنطقة جوانب آكام كاملة برسوم وأوصاف حيوانات منطقتهم عثر على عدد لا بأس به منها ، وما يزال يعثر على المزيد منها في مناطق متباينة من الصحراء . وتلك الرسوم في معظمها هي لحيوانات انقرضت في الصحراء ولم يبق منها بعد سنة ٢٥٠٠ ق . م . سوى بعض الزرافات والنعامات التي لا تزال أعداد منها تعيش حتى يومنا هذا .

المخلفات الفنية

كان الرحالة الألماني بارث أوّل من عثر على النقوش الصخرية في وادي الزيغن (Ellissghen) غربي مرزق سنة ١٨٥٠ م . ثم توالت الاكتشافات على أيدي الرحالة المختلفين والبعثات العلمية المختلفة فاكتشفت رسوم أخرى في وادي الآجال ، والمكنوسة ، وفي جبل زنككرا جنوبي جرما ، وفي وادي برجوج غربي فزان ، وفي جبل غنيمة في شرق فزان وعلى جميع السطوح الصخرية من جبل نفوسة شمالاً إلى هضبة تسيلي جنوباً . وهضبة تسيلي تقع في الشمال الشرقي من الهجار وتمتد إلى داخل حدود فزان الشرقية . وقد قام العالم الفرنسي هنري لوت بحملة إليها سنة ١٩٥٦ م . واستطاع هو وزملاؤه خلال ستّة عشر شهراً قضوها في الهضبة أن يستنسخوا « المئات والمئات من الجدران الصخرية المرسومة والتي تصور الأشكال البشرية والحيوانية بالآلاف . . . في أعظم متحف فني لما قبل التاريخ في العالم كلّه »[1] .

والواقع أن الرسومات والصور والنقوش الصخرية تملأ أرجاء الصحراء الليبية بل الصحراء الإفريقية الكبرى ؛ فبالإضافة للمواقع التي اكتشفت في فزان، اكتشفت في جبل عوينات[2] جنوبي شرق برقة رسومات كثيرة على جوانب

١ لوت ، هنري ، لوحات تسيلي ، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، نوار (مايو) ١٩٦٧ ، ص ٨ – ٩ .

٢ جبل عوينات هو كتلة جبلية مساحتها ١٥٠٠ كم٢ ، يقوم في الصحراء الليبية عند تقاطع خط عرض ٢٢° شمالا مع خط طول ٢٥° شرقاً ويبلغ ارتفاعه ٦١٣٢ قدماً وكأنه جزيرة في بحر من الرمال . وفيه ثمانية آبار صخرية معروفة تمتلىء بمياه المطر . أشهر الرسومات والصور التي وجدت على سفوحه هي تلك التي وجدها أحمد بيه حسنين في كركور الطلح ونشرها ووصفها =

الكراكير (الأودية) بعضها يرجع إلى ما قبل التاريخ والبعض الآخر يرجع إلى العصر التاريخي . ولا تزال هنالك مواقع كثيرة تنتظر الكشف والدرس .

ولقد استطاع العلماء المختصون ، على ضوء ما تم اكتشافه حتى الآن ، أن يقسموا رسومات وصور ونقوش الصحراء حسب موضوعاتها إلى أربع مجموعات رئيسية :

١ ـ المجموعة الأولى وتمثل الحيوانات التي يستلزم وجودها كميات كبيرة من المياه والحشائش كالمستدون والفيل وفرس النهر والتمساح ، أو الحيوانات المفترسة التي يستدعي وجودها وجود حيوانات كثيرة أخرى من الأنواع التي تعيش على النباتات ، من مثل الأسود والفهود والنمور .

٢ ـ المجموعة الثانية وتمثل الحيوانات البرية التي لا تحتاج إلا إلى قدر محدود من الرطوبة والحشائش كالبقر والزراف والنعام .

٣ ـ المجموعة الثالثة وتمثل رجالاً يركبون عربات تجرها الخيول أو يركبون الخيول نفسها .

٤ ـ المجموعة الرابعة وتمثل رعاة الجمال .

وواضح من التقسيم السابق أن المجموعة الأولى فقط ترجع لعصر ما قبل التاريخ بينما ترجع المجموعات الثلاث الباقية للعصر التاريخي ؛ فالحصان لم يُعرف إلا في أيام الجرامنتيين أي في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد بينما لم يُعرف الجمل إلا حوالي تاريخ الميلاد في الساحل وحوالي القرن الميلادي الرابع في الداخل . والجدير بالملاحظة أن التقسيم السابق للرسومات والنقوش يتفق مع تقسيم علماء

— في كتابه الواحة المفقودة ، ثم ما وجده الأمير كمال الدين في كركور إبراهيم وكركور حامد . وتظهر في هذه النقوش صور رجال ونساء وزرافات ونعامات وبقر وحشية وخيول ومواش وضأن متوحش وكلاب أو ثعالب وفرس نهر ووحيد القرن وسرطان ثم القسي والرماح والتروس .

الجيولوجيا والمناخ للفترات المناخية التي مرت بها الصحراء الكبرى ـ ومنها الصحراء الليبية ـ وهي :

١ ـ الفترة الأولى المطرة من ٢٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ق . م . وتصادف الزمن الجليدي الثالث في أوروبا .

٢ ـ الفترة الثانية وهي فترة الجفاف الأولى من ١٢٠٠٠ إلى ٥٥٠٠ ق . م . وكانت الظروف المناخية بالصحراء خلالها تشبه ظروفها الحالية .

٣ ـ الفترة الثالثة وهي الفترة المطرة الثانية من ٥٥٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق . م . وتصادف الزمن الجليدي الرابع والأخير في أوروبا .

٤ ـ الفترة الرابعة وهي فترة الجفاف الثانية التي بدأت حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ولا تزال مستمرة حتى الآن .

ومن الواضح أن الرسوم والصور والنقوش في عصر ما قبل التاريخ ترجع إلى الفترة المناخية الثالثة التي أُطلق عليها اسم عصر الصيادين وتظهر فيها الحيوانات المفترسة كالأسود والتماسيح وغير المفترسة كفرس النهر والخرتيت كما يظهر فيها الصيادون في جماعات منظمة يعملون على صيد الحيوانات بالشباك أو بالأسلحة البسيطة كالهراوات التي كانوا يثبتون في أطرافها أحياناً رؤوس حراب حجرية ، وهم يرتدون ملابس من جلود الحيوانات تغطي عوراتهم كما يظهرون في رسومات أخرى وهم يلبسون أقنعة من رؤوس حيوانات الصيد كالغزلان والحمير الوحشية والخرتيت والذئاب والفهود لأغراض التمويه على الحيوانات وتسهيل اصطيادها . وأوضح مثال على رسومات هذا العصر هو ما وجد في أودية متخندوش الواقعة خلف مرزق . وقد زار الدكتور محمد سليمان أيوب [1] ، مراقب آثار المحافظات الجنوبية ، هذا الموقع ودرس ما فيه من رسوم فوصفها

١ أيوب ، محمد سليمان ، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى ١٨١١ م ، المطبعة الليبية ، طرابلس الغرب ، ص ٤٠ .

بأنها « نتاج قوم على درجة عالية من المعرفة والذوق الفني » وبأنها مثلت الحيوانات المرسومة « بواقعية منقطعة النظير » .

والمجموعة الثانية من الرسوم تمثل صيادي الزراف والنعام ، ورعاة البقر ، وهي تمثل المراحل الأولى من الفترة المناخية الرابعة التي بدأت حوالي ٢٥٠٠ ق . م . ولا تزال مستمرة حتى الآن . وتجب الإشارة هنا إلى أن الجفاف الذي حل بأجواء هذه المنطقة من الأرض فحولها في النهاية إلى الصحراء القاحلة التي نعرفها الآن لم يحدث فجأة وإنما بدأ حوالي ٢٥٠٠ ق . م . واستمر في التصاعد حتى بلغ ذروته حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م . وبين هذين التاريخين كانت هنالك أمطار موسمية تتساقط في هذه المنطقة وتكفي للإبقاء على حياة الحيوانات التي وردت رسوماتها في المجموعة الثانية . وتتميز هذه الفترة بتقدم فن الرسم الصخري وباستخدام الألوان (قبيل نهاية هذه الفترة) لتوضيح الأشكال المنقوشة . ومن أحسن الأمثلة على رسومات هذه الفترة تلك التي وجدت على جدران حقاف جبال الأتاكوس ، وأبرزها لوحة تمثل رقصات حفلات المطر تظهر فيها الراقصات متهدلات الشعور وهن يؤدين رقصاتهن الإيقاعية . وقد عرفت هذه الفترة بعصر الرعاة نسبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن والذين استخدموا الألوان الطبيعية في رسم أبقارهم كما أنهم رسموا أنفسهم باللون الأحمر .

والمجموعة الثالثة التي رسم فيها الرجال بأشكال هندسية وهم يركبون العربات أو يمتطون الخيل تم التأكد مؤخراً أنها من عمل الجرامنتيين الذين استقروا في فزان حوالي القرن الثامن قبل الميلاد – ورسوم الفنانين الجرامنتيين الأول تظهر بدائية ساذجة إذا ما قورنت برسوم عصر الرعاة فقد اختفت الرشاقة التي كانت تتميز بها رسوم الأشخاص وأصبح فنانو الجرامنتيين الأول يرسمون الأشخاص على شكل خطوط متقاطعة أو نقط ورؤوس أسهم . ولكنهم لم يلبثوا أن تعلموا فن الرسم الصخري وأجادوا فيه كما يظهر في رسوم جبل زنككرا (جبل العسل) التي تمثل عصر نهضة الفن الجرامنتي . ويقول فرانكو ساتن (Franco Sattin)

في مقال له عن نقوش زنككرا[١] : « يزدان الجانب الشمالي لهضبة زنككرا بنقوش حيوانية وأخرى آدمية ترتقي إلى الدور الأخير من حقبة الرعاة وتدجين المواشي والخيول ، كما يظهر ضمن مجموعة النقوش نحت سطحي يمثل رأس إنسان من جنس البحر الأبيض المتوسط (ويحتمل أنه جرامنتي) » . وقد لاحظ صاحب المقال نقشاً بشكل أربع نعامات صغيرة بالإضافة إلى نقوش على حدة تظهر فيها محاكاة الطبيعة بطريقة سليمة . ولاحظ كذلك نقوشاً أخرى شبه تخطيطية كما لاحظ تخاطيط مع أشكال آدمية وفارس وأشكال حيوانية .

١ انظر : ليبيا القديمة ، نشرة حولية تصدرها الإدارة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات التاريخية بليبيا ، وزارة التربية والتعليم ، المجلد الثاني ، ١٩٦٥ ، ص ٢٢ .

حوافز المخلفات الفنية ودلالتها

قبل الاسترسال في الحديث عن دلالة هذه المخلفات الفنية من الصور والرسوم والنقوش الصخرية لا بد لنا من التساؤل عن الدوافع التي حفزت أبناء الصحراء القدامى للقيام بعمل تلك النقوش . وهنا يجب أن نقرر منذ البداية أن الإجابة على هذا التساؤل لا تعدو نطاق التخمين والاستنتاج . إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الدوافع التي حركت فناني ما قبل التاريخ ومن بعدهم قد تكون دوافع سحرية أو دينية ، أو إنهم ربما كانوا يقومون بتلك الأعمال من باب الفن للفن أو من باب التلذذ والتسلية[1] ، بينما ذهب فريق ثان إلى أنهم كانوا يخلدون أعمال مشاهير صيادي العصر ويتلقون منهم مكافآت على شكل قطع إضافية من اللحم . ومن الطبيعي أن ما يرسمه الإنسان العادي من أشكال يأتي مرتبطاً بتجاربه ومعرفته وبالأشياء المهمة في حياته ؛ ولا شك أن الحيوانات كانت من أهم الأشياء في حياة إنسان الصحراء الليبية القديم .

أما دلالة تلك الصور والرسوم والنقوش الصخرية وما يمكن أن يستخلص منها من نتائج فيمكن إجمالها فيما يلي :

١ — إن الصحراء الليبية كانت في الفترة المطرة الثانية (٥٥٠٠ — ٢٥٠٠ ق . م .) ؛ وهي الفترة التي يعتقد المختصون أنها زمن هذه المخلفات الفنية ، غنية بالمياه والغابات والأشجار[2] والنباتات بمعنى أنها كانت امتداداً شمالياً للغابات

١ لوت ، هنري : لوحات تسيلي ، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، نوار (مايو) ١٩٦٧ ، ص ٥٩ — ٦١ .

٢ يقول هنري لوت في الحديث عن جذوع أشجار التارو (فصيلة قريبة من شجر السرو) القديمة في تسيلي : « وقد أحيطت تلك الجذوع القديمة بعناية خاصة أثناء الحملة ، لأنها هي بدورها قد سبقت التاريخ وظلت شواهد على الظروف الرطبة التي كانت موجودة في الماضي . وتدل الإحصائيات —

الاستوائية في إفريقيا الوسطى الحالية ، وكانت بالتالي آهلة بالعرق الأسود الذي دفعه الرجل الأبيض فيما بعد إلى وسط القارة الإفريقية . والمؤرخون لا يعرفون من أين جاء الرجل الأبيض إلى الشمال الإفريقي وإن كان بعضهم يقولون إنه جاء « من وراء البحر » أي من أوروبا .

٢ — إن الرسوم الصخرية في كهوف الصحراء تبدأ بالصور المرسومة على جدران الكهوف وبنصب بسيطة من الحجارة تتحدث عن الموت والحياة في الصحراء في فجر التاريخ ، ومن هنا فهي ذات دلالة دينية[1] .

٣ — إن المستوى الفني المتقدم الذي يتجلى في هذه الرسومات والصور والمنقوشات الصخرية المرسومة أو المحفورة على وجوه الصخور الملساء في كهوف الصحراء في عصور ما قبل التاريخ تدل بتناسقها وقوة تعبيرها عن الحركة على ما أحرزه إنسان الصحراء من تقدم حضاري في عصر الصيادين كان الأساس الذي ازدهر عليه فن الرسم الصخري الملون بالألوان الطبيعية في فجر التاريخ منذ حوالي ٢٥٠٠ سنة ق . م .

٤ — إن وجود هذه الرسوم والصور في معظم أنحاء الصحراء الكبرى يدل على أنها كانت تعج بالسكان وبالحيوانات التي ملأوا جوانب الصحراء برسومها .

٥ — إن العدد الكبير من اللوحات المستنسخة من كهوف هضبة تسيلي يجعل المرء يتصور الصحراء الكبرى وكأنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ والمراحل الأولى من العصر التاريخي . ويتجلى في هذه اللوحات أسلوبان بارزان أحدهما رمزي قديم يبدو أنه من ابتداع فنانين زنوج ، وهو أسلوب الرسومات التي ترجع إلى ما قبل التاريخ ، والآخر أحدث من الأول وهو صريح في محاكاة الطبيعة ويرجع إلى العصر التاريخي ويظهر فيه تأثير وادي النيل بكل وضوح ، وربما

— على أنه ليست هناك إلا حوالي مائة من هذه الجذوع رغم أنها كانت في زمن مضى شيئاً مألوفاً في أرض تسيلي ، لوحات تسيلي ص ٤٨ .

١ المرجع السابق ص ٧٧ — ٨٥ ، ١١٧ — ١٢٤ ، ١٩٦ — ٢٠٩ .

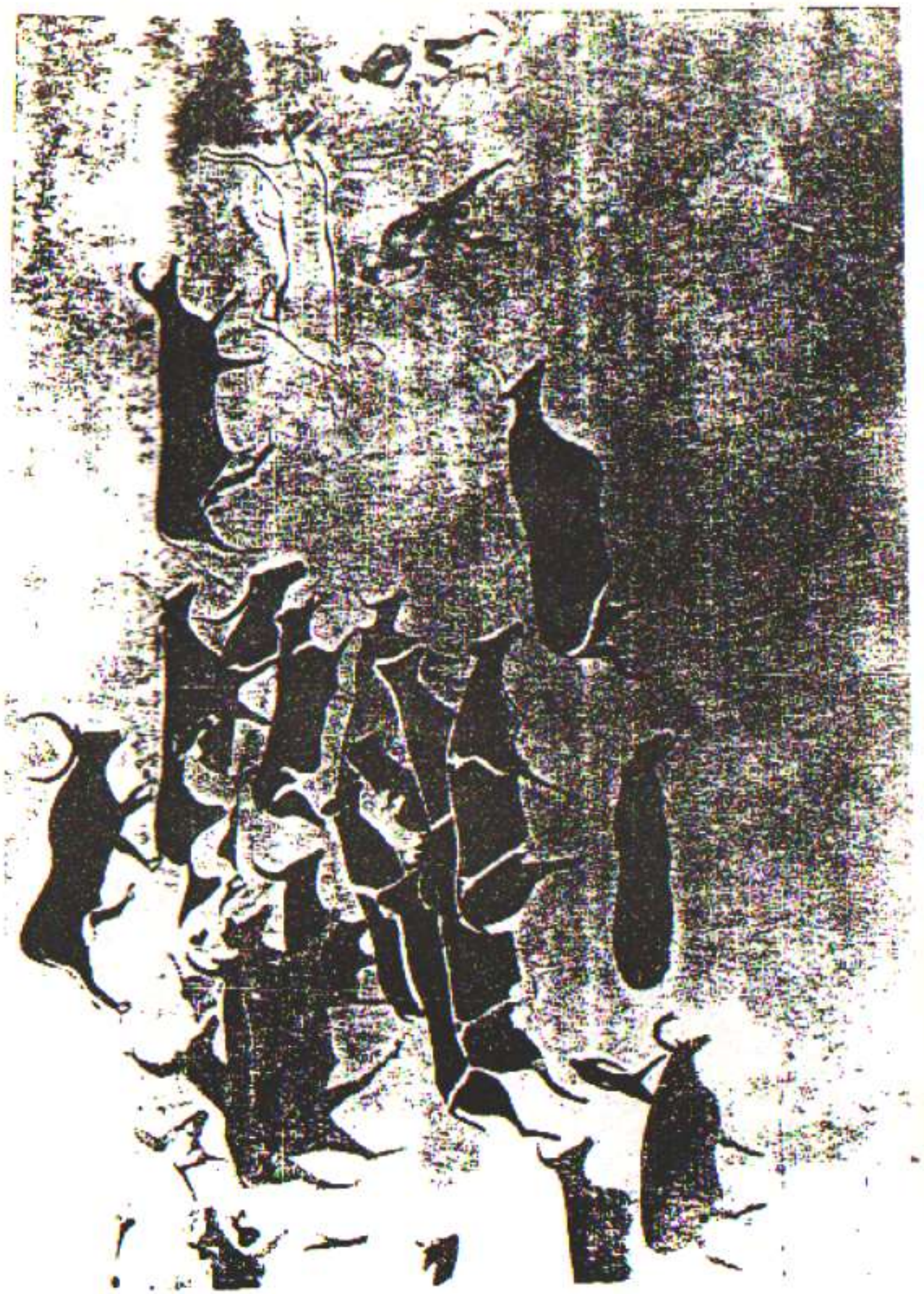

ظهر فيه كذلك شيء من تأثير الفن الإيجي مما قد يعني قدوم عناصر مصرية أو إيجية إلى المنطقة أو عودة بعض أبناء المنطقة ممن ساقهم التجول أو الأسر أو الاسترقاق إلى مصر أو إلى غيرها فجلبوا معهم ما تأثروا به هم أنفسهم .

٦ – إن الفن الذي يتجلى في لوحات تسيلي وغيرها من النقوش الصخرية الكثيرة يساعد على تتبع الحياة الحيوانية في الصحراء الإفريقية الكبرى وبالتالي على تتبع التقلبات المناخية الكبرى التي نتج عنها ذلك الإمحال التدريجي فحوّل المنطقة في النهاية إلى صحراء .

٧ – إن التقسيم المذكور سابقاً بالنسبة للرسوم وللعصور الجيولوجية والمناخية التي مرت على الصحراء الكبرى يعطينا المزيد من المعلومات عن أنماط الحضارات التي تتابعت على الصحراء : حضارات صيادين مسلحين بالهراوات والبومرانج (Boomerang) أو المقذوفات الراجعة وحضارات رعاة ورماة نبال ، وحضارات محاربين مسلحين بالحربة جاءوا بالحصان الأليف والعربات الحربية ذات العجلتين التي تجرها الخيل إلى ليبيا .

٨ – تشير الصور والرسوم إلى أن حيوانات المنطقة لم تتغير خلال زمن طويل فهي مرسومة بأقدم الأساليب الفنية ، ولا يبدو عليها أي تبدل ملحوظ حتى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد عندما تختفي صور الحيوانات الضخمة كأفراس النهر والفيل والكركدن بينما تستمر النعامة والزرافة في الظهور في الرسوم .

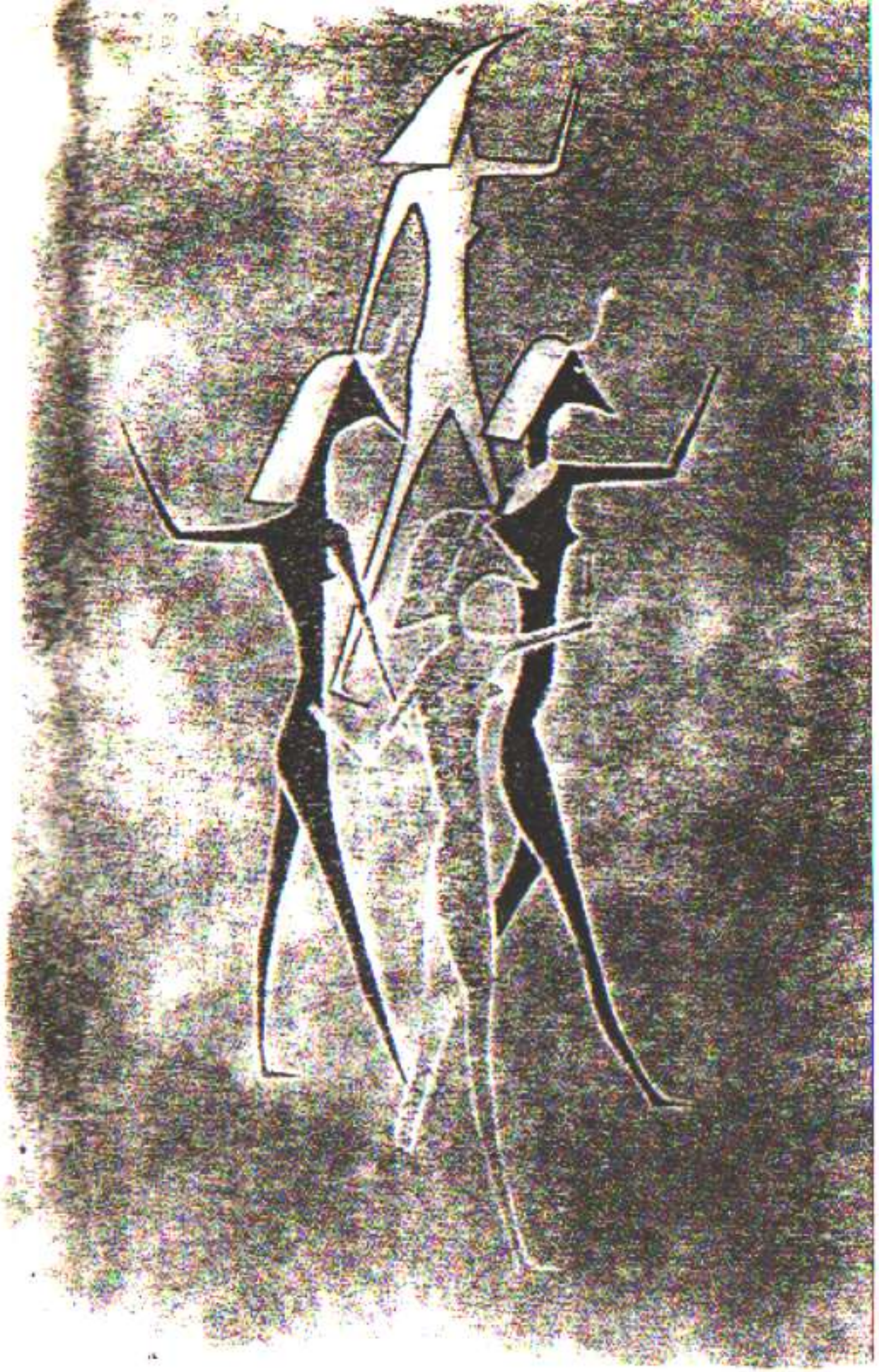

(٢) [illegible] الطعري‍ه التائه [illegible]

[illegible] هنري [illegible]

(٣) الإلهة ذات القرنين - تسيلي ناجر

(عن هنري لوت)

(٤) الراقصون
(عن: هنري لوت)

(٥) أفراس النهر
(عن: هنري لوت)

(٦) النبالون

(عن : هنري لوت)

دلالة المخلفات الأثرية

يميز علماء التاريخ القديم في دراسته بين عصرين : عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي . ويقصدون بالأول تاريخ الإنسان من أقدم أيامه حتى حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . عندما اخترعت الكتابة ، كما يقصدون بالآخر تاريخ الإنسان منذ سنة ٣٠٠٠ ق . م . فما بعدها . وعلى هذا الأساس فإن التاريخ يعتمد كلية على علم الأركيولوجيا (Archæology) في دراسة عصر ما قبل التاريخ بينما هو يعتمد عليها أقل من اعتماده على الوثائق المكتوبة في دراسة العصر التاريخي .

العصر الحجري القديم (Paleolithic Age) :

تتناول أركيولوجية العصر الحجري القديم تطور الحضارة البشرية في الحقبة التي بدأت بظهور الإنسان كتدبي يستعمل الأدوات الحجرية وانتهت مع بدء العصر الجيولوجي الحديث قبل حوالي عشرة آلاف سنة . ومعنى هذا أننا نبدأ في مرحلة مبكرة من عصر البليستوسين أو العصر الجليدي الذي بدأ قبل مليون سنة وانتهى قبل حوالي عشرة آلاف سنة . وقد ظهرت في بداية هذا العصر مخلوقات شبيهة بالإنسان الأول وراحت تتطور ببطء شديد منشئة خلال تطورها حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأدنى ثمّ حضارة إنسان العصر الحجري القديم الأوسط فحضارة العصر الحجري القديم الأعلى . وكان الإنسان في العصر الحجري القديم الأدنى والقديم الأوسط يعيش على جمع المواد الغذائية واقتناص الحيوانات والطيور وصيد الأسماك وجمع الفواكه والحبوب البرية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الحضارة البشرية البسيطة نشأت وتطورت خلال عصر

البليستوسين الذي تميز بأحداث مناخية كبرى من مثل تعرض الأقاليم الشمالية من الكرة الأرضية أربع مرات متفاوتة لزحف الجليد ومن مثل تكون أودية الأنهار والتغيرات الأساسية التي طرأت على نباتات الأرض وحيواناتها .

وليست لدينا معلومات كافية عن العصر الحجري القديم وإنّما نعتمد فيما نعرفه عنه على ما تخلف من آثار الإنسان المادية التي صمدت لعوامل الزمن . وحتّى تلك المخلفات تكاد تنحصر في الأدوات الحجرية أو تلك المصنوعة من العظام والقرون ، بالإضافة إلى بقايا الحيوانات التي كان أسلافنا يصطادونها .

ونستطيع أن نقول بشكل عام إن الأدوات التي استعملها الإنسان في هذا العصر تدل على تطور تدريجي ، إذ إنّه بدأ يستعمل أداة واحدة لكل أغراضه ، ثم توصل لصنع مجموعة أدوات محسنة يستعمل كل واحدة منها لأداء وظيفة معينة . ونستطيع أن نقول في هذا الصدد إن إنسان العصر الحجري مضى في تقدمه وتطوره من البسيط إلى المعقد ومن مراحل عدم التخصص إلى مراحل تتميز بدرجة عالية نسبياً من التخصص على نحو ما حدث لإنسان العصر التاريخي .

وعلى ضوء المعلومات القليلة المتوافرة لدينا عن العصر الحجري القديم نستطيع أن نقول إن صناعة الأدوات الحجرية مرت بأربع مراحل :

١ – مرحلة الأدوات المصنوعة من رَضْف الأودية .
٢ – مرحلة الفأس اليدوية والأدوات ذات الحدين .
٣ – مرحلة الأدوات الرقيقة المصنوعة من شظايا الظران أو الصوان (Flakes)
٤ – مرحلة الأدوات الحجرية المصنوعة على شكل نصال .

وهذا التقسيم لا يعني أن كل مرحلة من هذه المراحل سادت فترة زمنية معينة قضت فيها على المرحلة السابقة لها نهائياً ، بل الواقع أن أدوات للمرحلة الواحدة كانت تبقى مستعملة إلى جانب أدوات المرحلة التالية ما دام هنالك ما يدعو لاستعمالها . لكن الاتجاه العام هو في السير من البسيط إلى المعقد كالبدء مثلاً بالأدوات المصنوعة من رضف الأودية بتحديد أحد الجانبين لاستخدامه في

القطع أو البشر ، ثم الترقي إلى صنع الأدوات ذات الحدين وهكذا . وقد اهتدى الإنسان إلى طرق مختلفة لصناعة أدواته الحجرية خلال العصر الحجري القديم الأدنى الذي شغل ثلاثة أرباع عصر البليستوسين فصار مثلاً يعد نواة من الصوان ثم يطرق عليها بنحو معين بكتلة أخرى فيشتق منها الشظايا التي كان يشحذها أو يسننها على الشكل المطلوب . وبالإضافة إلى هذا التطور فإن أهم اكتشاف اهتدى إليه الإنسان في هذا العصر هو معرفة استعمال النار وإشعالها أو إخمادها .

العصر الحجري القديم الأوسط (١٨٠٠٠٠ – ٨٠٠٠٠ ق.م) :

في هذا العصر طور الإنسان الأساليب الصناعية القديمة وارتقى بها إلى درجة الإتقان فصارت الأدوات المصنوعة من الشظايا تنتج بكثرة ويخصص كل منها لأداء وظيفة أو وظائف معينة ، كما ظهرت لأول مرة صناعة عظام بدائية . وسكن الإنسان في هذا العصر الكهوف ودفن موتاه عن قصد لأول مرة في تاريخه . وقد وجدت آثار إنسان هذا العصر في أوروبا وغربي آسيا والهند وإفريقيا مما يشير إلى أن الأفكار والمفاهيم الجديدة التي كانت تكتشف في منطقة ما كانت تنتقل بسرعة معقولة إلى المناطق الأخرى من هذا العالم . وكانت كثافة السكان في هذه الفترة قليلة كما إنهم كانوا يعيشون على شكل جماعات صغيرة متفرقة .

العصر الحجري القديم الأعلى (٨٠٠٠٠ – ١٠٠٠٠ ق . م .) :

هذا العصر الذي تعادل مدته حوالي عشر مدة العصر الحجري القديم هو القسم الثالث والأخير من الأقسام الرئيسية للعصر الحجري القديم وهو الفترة التي حقق الإنسان خلالها أعظم تقدم حضاري له ؛ إذ إنّه استغنى عن الأدوات الشظايا وعن الفؤوس اليدوية واستعمل بدلاً منها الأدوات النصال . وفي هذا العصر ظهرت أيضاً اختراعات أساسية عديدة من أمثال الخيط والإبرة وملابس الجلد والأدوات الحجرية والعظمية ذات المقابض ، والرماح الخاصة بصيد الحيتان ، وقاذفة

الحراب ، وأدوات خاصة بصيد الأسماك . ومن ناحية أخرى شاع استعمال العاج والعظام والقرون إلى جانب الصوان على نطاق أوسع كثيراً ممّا كان عليه الحال قبل ذلك . وتجدر الإشارة هنا إلى أمر هام هو أن الأسس الفنية الأولى للرسم والنحت والنقش والطلاء إنّما وضعت في هذا العصر . ثم ظهر الرقص وظهرت الموسيقى وصار الإنسان يستعمل الأقنعة ويقيم الحفلات كما إن المجتمع الإنساني صار ينظم على أسس أكثر تعقيداً من ذي قبل .

وفي هذا العصر اختفت الأنواع البدائية من البشر وحل محلها الإنسان العصري العاقل (Homo Sapiens) الذي يشبه إنسان العصر الحاضر .

وفي أوروبا الغربية تدل مخلفات إنسان هذا العصر وأدواته على أنّه أمام مراحل متتابعة من الحضارة أعطى العلماء كل مرحلة منها اسماً مميزاً لها فسموا الأولى (Chatelperronian) والثانية (Aurignacian) والثالثة (Gravettian) والرابعة (Solutrean) والخامسة (Magdalenian) ، وميزوا كل مرحلة من هذه المراحل بمجموعة من أنواع الأدوات التي استعملها الإنسان خلالها .

وقد حدث تطور مشابه للتطور الأوروبي الغربي في أوروبا الوسطى والشرقية وفي بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الشرق الأدنى ، وكذلك في سيبيريا الوسطى . أما في الهند وفي شرق آسيا وشرق وجنوب إفريقيا فقد استمرت الأساليب الصناعية التقليدية القديمة التي كانت تعتمد على إنتاج الأدوات الحجرية من نواة معدة لذلك الغرض ، وعلى إنتاج الأدوات الشظايا . وفي الواقع فإنّه لا يبدو أن التقنية الجديدة المتقدمة قد انتقلت إلى هذه المناطق إلا بعد انتهاء العصر الحجري القديم بزمن .

العصر الحجري المتوسط (Mesolithic) (١٠٠٠٠ – ٧٥٠٠ ق. م.) :

بدأ هذا العصر قبل حوالي عشرة آلاف سنة واستمر في أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط حوالي ٢٥٠٠ سنة ممتداً إلى ما بعد مرحلة الزحف

الجليدي . وفيه استمر الإنسان يتبع طرق جمع الفواكه وما إليها كما كانت الحال في العصر الحجري القديم . أمّا في بعض البلدان الأخرى من مثل جنوب إفريقيا وأستراليا وطسمانيا فقد استمرت طريقة الحياة التي كانت سائدة في هذا العصر حتى العصر التاريخي . أمّا في أوروبا وشمال إفريقيا والشرق الأدنى فإن الأركيولوجيين يعرفون هذا العصر بأنّه فترة واضحة تقع بين العصر الحجري القديم من ناحية والعصر الحجري الحديث من ناحية أخرى . ولكن حضارات هذا العصر المتوسط لا يجوز اعتبارها على أي حال حلقة تطور تربط بين هذين العصرين بل يجب اعتبارها تطويراً وتعديلاً تدريجياً لاقتصاد الصيد القديم حتى يتناسب والأحوال البيئية الناشئة عن تدافع الأقاليم ذات السلاسل الجبلية المرتفعة .
وبالتدريج تغلغلت مؤثرات حضارية جديدة في غرب أوروبا من بلدان جنوب البحر الأبيض المتوسط حيث كانت جماعات حديثة من الصيادين قد أقامت سلسلة من الحضارات المترابطة ترابطاً وثيقاً والتي تميزت أدواتها الرئيسية بأنها كانت عبارة عن قطع صوانية صغيرة ذات أشكال هندسية عرفت باسم ميكروليث (Microliths) – وقد عرفت هذه الحضارات في الشمال الإفريقي باسم حضارة قفصة (Capsian) وحضارة وهران (Oranian) ، نسبة لوهران في الجزائر ، ويدل تعدد الحضارات التي نشأت هنا وهناك في أوروبا وشمال إفريقيا وفي الشرق الأدنى خلال هذا العصر على تزايد سرعة النمو والتطور ممّا يجعل السجل الأركيولوجي من هذا الحد فصاعداً أكثر تعقداً وتشابكاً[1] .

العصر الحجري الحديث (Neolithic) ٧٥٠٠ – ٣٠٠٠ ق. م.) :

لقد أتم الإنسان في العصر الحجري المتوسط بناء اقتصاد قائم كلية على جمع المواد الغذائية (جمع الفواكه والحبوب واقتناص الحيوانات والطيور وصيد

١ The Encyclopedia Americana, International Edition (Vol. I — Africa, Vol. II — Archæology). American Corporation, New York, 1966.

الأسماك) . وحدث بعد هذه الحقبة وخلال العصر الحجري الحديث تطور أدى بالإنسان إلى تغيير طريقة حياته تغييراً كلياً ذلك أنه أصبح مزارعاً يعتمد في اقتصاده على إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها . وصار يصنع الأوعية الفخارية ويربي الماشية والحيوانات التي استأنسها في هذا العصر كما إنه حسن أدواته الحجرية إلى درجة الإتقان .

ولعل الفخاريات هي أكثر مخلفات إنسان هذا العصر فائدة لنا في التعرف على تاريخه ، ذلك أن قطع الفخار لا تندثر كلية كما إنه يمكن التعرف عليها دون صعوبة . وتأتي العظام بعد الفخاريات في الأهمية فنحن نعرف مما اكتشف منها ، بالرغم من صعوبة التمييز بين عظام الحيوانات الأليفة وغير الأليفة ، أنه استأنس البقر والنعاج والماعز والخيل والكلاب . ونستدل على اكتشافه للزراعة بالحبوب المتحجرة والمتفحمة وبأحجار الطواحين والأدوات الحجرية الزراعية . وتدل المخلفات الآركيولوجية على أن المزارعين ومربي الماشية بدأوا بعد وقت غير طويل يبنون قبور موتاهم من الطين والحجارة ، ويحصنون قراهم ، ثم بدأوا يشيدون المعابد .

عصر المعادن :

صهر الإنسان النحاس في الشرق الأدنى في وقت لا يتأخر عن سنة ٣٠٠٠ ق . م . كما أنه صهر الذهب والفضة وربما الرصاص أيضاً في الأناضول بعد ذلك التاريخ . ولكن النحاس بقي المعدن الوحيد المستخدم في التكنولوجيا القديمة إلى ما بعد سنة ٢٠٠٠ ق . م . ولما كان اختراع الكتابة يعتبر بداية للعصر التاريخي سنة ٣٠٠٠ ق . م . فإن معظم عصر النحاس في الشرق الأدنى يقع في العصر التاريخي . وكانت الكتابة قد ظهرت في بابل ومصر حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . ثم انتشرت خلال الألف الثاني في جميع أرجاء الشرق الأدنى وفي كريت . ولا يزال العديد من الآركيولوجيين يقسمون العصر التاريخي إلى :

١ ـ عصر البرونز من ٣٠٠٠ ق . م . إلى ١٤٠٠ ق . م .

٢ ـ عصر الحديد من حوالي ١٤٠٠ ق . م . إلى مطلع تاريخ الميلاد .

ويؤخذ على هذه التسمية أنها بالنسبة للبرونز تتضمن استعماله قبل ظهوره إذ إن البرونز الحقيقي (نحاس ممزوج بـ ١٠ ٪ من التنك) لم يستعمل قبل سنة ١٨٠٠ ق . م . وإن كانت محاولات تقوية النحاس وإكسابه صلابة بمزجه بالتنك قد تقدمت على هذا التاريخ . وبنفس الطريقة فإن الحديد الذي صهر في آسيا الصغرى حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . انما انتشر ببطء ، إلى بقية الشرق الأدنى ولم يشع استعماله في مصر إلا في العصرين البطلمي والروماني . وعصر المعادن في ليبيا يخص العصر التاريخي ولذلك سنؤجل الحديث عنه إلى موضع آخر من هذا الكتاب .

في إفريقيا وليبيا :

تميز العصر الحجري القديم في إفريقيا بمجموعات متنوعة من الأدوات الحجرية بعضها يمثل التطور المحلي والبعض الآخر يشبه إلى حد كبير أمثاله في أوروبا . ولقد بدأ هذا العصر في إفريقيا في وقت مبكر من عصر البليستوسين واستمر في بعض مناطقها إلى وقت حديث . أما عصر المعادن فقد بدأ في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الألف الثاني قبل الميلاد ولكنه بقي في إفريقيا مقصوراً على المناطق الواقعة شمالي الصحراء الكبرى ولم يتجاوزها إلى الجنوب إلا في مطلع سني الميلاد . وقد ظلّ رجال الغابات في جنوب غربي إفريقيا يستعملون الأدوات الحجرية حتى قبل مائتي سنة فقط . وفي الشمال الإفريقي أو المناطق الإفريقية الواقعة شمالي الصحراء الكبرى سارت حضارة عصر ما قبل التاريخ على النمط الذي سارت عليه في أوروبا فما لبثت الفأس الحجرية اليدوية أن استبدلت بنصال وأدوات بشر مصنوعة من شظايا الصوان ثم تطورت تلك النصال والأدوات إلى أدوات ذات حدين وبشّارات تصنع من نواة

صوّانية معدة خصيصاً لهذا الغرض ، ثم أضيفت إلى كل ذلك أدوات ذات مقابض عثر على بعض منها في برقة وقدر العلماء أنها ترجع إلى حوالي سنة ٣٤٠٠٠ ق . م . وهي دون شك من صنع الإنسان العاقل الذي كان لا يزال يحتفظ بصفات تدل على أنه انحدر من الجنس البشري الإفريقي الذي كان يعيش في المنطقة منذ منتصف عصر البليستوسين .

وحوالي سنة ٣٠٠٠٠ ق . م . أو سنة ٢٨٠٠٠ ق . م . قامت على ساحل برقة حضارة مغايرة لما سبقها وتميزت باستعمال النصال الصوانية الطويلة . وكان صناع تلك النصال من نوع الإنسان العاقل وربما قدموا إلى المنطقة من جنوب غرب آسيا . وقد كانوا صيادين يعيشون على الكبش البربري والغزال وحمار الوحش وبقر الوحش مكيفين أنفسهم وحضارتهم الآسيوية لتتلاءم مع البيئة الجديدة . وقد استمرت حضارتهم هذه حوالي اثنين وعشرين ألف سنة .

ولما كان العصر الحجري الحديث قد بدأ في الفيوم وفي وادي النيل في الألف الخامس قبل الميلاد فإن من المعتقد أن حضارة هذا العصر أخذت تمتد غرباً إلى برقة والشمال الإفريقي ثم جنوباً إلى غرب إفريقيا بعد حلول الجفاف الذي أدى إلى تكون الصحراء الكبرى سنة ٢٥٠٠ ق . م .

ولقد مرت ليبيا القديمة بالمراحل المختلفة لعصر ما قبل التاريخ وأقام الإنسان الليبي القديم الحضارات الحجرية متأثراً قليلاً أو كثيراً بحضارات جيرانه في الشرق والغرب .

وكما قلنا عن الصحراء الليبية إنها متحف فني كبير لعصور ما قبل التاريخ ، نستطيع أن نقول عن ليبيا بحدودها الحالية إنها متحف آثار كبير لم تكتشف منه حتى الآن إلا زوايا قليلة ، ولم يفتح من مغالق كنوزه الحضارية سوى النزر اليسير . إن دراسة أحوال ليبيا في عصر ما قبل التاريخ لا تزال موضوعاً بكراً بالنسبة لعلماء التاريخ وعلماء الأركيولوجيا على حد سواء ، فقد ثبت أن قسطاً كبيراً من الآثار التي تم اكتشافها حتى الآن من مثل آثار مدينة جرما وقصر مارا

وشرابا ولوروكو والحاسيا وزويلة ، وما وجد فيها وحولها من قبور وأضرحة وقلاع منتشرة في وادي الآجال بفزان تعود جميعها إلى العصر التاريخي وإلى أيام الجرامنتين على وجه التحديد (حوالي القرن الثامن قبل الميلاد) رغم ما رقع فيه بعض الكتاب من التباس فنسبوا الكثير منها إلى عصر ما قبل التاريخ كما فعل جيمس ويلارد[1] .

العصر الحجري القديم الأدنى :

لعل أفضل ما نشر عن عصر ما قبل التاريخ في ليبيا حتى الآن هو كتاب : Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya لمؤلفيه (R. W. Hey و C.B.M. McBurney) ، فقد أظهر المؤلفان أن ما تم كشفه من مخلفات آركيولوجية يثبت أن ليبيا مرت بجميع مراحل عصر ما قبل التاريخ . ففي شمال منطقة طرابلس بشكل عام وفي موقع بئر دوفان[2] بشكل خاص اكتشفت مخلفات من صناعة الفؤوس الحجرية اليدوية تدل على أن تلك الصناعة سادت خلال فترة ممطرة تتفق مع فترة انتشار هذا النوع من الصناعة في الصحراء الغربية وفي واحة الخارجة . واكتشفت في توكرة ومواقع متفرقة من برقة في المدة الأخيرة مخلفات تدل على قيام حضارة العصر الحجري القديم الأدنى في ليبيا .

العصر الحجري القديم الأوسط :

أمّا حضارة العصر الحجري القديم الأوسط فقد أقيم الدليل على وجودها في ليبيا بملاحظة صناعات مختلفة هي :

١ ويلارد ، جيمس ، الصحراء الكبرى ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الأولى بيروت ، نوار (مايو) ١٩٦٧ ، ص ٣٥ .

٢ قرب أحد مصبات رافد من روافد وادي مردم الذي هو رافد لوادي سوفجين وعلى بعد مائة كيلومتر من الشاطئ .

١ — صناعة الشظايا والأدوات الشظايا المحسنة وقد وجدت مخلفات لها في ثلاثة مواقع مختلفة في برقة .

٢ — صناعة أخرى قام بها الإنسان النياندرتال (Neanderthal) وهي تناظر الصناعة التي كانت قائمة في فلسطين في هذا العصر وتتشابه أدواتها مع الأدوات التي وجدت في جبل الكرمل بحيفا في فلسطين . وفي الوقت ذاته فإن هذه الصناعة تعاصر بداية الزحف الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا .

٣ — محاجر صنع الأدوات المحسنة قليلاً وهي تعاصر شبيهاتها من عهد الزحف الثاني للعصر الجليدي الأخير في جنوب إيطاليا .

والدليل الناصع الآخر هو اكتشاف موقع الحاج كريِّم[1] حيث وجدت أدوات حجرية لها ما يماثلها في فلسطين وأوروبا . وتدل عظام الحيوانات التي وجدت ضمن مخلفات هذا الموقع على أن الجماعة التي كانت تعيش فيه كانت تقتني تلك الحيوانات لأكل لحومها . وأهم هذه الحيوانات هي البقر والغزلان وحمر الوحش والسلاحف البرية والكباش البربرية .

وقد وجدت أدوات حجرية تشبه أدوات موقع الحاج كريّم في وادي الناقة وعين مارا ومواقع أخرى غربي درنة وفي رأس عامر على ساحل برقة وفي وادي مردوم ووادي غان وسفوح جبل نفوسة بمنطقة طرابلس .

العصر الحجري القديم الأعلى :

وبالنسبة لحضارة العصر الحجري القديم الأعلى جاء اكتشاف حقفة الضباع في وادي الكوف إثباتاً قاطعاً لقيام هذه الحضارة في ليبيا . وتتماثل المخلفات التي وجدت في هذا الكهف مع ما وجد من مخلفات هذا العصر في فلسطين وسوريا من ناحية ومع ما وجد من مخلفات حضارة قفصة في تونس من الناحية الأخرى .

---

١ على الضفة الشرقية لوادي جحام قبل التقائه بوادي درنة وتحت ضريح المرابط سيدي الحاج كريم الذي سميت المنطقة باسمه وعلى بعد ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر من الشاطىء .

وقد دل التحليل الكربوني على أن مخلفات هذا الكهف ترجع إلى حوالي سنة ١٤٠٠٠ ق . م .

وهنالك كهف آخر هام هو كهف حقفة الطيرة (كهف الطيور) الذي اكتشفه سنة ١٩٣٧ م . الآركيولوجي الإيطالي السنيور بتروكي (Signor C.T. Petrocchi) . وتكمن أهمية هذا الكهف في أن محتوياته من الأدوات الحجرية والعظام وغيرها من المخلفات وجدت على ما تركت عليه دون أن تمتد إليها يد العبث ، وفي أنّه يحتوي أدوات يرجع بعضها إلى العصر الحجري القديم الأوسط بينما يرجع البعض الآخر إلى العصر الحجري القديم الأعلى[1] .

ومن مخلفات هذا العصر ما وجد في موقع « هوا الفتايح » بالقرب من أپولّونيا (= سوسة) . وقد دل التحليل الكربوني لمخلفاته على أنها تعاصر مخلفات حقفة الضباع وحقفة الطيرة .

العصر الحجري المتوسط :

أما العصر الحجري المتوسط فإن ما اكتشف من أدواته في ليبيا قليل ولا يكفي لإعطاء صورة عن الحضارة الليبية القديمة في هذا العصر . وبالرغم من ذلك فإن الإنسان الليبي القديم الذي مر بمراحل العصر الحجري القديم كلها لا بد وأن يكون تابع تطوره فمر بهذا العصر . ولقد اكتشفت حول خليج سرت أدوات تعود إلى قبيل العصر الحجري الحديث كما اكتشفت أدوات حجرية في وادي غان وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من غريان ترجع إلى قبيل بدء العصر الحجري الحديث . وعلى الضفة الأخرى لهذا الوادي ومقابل الموقع المذكور اكتشفت أدوات حجرية تدل أيضاً على أن صناعها إنّما عاشوا عشية

---

١ حقفة الطيرة كهف من الحجر الكلسي الذي تكون خلال عصر الميوسين وهو يقع في الطرف الشرقي من سهل برقة الساحلي وعلى بعد عشرة كيلومترات إلى الداخل من بنغازي وهو يفتح إلى الجنوب الغربي .

الانتقال إلى العصر الحجري الحديث . وبالإضافة لذلك فقد اكتشفت أمثلة لصناعات هذا العصر في مواقع أخرى متفرقة في ليبيا من الجبل الغربي حتّى الجبل الأخضر .

العصر الحجري الحديث :

إن المكتشفات الآركيولوجية في واحة سيوة وفي شمالي منطقة طرابلس وفي برقة مضافة إلى أحدث ما تمّ التوصل إليه في مصر والمغرب تشير كلها إلى أن ليبيا كانت خلال هذا العصر تنقسم إلى منطقتين حضاريتين تتميّز الواحدة منهما عن الأخرى : المنطقة الغربية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الغرب من خليج سرت ، والمنطقة الشرقية وتشمل كل الأرض الليبية الواقعة إلى الشرق من ذلك الخليج [1] . وقد كان يغلب على المنطقة الغربية الطابع الإفريقي كما إنها كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحضارات نيجيريا والسودان والنيل الأعلى في هذا العصر . وقد أيد هذا الرأي ما تم اكتشافه من مخلفات شبيهة بمخلفات هذه المنطقة في جبال الهجار وتبستي . ولقد وجدت في جبل نفوسة وفي سهل الجفارة بمنطقة طرابلس أدوات يرجع تاريخها إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث لحضارة قفصة [2] . أما المنطقة الشرقية فهي بواحاتها وما فيها من أماكن صالحة للسكن تشكل مثلثاً يقع إلى الشمال والشمال الشرقي من بحر الرمال الليبي وتمتد من الجبل الأخضر غرباً إلى الفيوم شرقاً ومن شاطىء البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى واحة الخارجة جنوباً . وفي هذه المنطقة نشأ طراز مستقر من الحضارة

١ يؤيد هذه القسمة امتداد تأثير حضارة قفصة العليا إلى المنطقة الغربية من ليبيا عبر سهل الجفارة ، وانعدام ذلك التأثير تقريباً في المنطقة الشرقية ، وذلك بالإضافة لصعوبة الجفارة من ناحية وقحولة المنطقة الجنوبية الشرقية لخليج سرت من الناحية الأخرى .

٢ حضارة قفصة الدنيا والعليا انتشرت في مساحة تبلغ مائة وعشرين ألف كيلومتر مربع تقريباً على السفوح الجنوبية الشرقية لكتلة جبال أطلس ، فهي بذلك حضارة داخلية قامت بمعزل عن الساحل التونسي الذي كانت تقوم على امتداده حتّى خليج قابس في الشرق وحتّى المحيط الأطلسي في الغرب حضارة وهران المعاصرة لحضارة قفصة العليا .

أقامته جماعات بشرية منتجة للغذاء منذ حوالي بداية الألف الخامس قبل الميلاد . وربما كان هذا التحول الحياتي إلى إنتاج المواد الغذائية بدلاً من جمعها ناجماً عن اتصال حضاري بين أبناء المنطقة الأصليين الذين كانوا يعيشون على الصيد وجمع الغذاء وبين جماعات طارئة منتجة للغذاء قدمت من جنوب غرب آسيا . وقد أكد المؤلفان : (C. B. M. Mc Burney) و (R. W. Hey) [1] قيام حضارة مستقلة إلى حد كبير في المنطقة الشرقية من ليبيا ابتداء من المراحل المتأخرة من العصر الحجري المتوسط على الأقل عندما كان إنسان هذه المنطقة لا يزال يعتمد في معيشته على الصيد وجمع المواد الغذائية وحتّى نهاية العصر الحجري الحديث . والقول بقيام حضارة مستقلة في المنطقة الشرقية من ليبيا يجب ألاّ يعني أن تلك الحضارة كانت في عزلة تامة عن الحضارات المجاورة وإنّما يجب أن يعني أنها كانت حضارة لها شخصيتها الخاصة بها وأنها كانت تؤثر في الحضارات المجاورة وتتأثر بها محتفظة بشخصيتها الخاصة طيلة الوقت . ونحن نلاحظ أن أدوات العصر الحجري الحديث التي وجدت في هذه المنطقة الشرقية من ليبيا كالسهم المفوّق والعصا ذات السطوح الثلاثة وصناعة الشظايا بالضغط تشبه نظائرها في بقية ساحل الشمال الإفريقي . وأقوى تقارب بين حضارة هذه المنطقة والحضارات المجاورة إنّما كان بينها وبين المرحلة الثانية من حضارة الفيوم بمصر . ولقد اشتدت النزعة الاستقلالية لهذه الحضارة في الفترة ما بين انتهاء العصر الحجري الحديث وعهد استبدال الأدوات الحجرية بأدوات من مواد أخرى . ولذلك فإنها لم تتأثر خلال تلك الفترة تأثراً يذكر بالحضارات المجاورة ، بل من الأرجح أن حضارة النيل المتقدمة على هذه الحضارة الليبية أخذت عنها الكثير [2] . أمّا سكان

١ McBurney, C.B.M. & Hey, R.W., *Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya*, Cambridge University Press, 1955, p. 261.

٢ Wulsin, Frederick, R., *The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa*; Museum of American Archæology and Ethnology, Harvard University, Vol; XIX — No.1, 1941, pp 96 — 99.

الواحات من ليبيا الشرقية فقد كانوا – كما هم عليه اليوم – شديدي المحافظة ؛ ولذلك فإنهم لم يقتبسوا إلاّ القليل من تقنية الحضارات المجاورة . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الرسوم والنقوش الصخرية الموجودة في مختلف أرجاء الصحراء الليبية دلّت على أنّه كان يسكن تلك الصحراء في العصر الحجري الحديث رعاة بقر مسلحون بالقوس والنشاب وأنهم وصلوا درجة معقولة من التقدم الفني وتعرضوا لعدة مؤثرات خارجية .

والمعروف أن صناعات العصر الحجري الحديث في شمال غربي إفريقيا نمت من صناعات العصر الحجري القديم الأعلى عن طريق التطور التدريجي وتحت مؤثرات أجنبية مصرية . والعصر الحجري الحديث بالنسبة لشمال غربي إفريقيا هو آخر فترة من عصر ما قبل التاريخ إذ يبدأ بعد ذلك – خاصة في المناطق الساحلية – العصر التاريخي الحقيقي بنزول الفينيقيين في مطلع الألف الأول قبل الميلاد في هذه المنطقة . وبتأثير الفينيقيين صارت دائرة العصر التاريخي تتسع ممتدة شرقاً وغرباً وجنوباً واستمرت كذلك في العهود الروماني والبيزنطي والعربي . أمّا المناطق الداخلية والصحراوية فقد ظلّت في عصر شبه تاريخي (Protohistoric) يمكننا أن نقول إنّه بدأ بعصر هيرودوتس (القرن الخامس ق . م .) وانتهى بالفتح الإسلامي[1] . وبالنسبة لبرقة نستطيع أن نقول إنها عاشت في العصر التاريخي منذ بدء احتكاكها بالحضارة المصرية في عهد الدولة القديمة ولكنها لم تدخل العصر التاريخي الحقيقي إلا بعد نزول الإغريق فيها في القرن السابع قبل الميلاد .

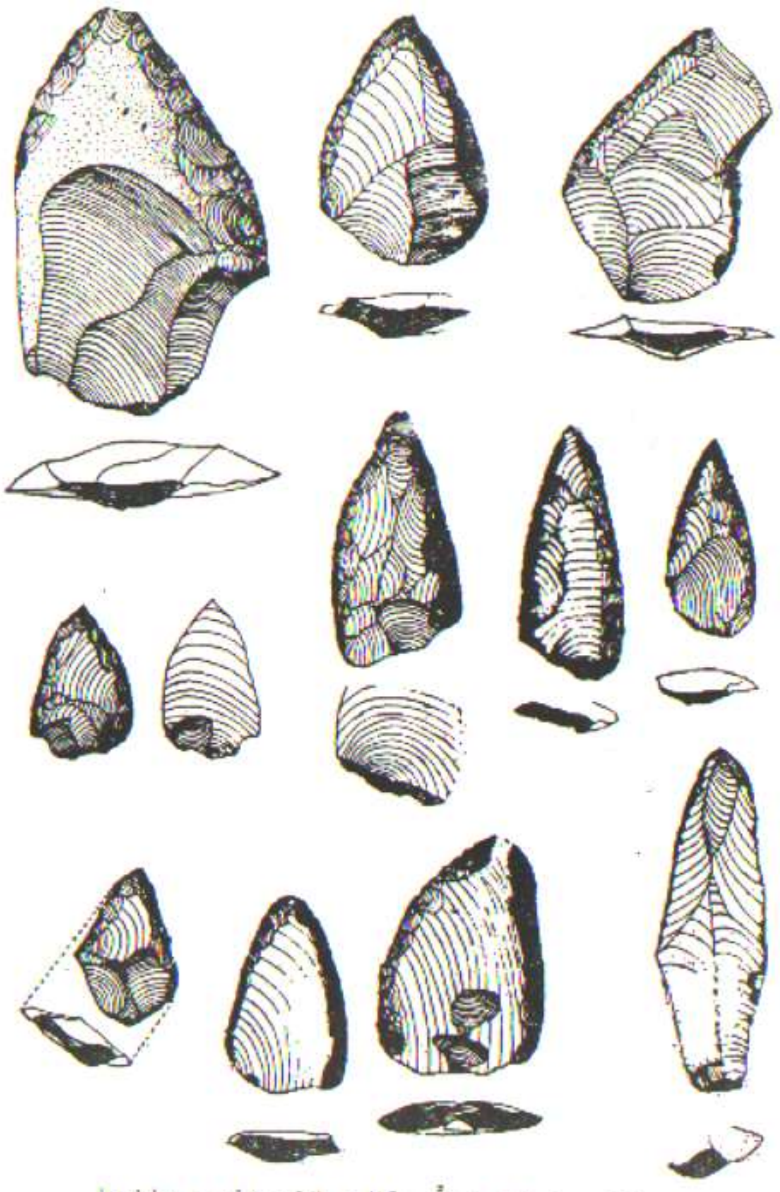

(٧) موقع الحاج كريّم : كتل صوانية معدة ليصنع منها غيرها

عن : ماكبيرني

١ المرجع السابق ، ص ٩٩ وما يليها .

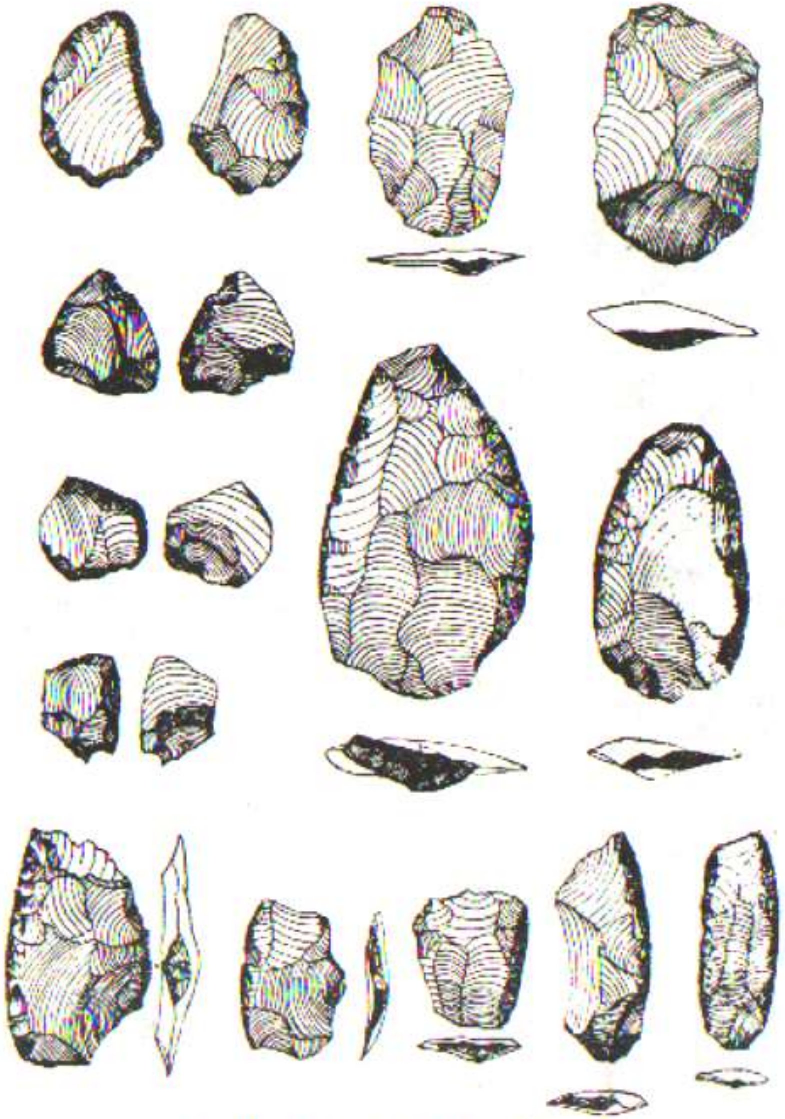

(٨) الحاج كريْم : مكاشط ذات حدّ واحد وأُخرى ذات حدين

عن : ماكبيرني

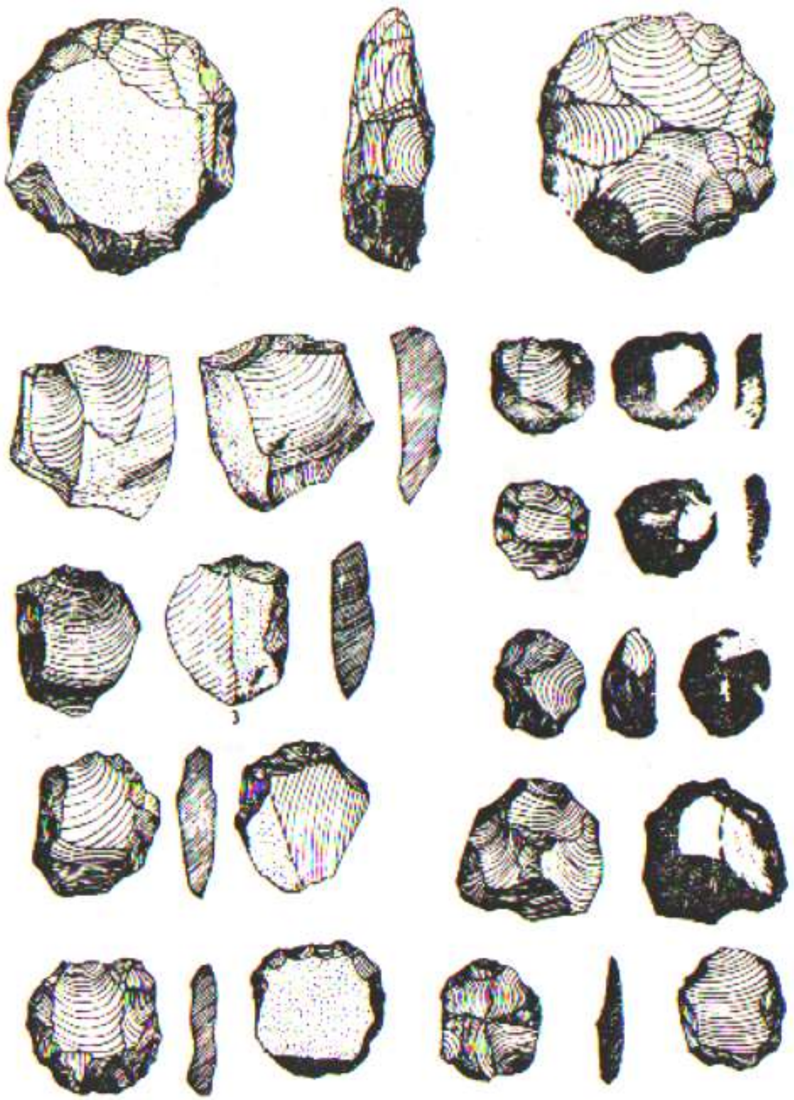

(٩) كتل صوانية أخرى معدة ليصنع منها غيرها (موقع الحاج كريتم)

(عن : ماكيرني)

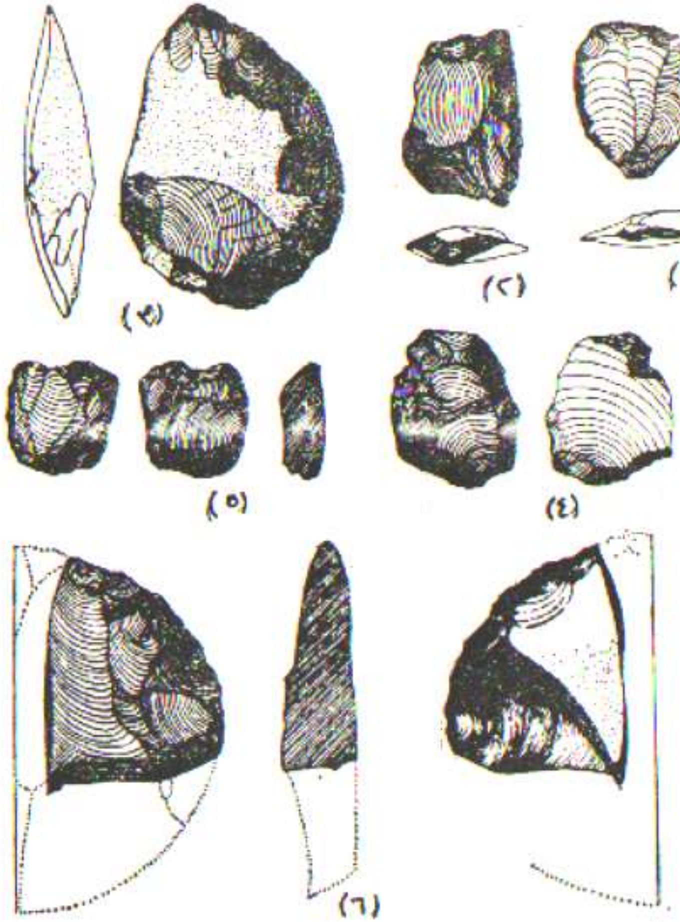

(١٠) عين مارا : أدوات تماثل أدوات الحاج كريّم

١) أداة نهايتها مكشط — ٢) مكشط جانبي صغير
٣) مكشط جانبي كبير — ٤) مكشط مائل الحد
٥) كتلة صغيرة اشتقت منها أدوات من الجهتين ،
٦) أداة للطعن مع تقدير للقرص الذي اشتقت منه .

(عن : ماكبيرني)

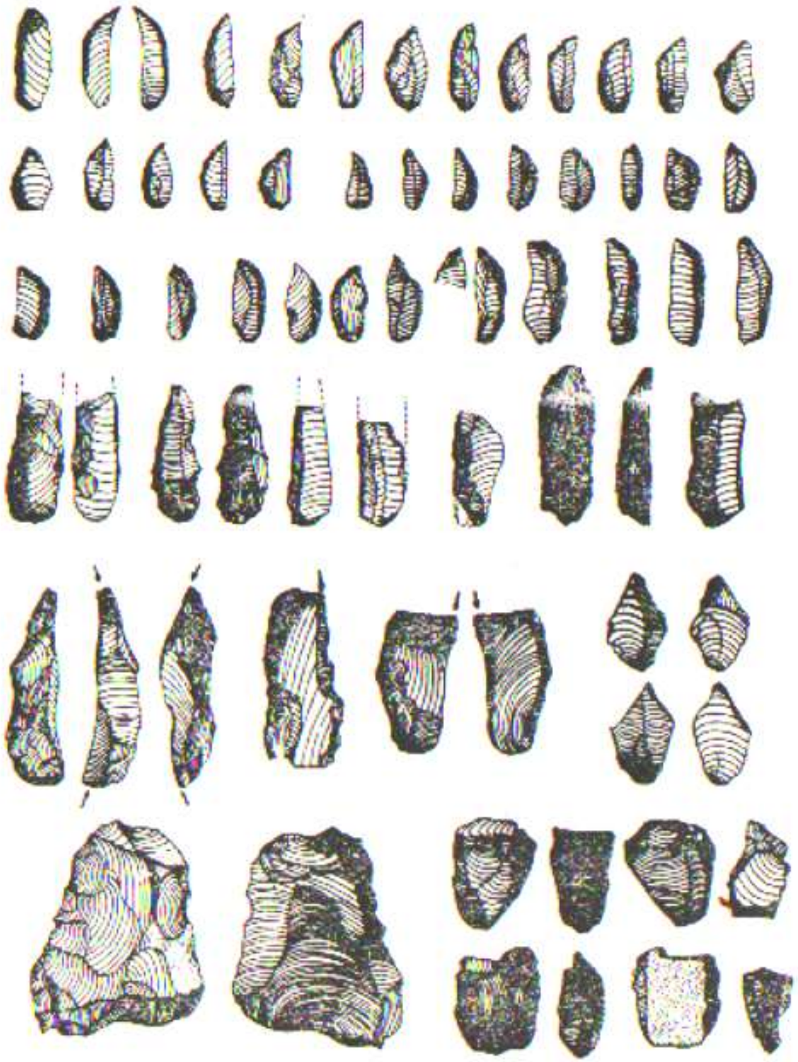

(١١) حقفة الطيرة : نصال ومناقيش متنوعة وكتل معدة ليعمل منها غيرها

(عن : ماكبيرني)

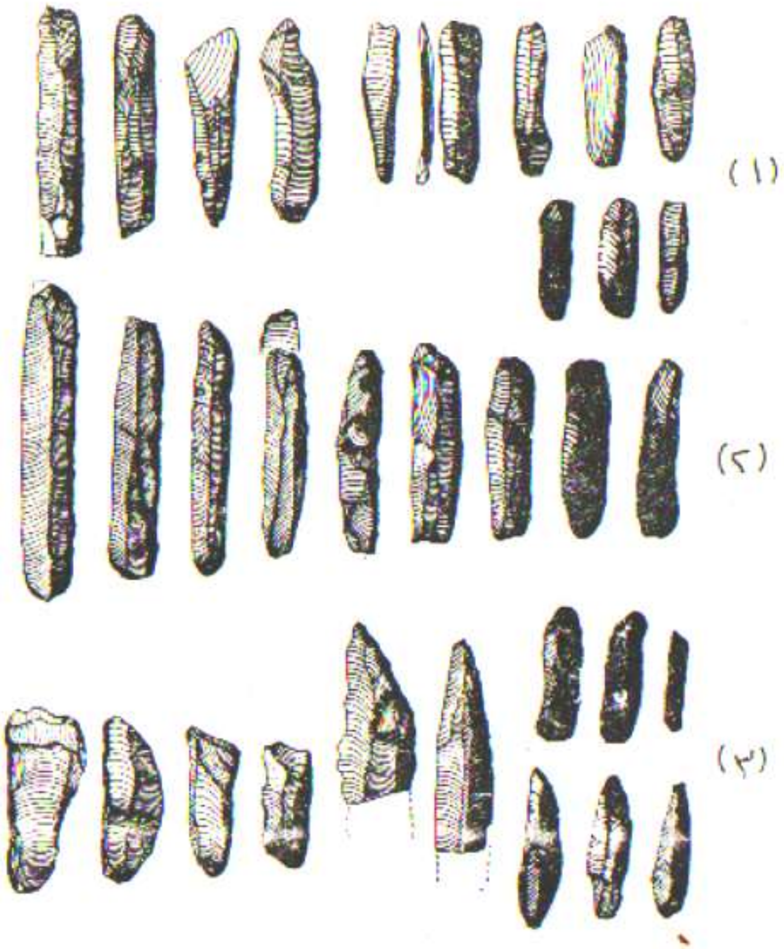

(١٢) حقفة الضباع : ثلاث مجموعات من النصال الصوانية

١) نصال مستقيمة ذات حد واحد
٢) نصال ذات حد واحد ونهاية محددة
٣) نصال منحنية ذات حد واحد

(عن : ماكبيرني)

(١٣) حقفة الضباع : أنواع مختلفة من النصال

(عن : ماكبيرني)

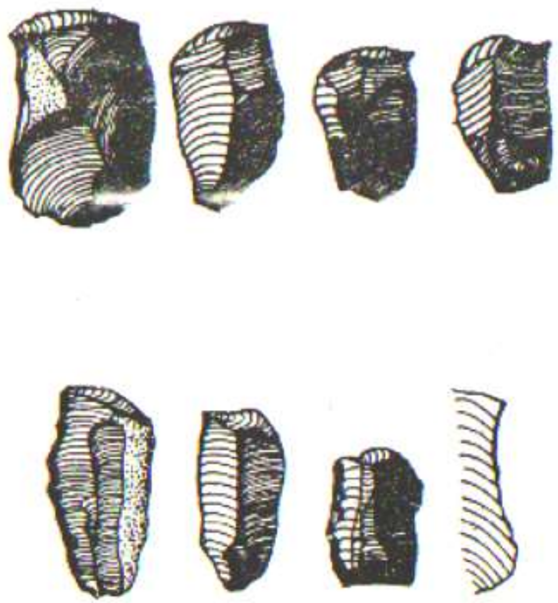

(١٤) مناقيش وجدت على سطح الأرض في نجع حمادي بمصر
للمقارنة مع المجموعتين (٣) و (٤) شكل (١٣)
(عن : ماكبيرني)

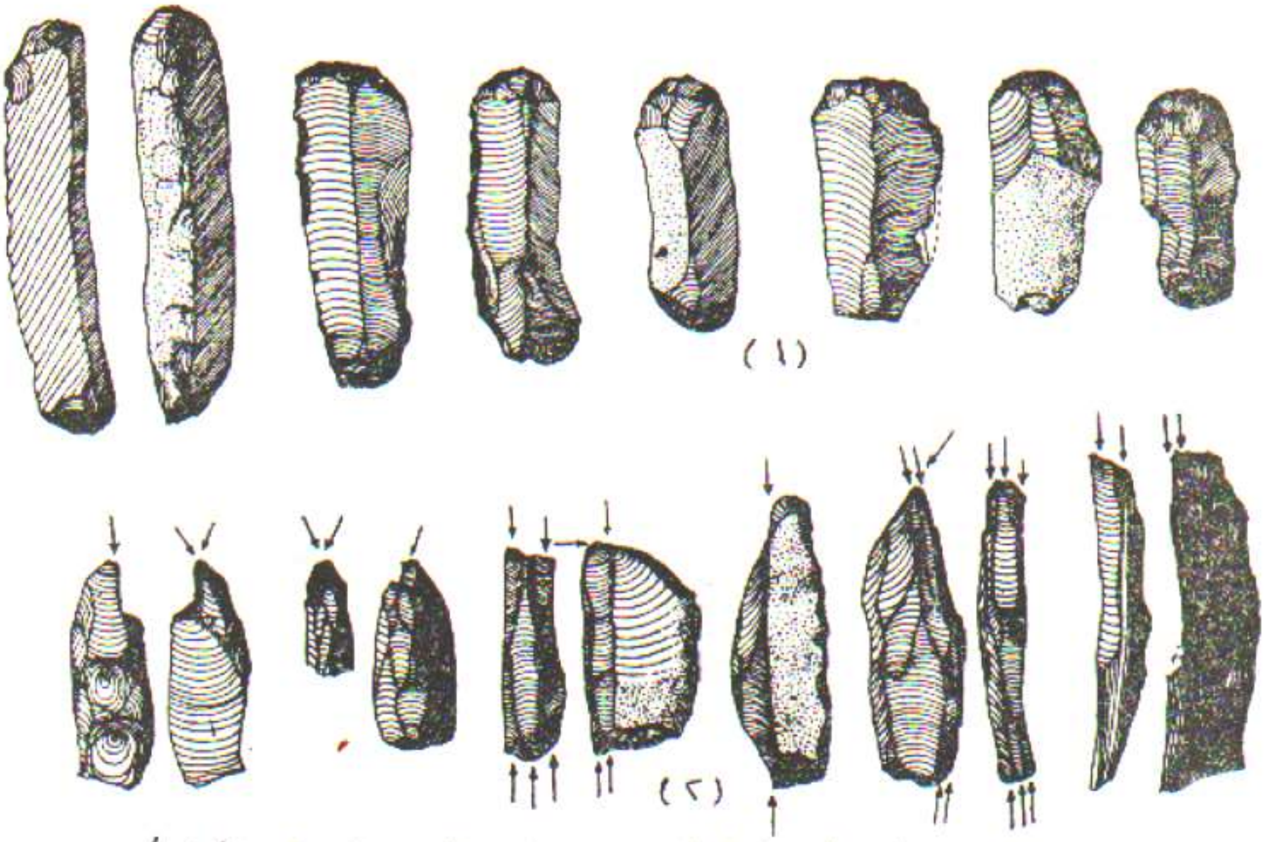

(١٥) حقبة الصباغ: المجموعة الأولى: أدوات نهاياتها مكاشط المجموعة الثانية: مناقيش تنقش بها أدوات أخرى

(عن: ماكبيرني)

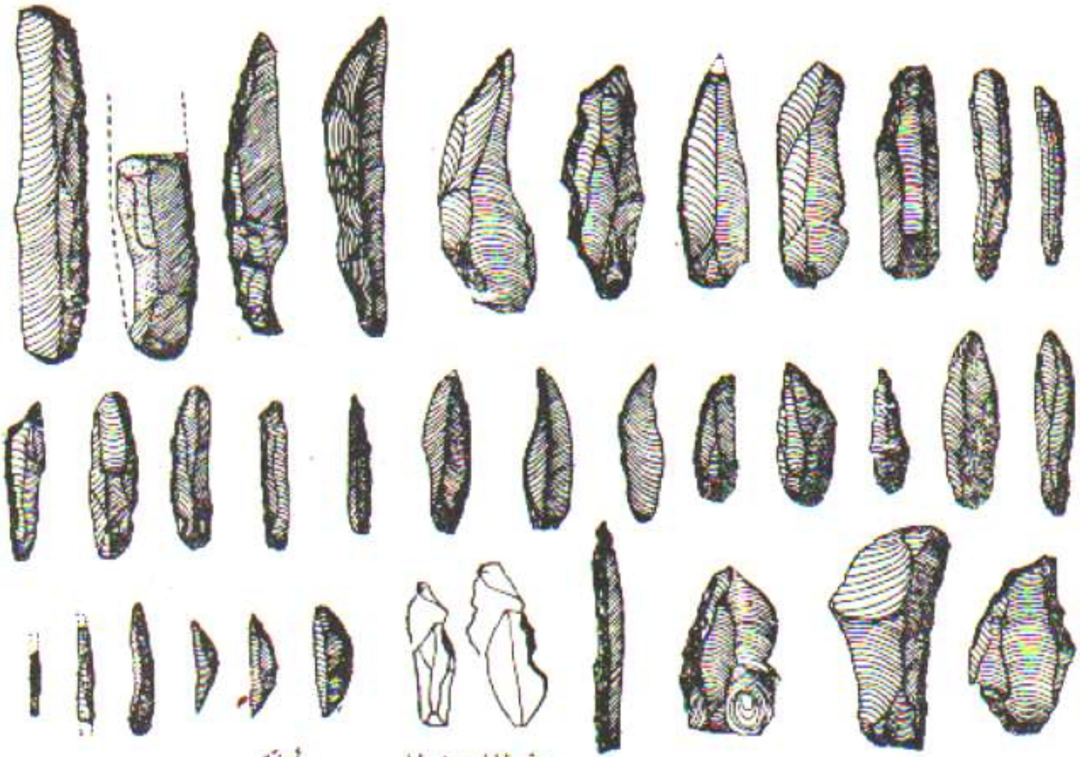

(١٦) حقفة الضباع : نصال متنوعة
(عن : ماكبيرني)

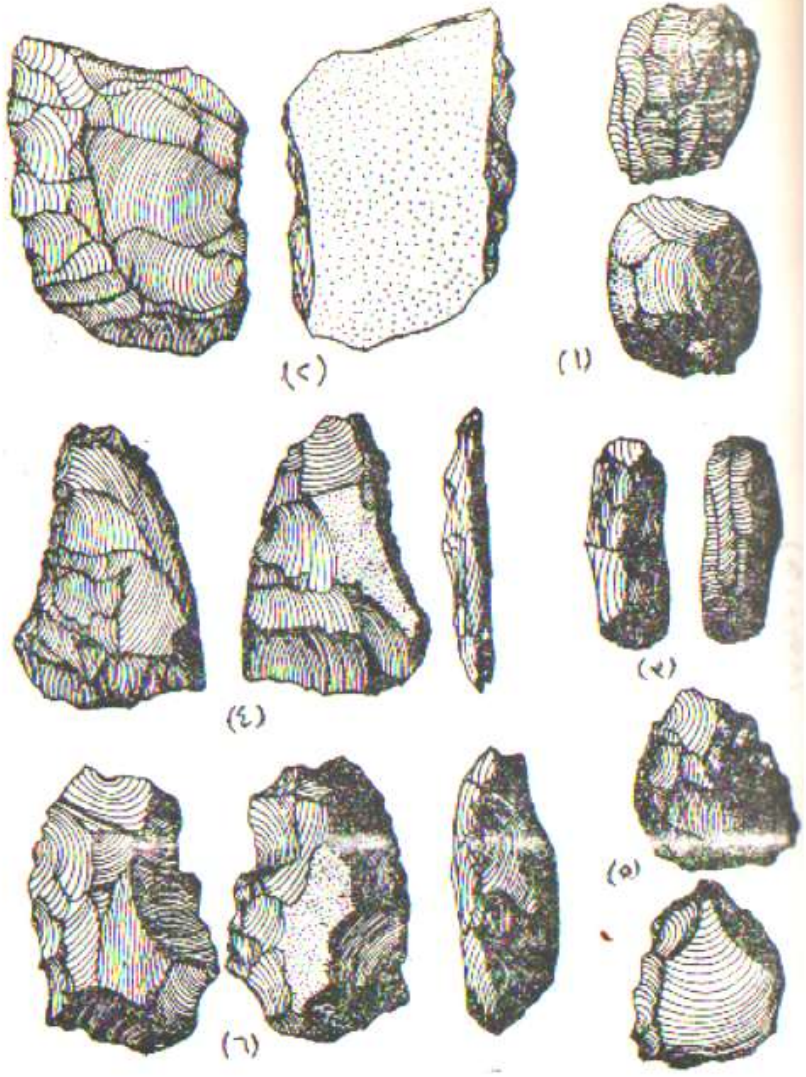

(١٧) حقفة الضباع : ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ : كتل تعمل منها النصال وربما كانت الأصل الذى نتج عنه القدوم في العصر الحجري الحديث في ليبيا ١ ، ٣ : كتل معدة لعمل النصال

(عن : ماكبيرني)

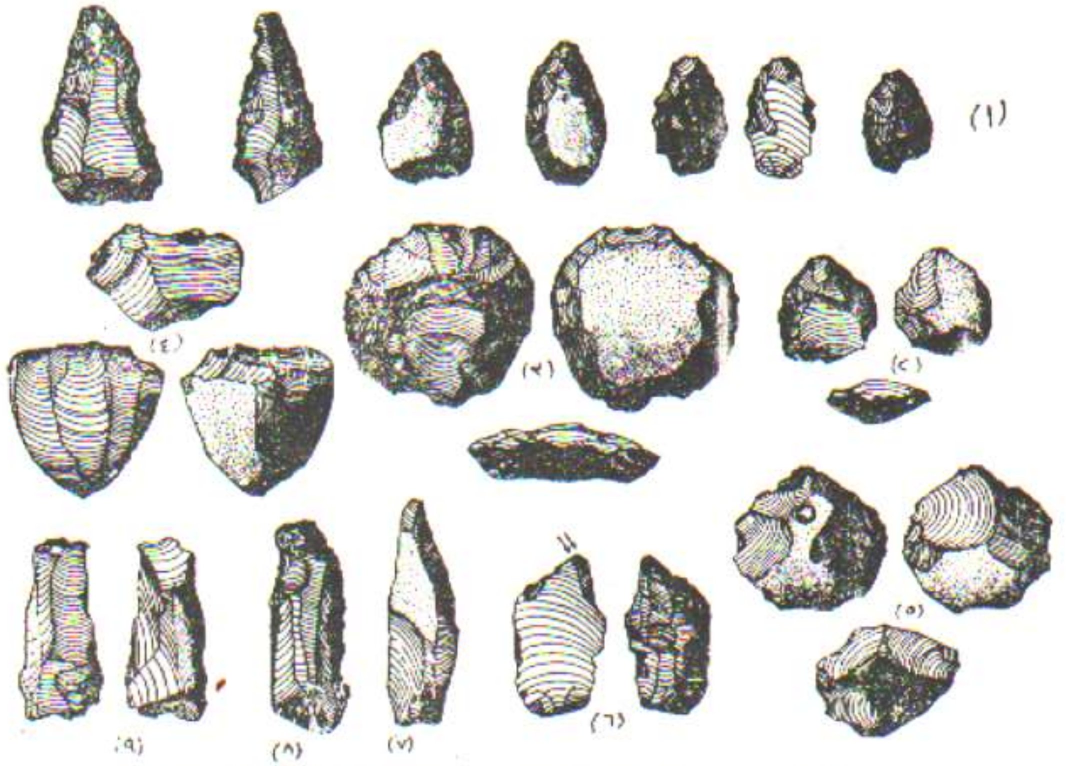

(١٨) وادي غان : ١ و٦ أدوات مدببة الرؤوس، ٤ ، ٥ ، كتل لعمال النصال ، ٢ ، ٣

كتل على شكل اسلحماه ، ٧ ، ٨ ، نصلان ، ٩ ، منقاشان .

(عن : ماكبيرني)

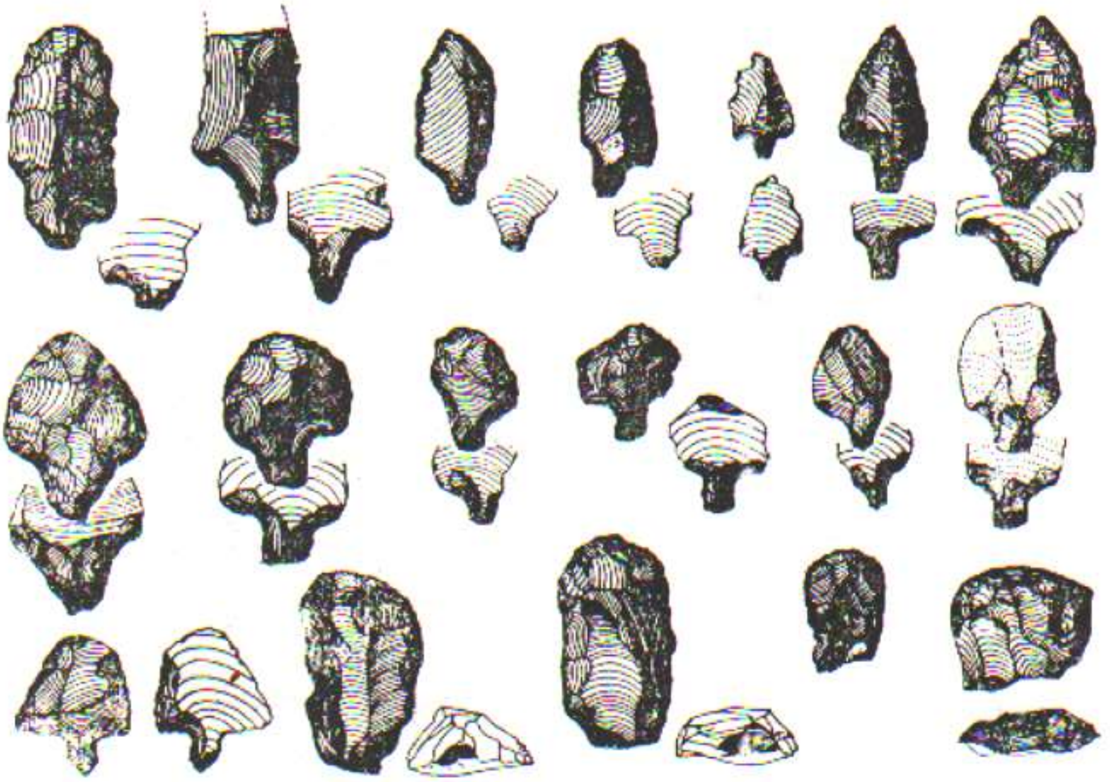

(١٩) وادي غان : أدوات حجرية متنوعة

(عن : ماكبرني)

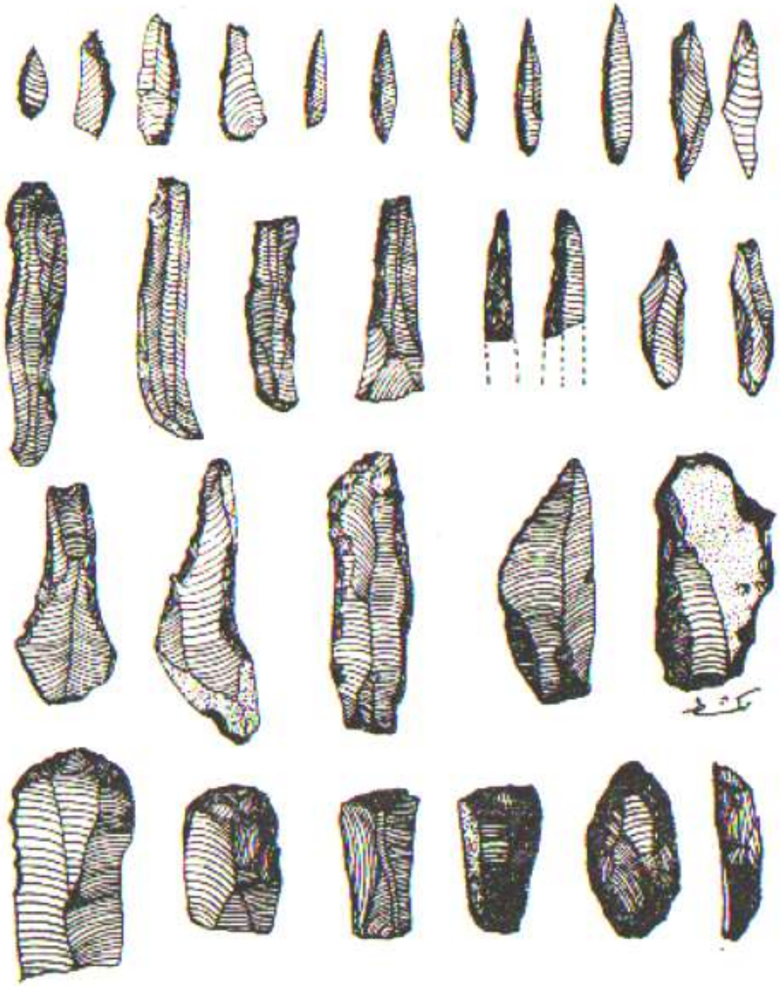

أدوات تكوّن نهاياتها مكاشط

(٢٠) وادي غان : نصال وشظايا
(عن : ماكبيرني)

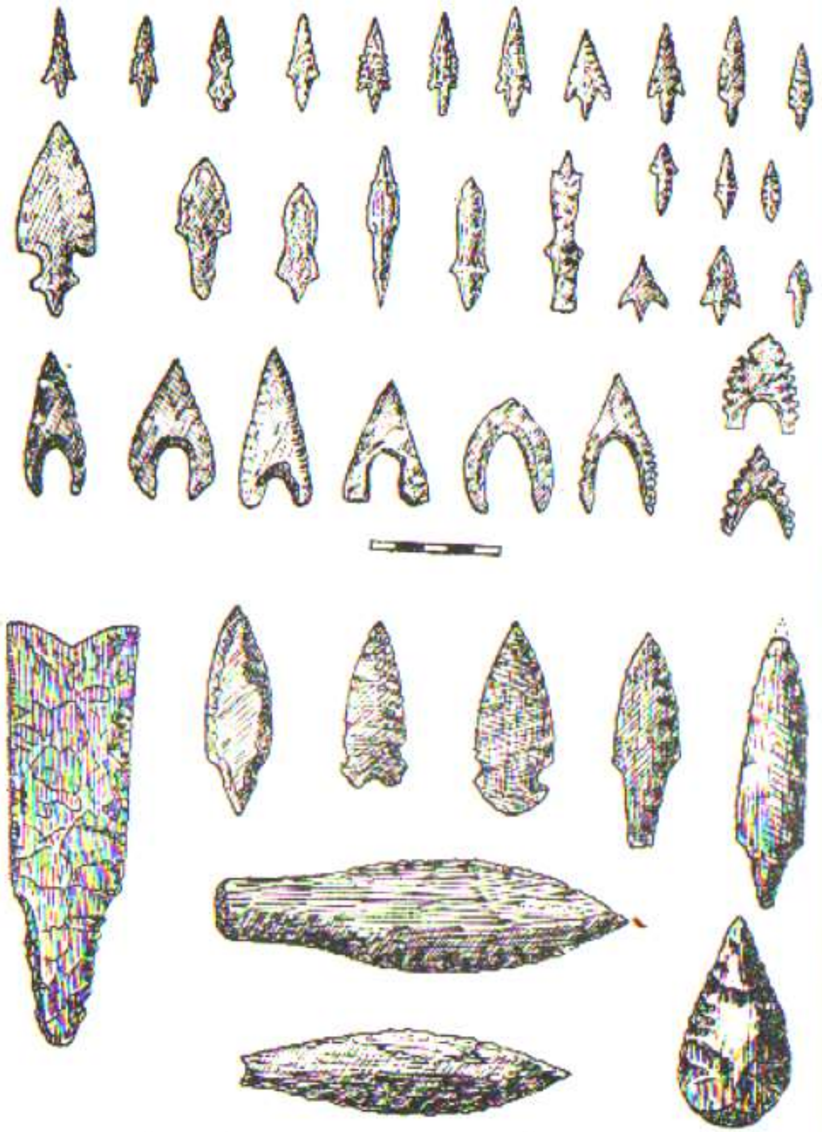

(٢١) رؤوس سهام وأسنة رماح ليبية من مخلفات العصر الحجري الحديث

(عن : أوريك بيتس)

طرابلس من فجر التاريخ

حتى بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما أسس الفينيقيون أول محطة تجارية لهم في صبراته

تاريخ الإقليم الطرابلسي في هذه المرحلة أشبه بتاريخ فزان من حيث غموضه وقلة مصادره . وأحسن مصدر لنا عن تاريخ هذه المنطقة وبعد الفترة التي تتحدث عنها هو هيرودوتس الذي حدثنا بالكثير عن القبائل الليبية وعاداتها . وليس أمامنا من خيار سوى أن نرسم صورة لأحوال هذا الإقليم ونمط الحياة فيه كما صورها هيرودوتس ، ونفترض قياساً عليها أن أحواله منذ أقدم عصوره التاريخية حتى زمن هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كانت إلى حد كبير تشبه ما كانت عليه أيام هيرودوتس وإن كانت أكثر بدائية من ذلك .

كانت ليبيا عند هيرودوتس تبدأ من غربي النيل وتمتد حتى شاطىء المحيط الأطلسي ، ومن الجنوب كانت تحدها بلاد الإثيوبيين السود ذوي الشعور التي تشبه الصوف . ووصف هيرودوتس ليبيا الشرقية (وهي تقريباً ليبيا الحالية) بأنها مأهولة بالبدو الرحل . وقد عدد من قبائلها :

١ – الأدرماخيدي (Adyrmachidæ) : وكانت تشغل المنطقة من دلتا النيل في الشرق إلى ميناء پلاينوس (Plynos) [١] في الغرب .

٢ – الجليجامي (Giligamæ) : وكانت منازلها تمتد بين ميناء پلاينوس في الشرق إلى جزيرة أفروديسياس (Aphrodisias) [٢] في الغرب .

---

١ ميناء البردية أو سيدي براني ؟ .

٢ جزيرة الشرقية أو الحمام أو جزيرة كرسة إلى الغرب من درنة ؟

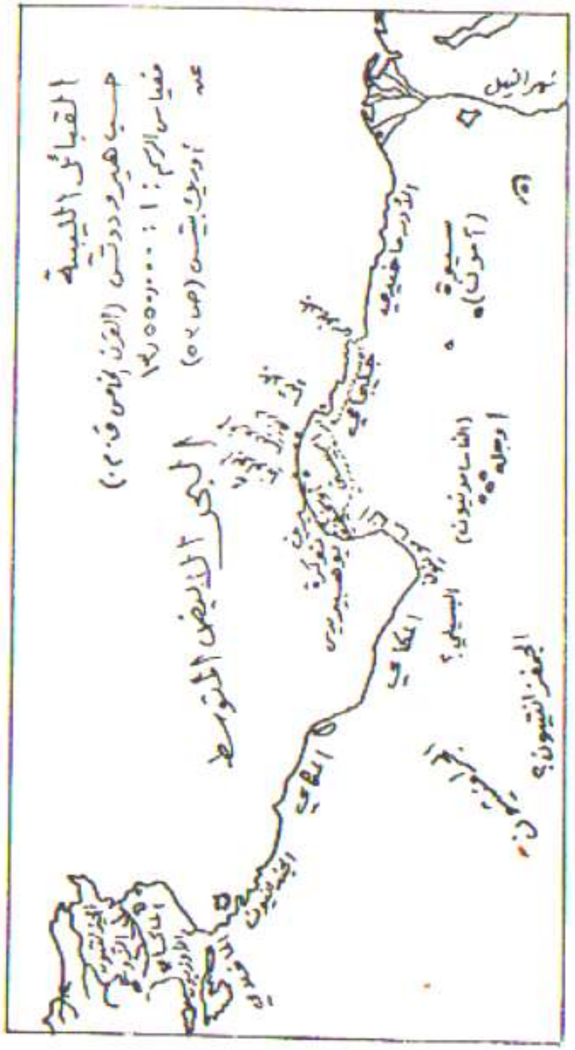

خارطة رقم ٢

٣ — الاسبستي (Asbystæ) : وكانت تشغل المنطقة إلى الغرب من ديار الجليجامي وتمتد في الداخل بعيدة عن الساحل حتى موازاة قورينة التي كان الإغريق قد استوطنوها .

٤ — الأوسخيزي (Auschisæ) : وكانت ديارها تمتد إلى الجنوب من مدينة برقة (= المرج) وحتى يوسبيريدس (= بنغازي) .

٥ — البكالي (Bacales) : وهي قبيلة صغيرة كانت تعيش ضمن أراضي القبيلة الرابعة حول ساحل توكرة .

٦ — الناسامونيون (Nasamones) : قبيلة كبيرة كانت تنتشر إلى الجنوب الغربي من القبيلة الرابعة ، وكانوا يحتلون المنطقة الساحلية حتى خليج سرت الكبير وينتشرون في الداخل حتى أوجلة .

٧ — البسلّي (Psylli) : وكانوا في الأصل يقيمون حول خليج سرت الكبير ولكن منطقتهم خضعت للناسامونيين .

٨ — المكاي (Macæ) : وكانوا يقيمون على شواطىء خليج سرت إلى الغرب من الناسامونيين ويجري نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) إلى بحرهم قادماً عبر أراضيهم من تل يقال له تل الحسان (= مرتفع إلاهات الجمال الثلاث (Three Graces) بهضبة ترهونة ؟) .

٩ — الجندانيون (Gindanes) : وكانوا يقطنون أقصى غرب الساحل الليبي ، ويبدو أنهم كانوا يشكلون قسماً قوياً من اللوتوفاجي (أكلة اللوتس أو النبق) .

١٠ — الماخلاي (Machlyes) : وكانوا يقيمون إلى الغرب من الجندانيين "وتصل مواطنهم إلى نهر عظيم يقال له تريتون وهو يصب في بحيرة تريتون العظيمة (= شط الجريد) " .

ونحن لا نزعم أن القبائل التي ذكرها هيرودوتس كانت على الساحل الطرابلسي (الأرقام ٦ — ١٠) منذ فجر التاريخ ، ولكنا نقول إن هذا الساحل

كان مأهولاً منذ بداية تاريخه بقبائل تعيش عيشة بدوية كان قوامها في مراحلها الأولى جمع المواد الغذائية ثم الصيد ، ثم امتهنت الرعي إلى جانب الصيد ، ولم تلبث أن بدأت في عصر هيرودوتس تمارس الرعي والزراعة جنباً إلى جنب . ويستفاد مما كتبه هيرودوتس أن سكان الساحل الطرابلسي القدماء كانوا أقل تقدماً من جيرانهم الليبيين الغربيين الذين عرفوا حياة الزراعة والاستقرار في منازل ثابتة في وقت كان سكان الساحل الطرابلسي فيه لا يزالون غارقين في بداوتهم . وسنتحدث عن عادات ليبيي الساحل الطرابلسي وتقاليدهم وما قطعوه نحو التقدم الحضاري في الفصل التالي .

فزان من فجر التاريخ

حتى ظهور الجرامنتيين حوالي القرن الثامن قبل الميلاد

تحدثنا قبل قليل عن أحوال الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ وبيّنا كيف كانت تعج بالحيوانات والوحوش والنباتات والناس . وقد عرفنا أنّه ابتداء من حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م . كان الإنسان الذي يعيش في مناطق فزان يخرج من عصر حضارة الصيادين ويدخل عصر حضارة الرعاة نسبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن [1] . ولما كانت مصادرنا عن هذه الفترة من تاريخ هذا القسم من ليبيا لا تزودنا إلا بالنزر اليسير من المعلومات فليس أمامنا إلا أن نفترض أن سكان هذه المنطقة استمروا يعيشون عيشة الصيادين والرعاة . ونحن عندما نتحدث عن هذه المنطقة تحت عنوان فزان فإنّنا إنّما نقصد بها كل المناطق الداخلية في ليبيا بمفهومها الجغرافي الحديث ؛ ذلك أن فزانيا كانت في العصر الروماني ، ولا بد أنها كانت قبله كذلك ، تشمل " جميع الأراضي الواقعة خلف الجبال إلى الجنوب من ناحية غريان الحالية كما كانت تقترب من البحر اقتراباً شديداً في المنطقة الواقعة شرقي لبدة وتمتد حتى قرب أوجلة شرقاً ، ومن المحتمل أنها كانت تشمل منطقة واحات الكفرة والعوينات الشرقية . أمّا غرباً فقد كانت تمتد من غدامس شمالاً حتى غات وربما وارجلا جنوباً " [2] .

أما عن سكان هذه المنطقة الداخلية الواسعة التي كانت تغلب عليها الطبيعة

١ انظر ص ٣٢ .

٢ أيوب ، محمد سليمان ، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة ١٨١١ م ، المطبعة الليبية ، طرابلس الغرب ، ص ١١ .

الصحراوية بشكل يشبه ما هي عليه اليوم ، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً سوى ما رواه المؤرخ الإغريقي هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد ، في أعقاب جولة له في ليبيا زار خلالها مدينة قورينة (= شحات) وجمع كثيراً من المعلومات الجيدة عن ليبيا سجلها في كتابه الرابع [1] حيث يقول عن هذه المنطقة : « ويسكن الجنوب الجرامنتس (والصحيح الجامفزانتس Gamphasantes) في أرض الوحوش ، وكانوا يفرون من منظر الناس ، وينفرون من صحبتهم ، ولم تكن لهم أسلحة حرب ، ولم يكونوا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم » ، وفي موضع آخر يقول هيرودوتس : « تحدثت عن كل الليبيين الرعاة الذين كانوا يعيشون على ساحل البحر . وفي أعماق الداخل توجد بلاد ليبيا التي تسرح فيها الوحوش ، ولكن بعد أرض الوحوش هذه ، يوجد نطاق من الرمال يمتد من طيبة في مصر إلى أعمدة هرقل . وعلى مراحل كل واحدة منها تستغرق مسيرة عشرة أيام توجد أكمات من الملح في نجاد رملية ، ويعلو كل نجد نبع يقذف من وسط الملح بماء بارد عذب . وحولها يقيم القوم الذين تقع مضاربهم بعيداً في الصحراء وإلى الداخل من أرض الوحوش » .

ولقد أكد الكاتب الروماني استرابو (٦٦ ق . م . — ٢٤ م) ما ذكره هيرودوتس وأضاف إليه عن دواخل ليبيا قوله : « إنّنا لا نعرف شيئاً عن أغلب القبائل التي تسكن ليبيا لأن الجيوش الأجنبية والرحالة الأجانب قليلاً ما ارتادوا البقاع الداخلية ، كما وأن القليل جداً من سكان تلك الجهات هم الذين جاءوا إلى مُدننا بالشاطيء ، وحتى هؤلاء القلّة قلما يذكرون أية أخبار مفصلة عن بلادهم ، وعلى كل حال فإنّني أروي المعلومات التالية نقلاً عنهم : « يسكن في أقصى جنوب ليبيا الأقوام المسمون باسم الإثيوبيين ، وإلى الشمال منهم يسكن الجرامنت أغلب الجهات ، وإلى جوارهم الفاروسي (Pharusii)

١ انظر الملحق « ب » من هذا الكتاب .

والزنوج (Nigriti) ، وإلى شمال هؤلاء يعيش الجتولي (Gattoli) » .

ويفهم مما كتبه هيرودوتس والكتاب الكلاسيكيون من بعده أن سكان فزان قبل قدوم الجرامنتيين كانوا عبارة عن سلالتين مختلفتين : السلالة الأولى إثيوبية وكان أبناؤها طوال القامة ، سمر الوجوه ، ماهرين في الرسم والتصوير الصخري ، مسالمين ، يستعملون أسلحة وأدوات بسيطة لأنهم يجهلون الأسلحة والأدوات المعدنية ، ويشتغلون برعي الأبقار في الأودية والسهول ، ولعلهم لم يتعدوا حضارة العصر الحجري الحديث . أمّا السلالة الثانية فكانت من الزنوج الذين كانوا يسكنون الكهوف في حمادة مرزق وما جاورها ، وكانوا قوماً قصار القامة يعيشون على الأفاعي والديدان والحشرات . ولعل هؤلاء الأقوام الذين أطلق عليهم هيرودوتس اسمَ «التروجلودايت Troglodytes» هم أسلاف «الدوادة» في أيامنا هذه من سكان مندرة وقبرعون . وقد كان مصير هؤلاء الأقوام الخضوع للجرامنتيين الأقوياء الذين تغلبوا عليهم بفضل أسلحتهم وعرباتهم الحربية وأسموهم جامفزانتس واسترقوهم ليرعوا لهم الماشية أو يشتغلوا في المزارع أو يؤدوا أية خدمات أخرى يكلفهم بها أسيادهم الذين كانوا قد نصبوا أنفسهم كطبقة عسكرية حاكمة في البلاد حوالي القرن الثامن من قبل الميلاد .

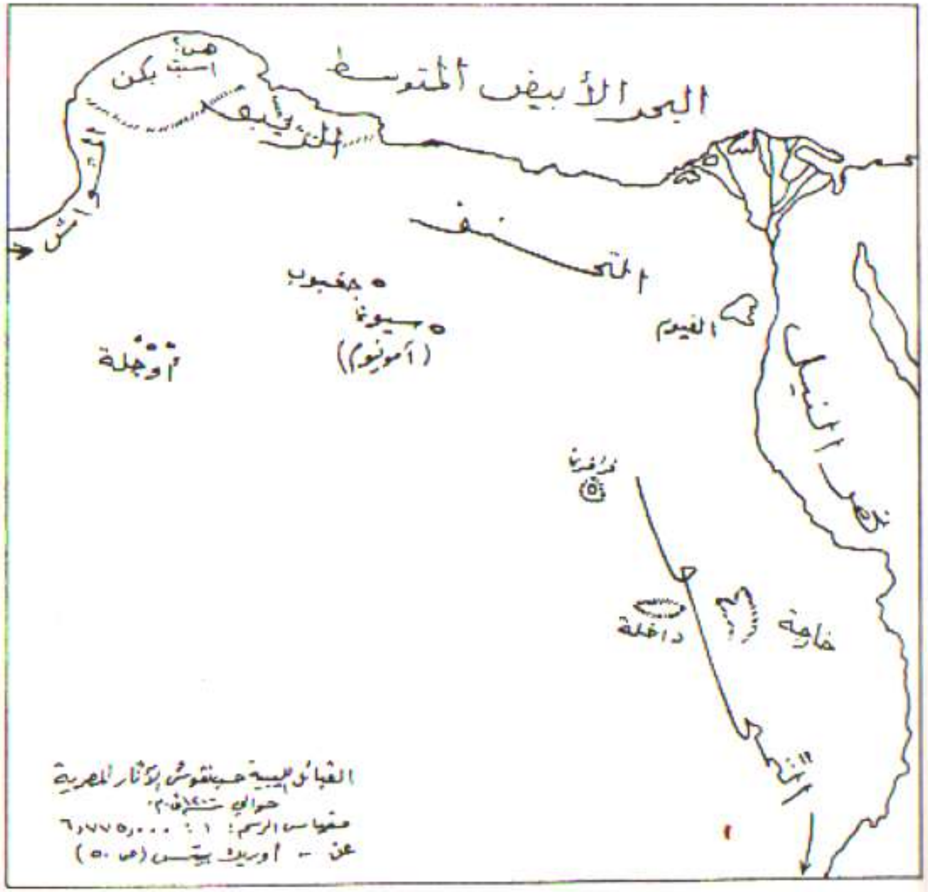

خارطة رقم ١

الحضارة الليبية القديمة

نعني بكلمة حضارة كل ما ينتجه الفرد وكل ما ينتجه المجتمع الإنساني في جميع مجالات الحياة سواء كان ذلك الإنتاج فكرياً أو مادياً . وإذن فإن أسهل الطرق لدراسة حضارة شعب من الشعوب هي أن نأخذ مظاهر تلك الحضارة وندرسها واحداً واحداً ثم ندمج تلك الجزئيات في كل واحد ، هو الصورة الشاملة المجملة للحضارة موضوع البحث . ولقد سبق لنا أن لمحنا شيئاً من حضارة الليبيين في عصر ما قبل التاريخ ، وسنحاول الآن أن نبرز ملامح هذه الحضارة في الفترة التي تبدأ ببدء التاريخ الليبي ، وتمتد عبر مرحلة جديدة من مراحل هذا التاريخ تتحدد معالمها بنزول الإغريق في منطقة برقة ، ونزول الفينيقيين في منطقة طرابلس واستقرار الجرامنتيين في منطقة فزان، ومظاهر هذه الحضارة أو مقوماتها هي : اللغة ، والمجتمع ونظام الحكم ، والاقتصاديات من صيد ورعي وزراعة وتجارة وصناعة ، والعادات والتقاليد والأزياء والمساكن والعمران والأدوات والفنون والدين .

١ ــ اللغة الليبية القديمة :

يقول أوريك بيتس (Oric Bates) في فصل ممتع عن هذا الموضوع [١] :

« إن أصل اللغة التي تكلمها الليبيون منذ فجر التاريخ غير معروف تماماً، كما هي الحالة بالنسبة لأصل الليبيين أنفسهم . ولعل من الأفضل أن توضع كل التكهنات الخاصة بهذا الموضوع على الرف إلى أن يتم تجميع المزيد من الأدلة والبينات » .

وقد خرج بيتس من مقارنة عقدها بين اللغة الليبية (البربرية) القديمة

١ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, p. 74.

واللغة المصرية إلى أن العلاقة بينهما في القواعد والمفردات علاقة وثيقة ولكن ليس من المعروف أين تم ذلك الاتصال والتداخل وما إذا كان قد تم بينهما في مصر السفلى أو العليا . وعلى أي حال فإن الدلائل تشير إلى أن اللغة الليبية القديمة تمتعت بقسط وافر من الاستمرارية منذ عصر ما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة .

ولا يتعدى أقدم نقش كتب بأبجدية اللغة الليبية القديمة القرن الرابع قبل الميلاد . وقد تم في القرن السابع عشر الميلادي اكتشاف نقش اشتهر باسم نقش « ثجا Thugga » وقد سجل باللغتين الليبية والفينيقية[1] ، ومنذ ذلك الحين كثرت التكهنات حول أصل أبجدية الشمال الإفريقي التي تطلق عليها أسماء مختلفة فتسمى ليبية أو نوميدية أو بربرية أو ليبية – بربرية ، وحول أصل سليلتها التفيناغ (Tefinagh) . وقد عزي أصل الأبجدية الليبية للمصرية وللإغريقية والوندالية والفينيقية الحديثة . وبالرغم من كثرة النظريات التي ظهرت حول هذا الموضوع إلا أن نظرية هاليفي (Halevy) – أواخر القرن التاسع عشر – لا تزال أقواها . وقد قارن هاليفي الأبجدية الليبية بالأبجدية الفينيقية التي كانت شائعة في الشمال الإفريقي فوجد ستة من الحروف الليبية الثلاثين لها نظائر قديمة في الأبجدية الفينيقية الحديثة تمثل نفس الأصوات مما يدل على أن فكرة الكتابة وبعض الحروف الليبية – ليس كلها – اشتقت من الفينيقية ثم أضيفت لها علامات من مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط أخذت عن العلامات التي كان الملاكون أو الصناع يسجلونها على منتوجاتهم من الخزفيات وغيرها ، وضمت إلى الحروف الليبية لاستكمال أبجدية ليبية تكون بسيطة وعملية وتفي بالحاجة . ويرى هاليفي وليتورنو (Letourneux) أن الأبجدية التي تطورت على هذا النحو تتكون – كما تظهر في النقوش الأثرية – من ثلاثين حرفاً موضحة في الكشف (شكل ٢٥) .

---

١ هذا النقش موجود حالياً في المتحف البريطاني في لندن .

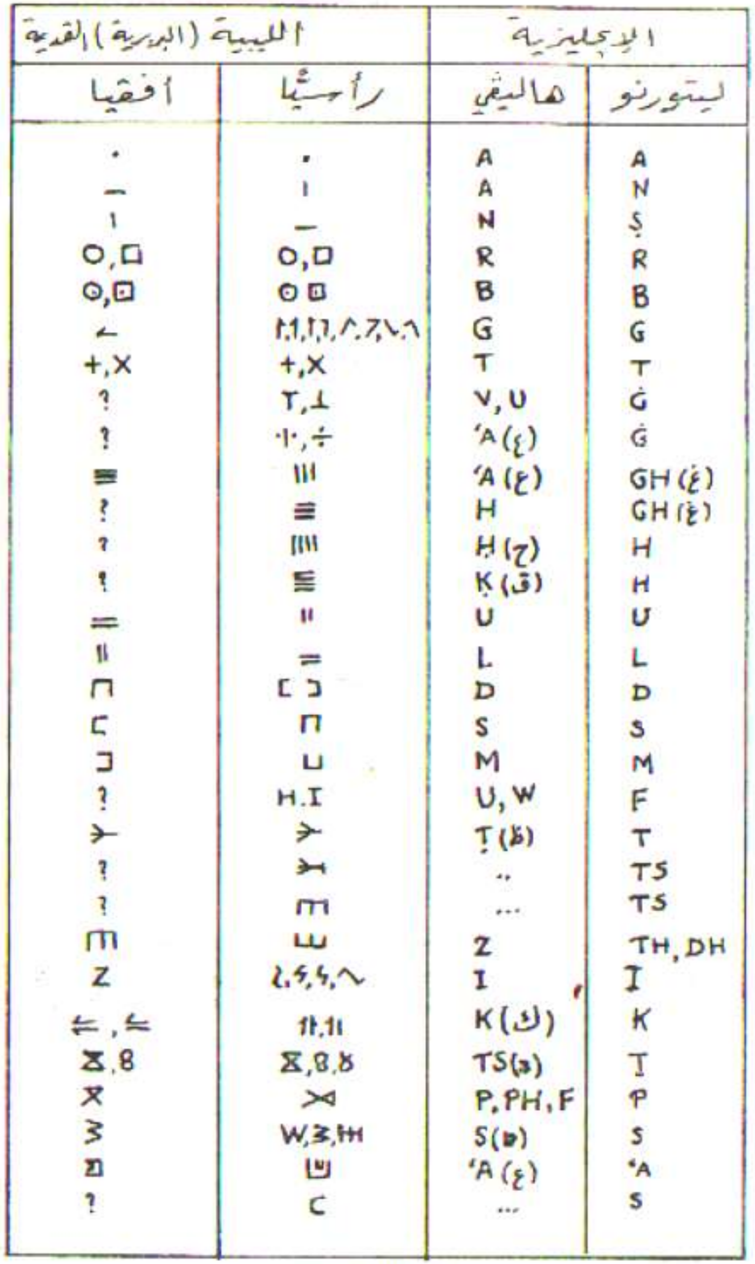

(٢٥) اللغة وأبجديتها
عن : أوريك بيتس

ويذكر أن أكثر النقوش التي وجدت باللغة الليبية إنما تم العثور عليها في الجزائر وتونس ، وهما منطقتان كان سكانهما الأصليون يعيشون عيشة مستقرّة ، ويحتكون كثيراً بالفينيقيين [1] . وقد وجدت نقوش باللغة الليبية خارج هاتين المنطقتين حتى سيناء شرقاً ولكن بأعداد قليلة معاً يدل على أن الليبيين — في ليبيا — كانوا في العصر الكلاسيكي أقل رقياً من جيرانهم الليبيين الغربيين في تونس والجزائر ، ولذلك فإن حاجتهم للأبجدية وللكتابة كانت أقل بكثير من حاجة سكان نوميديا مثلاً ، فكثيراً ما كان النوميديون يخلدون ذكرى موتاهم بكتابة أشياء مناسبة على حجارة قبورهم . ولذلك فإن استثناء النقوش الليبية القليلة التي وجدت في سيناء . وفي برقة ، وفي بعض الواحات يثير مجالاً واسعاً من الشك في القول إن الليبيين القدماء قد عرفوا فن الكتابة .

٢ — نظام الحكم والمجتمع والتقاليد :

من المسلم به أن الأسرة هي أساس المجتمع — وفي الحديث عن الأسرة الليبية القديمة لا بد أن نشير منذ البداية إلى أن الآثار المصرية والمصادر الإغريقية والرومانية تجمع على أن تعدّد الزوجات كان أمراً شائعاً بين الليبيين القدماء . فهذا « سلّوست Sallust »[2] يشير إلى أن الزواج السياسي بين المواطنين الإفريقيين

---

١ كان لليبيين في شمال غربي إفريقيا نظامهم الوطني للكتابة فكانت اللهجات الليبية (البربرية) تكتب بأبجدية خاصة بها . وقد وجدت في نوميديا نقوش بالأبجدية الليبية ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد وأخرى ترجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . ولكن لم يقرأ منها إلا بعض كلماتها . ويبدو أن أبجديتها كانت صوتية مكونة من ثلاثة وعشرين حرفاً صحيحاً ، ولذلك اعتقد « جزل Gsell » أن الأبجدية الليبية لم تكن سوى تطوير محلي لأفكار نقلها الليبيون القدماء عن قدماء التجار الفينيقيين . انظر أيضاً :

The Pre-Historic Archeology of Northwest Africa, Museum of American Archaeology & Ethnology, Harvard University, Vol. XIX — No. 1, 1941, pp 102 — 107.

٢ مؤرخ لاتيني ولد سنة ٨٧ ق . م . وكان من أنصار يوليس قيصر فولاه الحكم بالولاية الجديدة في إفريقيا ومنحه لقب برايتور « Prætor » ، واستمر سلوست في الولاية من ٤٦ — ٤٥ —

لم تكن له أهمية تذكر " لأن الرجل الواحد منهم يستطيع أن يقتني أي عدد يريد من الزوجات ما دام متناسباً مع مقدرته على إعالتهن ، فبعضهم له عشر زوجات ، والبعض الآخر له أكثر من ذلك ، ولكن الملوك هم الذين يقتنون من الزوجات أكثر من غيرهم . وعلى هذا الأساس يتقسم حب الزوج بين عدد كبير من الزوجات فتكون النتيجة ألا تصبح أية منهن رفيقة للزوج بل يتساوين كلهن في الإهمال " . ويتفق هذا القول مع ما رواه المؤرخ البيزنطي « بروكوبيس Procopius » عن رد الرؤساء الليبيين على القائد البيزنطي سليمان « Solomon » عندما هددهم بأن يقتل رهائنهم لديه ، فكان جوابهم على ذلك التهديد أن قالوا له : « إنه يتحتم عليك ، أنت الذي لا يستطيع أن يتزوج أكثر من واحدة ، أن تقلق بشأن ذريتك ، أما نحن الذين يستطيع الواحد منا أن يتزوج أكثر من خمسين زوجة إن شاء ، فإننا لا نخشى أن تنقطع ذريتنا » .

ويقول هيرودوتس إن كل رجل من الناساموتيين كان له عدة زوجات . وقد سبق أن لاحظنا أن نقوش الكرنك ذكرت أن الفرعون مرنبتاح أسر « اثنتي عشرة امرأة من نساء الأمير الليبي مريي » . ويفهم من النقوش المصرية أن عادة تعدد الزوجات كانت شائعة على نطاق واسع بين الليبيين ، ولكن يبدو أنهم كانوا يحتفظون بما نعرفه بجناح حريم تحتل إحدى الزوجات فيه المرتبة الأولى بين بقية الزوجات .

ولعلّ ظاهرة تعدد الزوجات على نطاق واسع بين الليبيين القدماء هي التي أدت إلى وقوع عدد كبير من الكتاب الإغريق والرومان في الخطإ عندما تحدثوا عن انتشار ما يشبه أن يكون إباحية جنسية . فها هو هيرودوتس يقول عن

— ق . م . وجمع ثروة طائلة بوسائل مفضوحة وطرق غير شرعية . وقد ألف سلوست كتابه المشهور « حروب يوغرثا » .

الناساموتيين والمساجيتي « Massagetæ » إن الرجل منهم ، حتى ولو كان متزوجاً ، كان يتمتع بنساء الآخرين من أبناء قبيلته . ويقول عن الجندانيين إن نساءهم كن يلبسن خلاخيل من الجلد في سيقانهن بحيث يمثل كل خلخال واحداً من عشاق المرأة الذين نالوا وصالها . والمرأة التي تبرز أكبر عدد من هذه الخلاخيل على ساقيها تحظى بأكبر تقدير في القبيلة لأن ذلك يعتبر برهاناً على جمال خَلْقها وخُلُقها وبالتالي على مقدرتها في اجتذاب العدد الأكبر من رجال القبيلة . ويقول عن الأوزيين « Auses » إنهم لا يتزاوجون وإنما يعيشون سوية كقطيع من الحيوانات ، وعندما يكبر الأطفال كان مجلس القبيلة الذي يضم كل رجالها البالغين يجتمع ليقرر إلحاقهم بمن يشبهونهم من الرجال » .

ويناقش أوريك بيتس[1] هذه التهم فيعتبرها أخطاء وقع فيها قدماء الكتاب الإغريق والرومان لعجزهم عن تفهم ظاهرة تعدد الزوجات ويورد حجتين يدعم بهما رأيه : الأولى أن الأوزيين كانوا ينزلون عقوبة الموت بالفتاة المشتركة في بعض طقوسهم الدينية إذا تبين لهم أنها كانت فاقدة لعذريتها ، وقوم هذه صفتهم لا يمكن أن يصح عليهم ما قاله هيرودوتس عنهم ، والثانية أن نمطاً من قرابة الدم كان شائعاً في شمال إفريقيا مما يدل على أن القوم كانوا متفقين على نوع من الزواج يكفي لتحديد قرابة الدم في نطاق الأسرة والعشيرة والقبيلة .

وعادات الزواج المعروفة عن قدماء الليبيين قليلة ؛ فمن المعروف أن قبيلة الأدرماخيدي كانوا يحضرون كل الفتيات المقبلات على الزواج إلى ملكهم ليختار من شاء من بينهن فيتمتع بها قبل زواجها[2] . وبين قبيلة الأوجلي « Augilæ » كانت العادة أن تسمح العروس عشية زفافها لمن أراد أن يتمتع بها أن يفعل ذلك

1 Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St. London, 1914, pp 110 — 111.

2 Herodotus, *The Histories*, The Penguin Classics, 1966. iv, p. 300.

مقابل أجر معين ، وكان ذلك يعتبر تكريماً لها . ولكنها كانت بعد ذلك تبقى مخلصة لزوجها[1] . وربما كانت العادة الأولى ترتبط بنوع من الخوف الديني من تحمل المسؤولية الناجمة عن إزالة البكارة ، أما الثانية فترتبط بعادة الجنداتيين البدائية في السماح للفتاة بممارسة ذلك التقليد لكي تجمع مهراً كافياً لإعانتها في حياتها الزوجية المقبلة .

وأغرب من هاتين العادتين ما قيل عن قبيلة « الماخلاي » (Machlyes) أنه عندما كان يتقدم لخطبة الفتاة أكثر من خاطب ، كان ولي أمرها يقيم لهم جميعاً حفلة تحضرها الفتاة ويتنافس المتقدمون لخطبتها في إلقاء النكت على مسامعها فمن نجح منهم في إضحاكها قبل غيره كانت زوجة له .

ويجب ألاّ يتبادر لأذهاننا ممّا سبق أن مكانة المرأة الليبية كانت منحطة فإن العكس هو الصحيح ، فالتقاليد البربرية والأدلة التاريخية تشير إلى أن المرأة كانت تحتل مكانة مرموقة ، ويكفي دليلاً على ذلك معرفتنا أن نظام الإرث القائم على جهة الأم كان شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي البدائيين .

وبالنسبة للأعمال التي كانت المرأة تمارسها فإنها كانت تكاد تنحصر في إعداد الطعام ، وحلب المواشي ، وغزل الخيوط اللازمة لإعداد الملابس . ونحن لا نعرف الكثير عن دور المرأة الرئيسي ألا وهو تربية الأطفال والعناية بهم ؛ ولكنّا نعرف من هيرودوتس أن النساء كن يقمن بكي الأطفال عند بلوغهم سنّ الرابعة وذلك باستعمال لفافة من الصوف الملطخ بدهن الخروف ، تشعل وتوضع على وسط الرأس أو على عروق الصدغ . وكن يقمن بهذا العمل حماية للأطفال في حياتهم المستقبلة من الأمراض الناتجة عن نزل الرأس وإفرازاته ، وكن يقلن إن عملية الكي هذه هي السبب في أن صحة الليبيين أجود من غيرها .

ولا بد أن المرأة كانت لها مكانة مرموقة وأنها كانت تتمتع بعدة امتيازات

١ Mela 1. 8.

ناجمة عن نظام الإرث القائم على أساس التسلسل من نسل الأم . ومما يؤيد وجهة النظر هذه أن النساء الليبيات يظهرن بزي الرجال في نقوش سحورع مما يدل على أنهن كن موضع تكريم ، فنحن نعرف أن الملكة حتشبسوت كانت ، من أجل هذه الغاية ذاتها ، تظهر على آثار عصرها بزي الرجل .

أما نظام الحكم الذي كان سائداً بين الليبيين القدماء فهو النظام القبلي الذي كانت القبائل بموجبه تخضع لرؤساء تتراوح سلطاتهم بين سلطات شيخ القبيلة العربي وسلطات الأمير العربي على النحو الذي عرف عن قبائل شمال شبه الجزيرة العربية في جاهليتها . وكانت رئاسة القبيلة منصباً وراثياً في الأسرة الحاكمة وإن كان الرجل المؤسس يختار أصلاً لأنه اشتهر بالتزام جانب العدل في حياته وتصرفاته . وتستطيع القبيلة عزل رئيسها أو تنحيته لصالح أحد أقربائه إذا ما ثبت عدم كفايته . وأوضح مثال على هذا هو ما حدث للأمير مريي بن د.د بعد هزيمته . وكان يساعد رئيس القبيلة في بعض الحالات ، إن لم يكن دائماً ، مجلس للقبيلة يتكون من عشرة أشخاص . ونحن نسمع أن رمسيس الثالث استدعى للمثول بين يديه « عشرات » أسرى أعدائه الليبيين أي أعضاء مجالسهم القبلية . وفي حالة الأوزيين نلمح مجلساً من نوع مغاير ، ذلك أنّه كان لهذه القبيلة مجلس يضم جميع الرجال البالغين وينعقد مرّة كل ثلاثة أشهر أي مرّة كل فصل من فصول السنة[1] . وتدل النقوش المصرية على أن رؤساء القبائل الليبية كانوا من طبقتين : رؤساء كبار ورؤساء آخرون من مرتبة أدنى . وكان الرؤساء من الطبقة الأولى يتحلون بريشتين بينما يتحلى الرؤساء من الطبقة الثانية بريشة واحدة . أمّا واجبات وامتيازات الرئيس الليبي فهي غامضة . وتدل النقوش المصرية على أن الرؤساء الليبيين كانوا قادة في الحروب أو مستشارين للاتحاد القبلي في حالة وجوده . أما في وقت السلم فسلطتهم كانت ضئيلة إلا أنهم

١ ذكر هيرودوتس أن هذا المجلس كان يجتمع من أجل إلحاق الأطفال بمن هم أشبه بهم من الرجال . انظر Herodotus iv. 303 في الملحق « ب » .

على أي حال كانوا يتمتعون بغذاء وكساء أعلى من مستوى غذاء وكساء أفراد القبيلة العاديين ، وهكذا فإن الرئيس وحده لقبيلة من الليبيين الفقراء كان يتنعم بحصيرة من الجلد في منزله .

ويخبرنا بروكوبيس أن رؤساء القبائل القديمة في منطقة طرابلس قدموا في مناسبة معينة لمقابلة القائد البيزنطي بليزاريوس وفقاً للتقليد السائد ليثبتوا في مناصبهم وليتسلموا الشارات الرسمية التي كانت عبارة عن :

١ – صولجان مطعم بالفضة ،
٢ – قبعة من خيوط فضية ولها عصبة فضية كذلك ،
٣ – عباءة بيضاء تثبت على الكتف بمشبك مذهب ،
٤ – إزار أبيض مزركش ،
٥ – صندل مذهب .

وأقدم من كل هذه الشارات الرياسية استعمال ريشة النعام وجناحي الطائر والرداء الطويل المزركش الذي تجمع شواهد النقوش المصرية على أنّه كان لا يلبسه إلا الأمراء والرؤساء من المرتبة الأولى . وكان الرؤساء يتميزون عن أبناء قبائلهم بالوشم وبلبس ذيل الحيوان كما أن نساء الرؤساء الكبار كن يبجّلن بارتداء زي الرجال .

وكان رئيس القبيلة الليبية يجمع في يديه السلطتين الزمنية والدينية . وليس لدينا ما يمكننا من معرفة نمط السلوك الذي كان الرؤساء يلتزمونه تمييزاً لأنفسهم عن أتباعهم . ولعل ما ذكره أحد الكتاب الرومان فيما بعد من أن الرؤساء النوميديين لم يكونوا يسمحون لأتباعهم بتقبيلهم لأنهم كانوا يرون في ذلك انتقاصاً من هيبة الحكم يكون ذا دلالة موروثة عن سلوك قديم خاص بالرؤساء .

٣ – الاقتصاديات :

كان سكان المناطق الخصبة من السواحل الليبية يعيشون عيشة شبه مستقرة ؛

ذلك أنهم بسبب سقوط أمطار شبه منتظمة تحولوا تدريجياً من عادة الترحال إلى شبه الاستقرار فصاروا يقيمون في فصل الشتاء الممطر لأداء الأعمال الزراعية وينتقلون في الصيف طلباً للمرعى . وخير مثال على هذا هم الناساموبيون ، الذين كانوا يقيمون حول خليج سرت الكبير . فقد كانوا يتركون قطعانهم هناك في الصيف ويذهبون إلى أوجلة لجني التمور . وكان المكاي كذلك ينتقلون بمواشيهم على الشريط الساحلي في الشتاء ، فإذا حل الصيف وقلت المياه بالقرب من الشاطىء ابتعدوا عنه إلى الداخل ، وربما كانت غايتهم في مثل هذه الحالة هي جبل غريان الخصيب . ولا بد أن البسلّي كانوا شبه مستقرين أيضاً فقد وصل إلينا أنهم كانت لهم آبار ماء دائمة .

أما في دواخل البلاد فقد كان طابع حياة البدو الرحل هو الطابع السائد الغالب على حياة سكان هذه المناطق . ونحن نعرف أنّه حتى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في مصر كان الليبيون لا يزالون واقعين تحت سيطرة الميل للهجرة من مكان إلى آخر ، وما كان غزوهم لمصر إلا من هذا القبيل . وبعد هذه الفترة بألف سنة أي في أيام هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد توقفت الهجرات وبدأ البدو شبه المستقرين يشغلون المناطق الساحلية بينما بقيت قبائل الدواخل ، باستثناء سكان الواحات الذين ربما كانوا قد استقروا منذ وقت مبكر واشتغلوا بالزراعة البدائية في واحاتهم ، تعيش عيشة البدو الرحل . وبعد مضي أقل من ألف سنة أخرى كان سكان السواحل من الليبيين قد استقروا في مدن وقرى في مناطق مارماريكا وبرقة وحول خليج سرت الكبير . ولكن البدو الرحل في الدواخل بدأوا يهاجمون القرى والمدن الليبية المستقرة كما حدث عندما قام الأوزوريون (Ausurians) (= الأستوريون ؟) باجتياح منطقة المدن الخمس قبيل الفتح العربي .

الصيد :

وقد كان الصيد أول عامل من عوامل الاقتصاد الليبي الذي نحن بصدده ، ولا بد بهذا الخصوص أن نشير إلى أن ليبيا بأسرها كانت منذ عصر ما قبل التاريخ مليئة بأصناف شتى من الحيوانات والوحوش . وقد وصفها هيرودوتس في وقته « بأنها مليئة بالوحوش » في مناطقها الداخلية الواقعة ما وراء السواحل . وكان من بين الحيوانات والوحوش التي ذكرها هيرودوتس الظباء ، والغزلان ، والجواميس ، والحمير ... التي كانت لا تحتاج إلى الشرب ، وبقر الوحش الإفريقي ... الذي كانت الواحدة منه تبلغ حجم الثور ، والثعالب ، والضباع ، والأنياص ، والكباش البرية ، وبنات آوى ، والنمور ، وتماسيح البر التي كان طول الواحد منها يصل إلى ثلاثة سواعد وكانت تشبه السحالي في شكلها[1] ، والنعام وأفاع صغيرة للواحدة منها قرن صغير .

وكان الليبيون يستفيدون من لحوم ما يؤكل من هذه الحيوانات ومن جلودها التي كانوا يستعملونها في صنع ملابسهم . ونحن ما زلنا نذكر أن الملكة حتشبسوت استولت من التحنو على « عدد من جلود الفهود كان طول الواحد منها خمسة سواعد وعرضه أربعة » . واستعمال الليبيين لريش النعام كحلية شخصية دفعهم إلى اصطياد هذا الطير باستمرار . ولقد سبقت الإشارة إلى استعمال الصيادين لرؤوس الحيوانات وجلودها كأقنعة تمكنهم من خداع الحيوان وتسهل عليهم اصطياده .

استئناس الحيوان :

من الثابت أن الليبيين استأنسوا الحيوانات من وقت مبكر في تاريخهم القديم ، وقد سبق أن لاحظنا في الحروب الليبية ـ المصرية أعداد المواشي التي كان

١ هل لهذا الحيوان علاقة بالورل ؟

المصريون يستولون عليها من الليبيين منذ عهد سحورع من الأسرة الخامسة ، وكان من بينها البقر ذوات القرون الطويلة والحمير والماعز . ولقد كانت النساء الليبية تعمل ملابسها من جلود الماعز كما أن اثنين من المؤرخين الإغريق هما « بوزانياس Pausanias » و « سينيسيوس Synesius » ذكرا وجود الماعز في برقة . وقد ذكر هيرودوتس وعدد آخر من جمهرة الكتاب الكلاسيكيين أن القبائل البدوية التي كانت تسكن الأقسام الداخلية من ليبيا كانت تربي نوعاً من الثيران تتميز عن غيرها بسيرها إلى الوراء أثناء الرعي ، ذلك أنها بسبب قرونها الطويلة الملتوية إلى الأمام باتجاه الأرض كانت لا تستطيع أن تسير إلى الأمام وهي ترعى لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض . وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن أحداً من الرحالة الحديثين الذين جابوا أرجاء ليبيا والقارة الإفريقية لم يشر إلى وجود مثل هذا النوع من الثيران في أية منهما . وربما كانت المسألة لا تعدو تفسيراً وهمياً لملاحظة عدد من الثيران ذات القرون الطويلة وهي صدفة تسير إلى الوراء أثناء رعيها . وفيما عدا هذه الملاحظة فقد وصف هيرودوتس تلك الثيران بأنها كانت كغيرها من الثيران باستثناء أن جلودها كانت أصلب وأسمك .

أما الضأن فهو ، وإن لم يكن قد ورد له ذكر على الآثار المصرية ، قد ذكر استرابو وجوده في الأجزاء الداخلية من البلاد ، كما أن هوميروس أشار إلى صلاحية ليبيا لتربية الضأن . ونحن نلاحظ أيضاً أن الضأن كان متوافراً بأعداد كبيرة في ليبيا خلال العهد البيزنطي ، وهو قطعاً لم يوجد فجأة في ذلك العهد .

وبالنسبة للحصان فإنه لم يعرف في ليبيا إلا في مرحلة متأخرة بعد أن تم إدخاله إليها من مصر . وأقدم إشارة إلى وجوده في ليبيا وردت في عهد الفرعون مرنبتاح (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ، الذي استولى على « الخيل التي كانت تحمل الرئيس الليبي المهزوم » . وفي الحرب الثانية بين الليبيين ورمسيس[1] الثالث (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) استولى الأخير على (١٨٣) حصاناً وحماراً من أيدي الليبيين . ولكن وجود الحصان لم يعمم في الشمال الإفريقي والأجزاء الساحلية

والداخلية من ليبيا إلا في بداية العصر الكلاسيكي وإن كانت فزان قد عرفته على أيدي الجرامنتيين الذين يقدر أنهم نزلوها في القرن الثامن قبل الميلاد . ويقول استرابو : «إن الملوك [في الأجزاء الداخلية من ليبيا] يعتنون عناية فائقة بتربية الخيول إلى حد أن عدد المهار التي تنتج لديهم بلغ مائة ألف مهر في السنة » . هذا وقد ذكر هيرودوتس خيل قبيلة الاسبستي ، كما أن خيل برقة كانت تلقى شهرة فائقة عند الإغريق إلى حد أن عدداً كبيراً من كتابهم وصفوا برقة بأنها منطقة الخيول الممتازة .

وهذه الخيول وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت قوية صلبة، سريعة العدو ، وكان ترويضها وتدريبها ممتازاً في أغلب الأحوال إلى درجة أن الواحد منها كان يتبع صاحبه على نحو ما يفعل الكلب . وكان الفارس يمتطي صهوة جواده دون سرج وحتى دون لجام في أغلب الأحيان ويكتفي لتوجيهه بحمل عصا قصيرة خفيفة لا ليضربه بها بل ليوجهه فقط . ويبدو أن العنان الذي كان شائع الاستعمال كان عبارة عن طوق من الألياف يوضع في عنق الحصان وتتصل به وصلة أخرى هي الرسن .

وظل الحصان من أكثر الحيوانات أهمية في ليبيا حتى ظهور الجمل، وانتشر استخدامه في المناطق الصحراوية والرملية بشكل خاص فبدأت أهمية الحصان تتضاءل نظراً لقدرة الجمل على تحمل العطش وعلى السير في المناطق الرملية التي تغوص فيها قوائم الحصان مما أعطى الجمل ميزة الصبر على السفر الطويل من ناحية واختصار المسافات الطويلة بالسير في خط مستقيم ، عبر الكثبان الرملية التي يحول خفه دون غوص قوائمه فيها ، من الناحية الأخرى. ولقد ظهر الجمل في إفريقيا لأول مرة في عهد سيتي الأول بمصر (١٣١٨ – ١٢٩٨ ق . م .) ثم عرف في مارماريكا في القرن الرابع قبل الميلاد وعم استخدامه بين الليبيين في العهد الروماني [١] .

١ عاش الجمل في شمال غرب إفريقيا (تونس والجزائر والمغرب) في عصر ما قبل التاريخ كحيوان =

ومن الحيوانات الأليفة الأخرى الكلب ، وقد ورد رسم له على لوح من عهد الأسرة الحادية عشرة في أوائل الدولة الوسطى ، وهو رسم يدل على أنه كان من نوع كلاب الصيد .

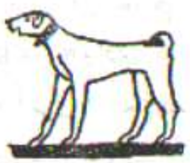

(٢٦) كلب صيد ليبي ، عن الآثار المصرية
عن : أوريك بيتس

ويذكر هيرودوتس أن الجيزانتيين (Gyzantes) ، سكان فزان ، كانوا يربون النحل وينتجون نوعاً من العسل الصناعي .

يتضح مما تقدم أن سكان الأجزاء الداخلية من ليبيا كانوا يكرسون الكثير من جهودهم للعناية بالمواشي وتربيتها لأنها أساس معيشتهم بينما كان سكان السواحل شبه المستقرين أقل اعتناء بالمواشي نظراً لانشغالهم بفلاحة الأرض خلال قسم من السنة . وعلى أي حال فإن الليبيين بشكل عام كانت عندهم أعداد كافية من الحيوانات الأليفة كما أنهم أظهروا ذكاء واجتهاداً فائقين في تربيتها واستكثارها .

= متوحش ، ولكن يبدو أنه انقرض خلال العصر الحجري الحديث أو تراجع إلى أعماق الصحراء . ثم أدخل ثانية إلى المنطقة بعد دخوله إلى مصر مع الفتح الفارسي سنة ٥٢٥ ق . م . ومن مصر بدأ ينتشر تدريجياً إلى الغرب . وقد استولى يوليس قيصر بعد معركة ثابسوس سنة ٤٦ ق . م . على أسلاب جيش كبير ولكن لم يكن بينها سوى اثنين وعشرين جملا مما يدل على أن الجمال لم تكن حتى ذلك التاريخ تستخدم على نطاق واسع للنقل ولم تكن كثيرة في البلاد . وبعد ذلك بما يزيد قليلا على أربعة قرون نسمع أن أحد القادة الرومانيين كلف ليدة أن تحشد له أربعة آلاف جمل (سنة ٣٦٣ م) وهذا يدل على أن الجمال أصبحت في القرن الميلادي الرابع موجودة بكثرة في الشمال الإفريقي ومستخدمة بانتظام في النقل البري .

انظر أيضاً : Wulsin, Frederick, R., *The Pre-Historic Archæology of Northwest Africa*, Vol. XIX — No. 1, Museum of American Archæology and Ethnology, Harvard University, 1941, P. 106

الزراعة :

وفي مجال الزراعة تحول سكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي . فقد ذكر هيرودوتس أن منطقة نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) كانت خصوبتها في إنتاج الحبوب تعادل خصوبة أية منطقة أخرى في العالم القديم ، كما أن محصولها منها كان يعادل محصول منطقة بابل الخصيبة في جنوب العراق . وكانت منطقة يوسبيريدس (= بنغازي) أيضاً صالحة لزراعة الحبوب . وأقدم إشارة للزراعة الليبية وردت في عهد مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة عندما نسمع أنّه في أعقاب انتصاره على الليبيين « خلعت من حقول الرئيس الليبي المهزوم كل النباتات ولم يترك حقل واحد ينمو حتى لا يتمكن أصحابه من الحصول على لقمة العيش ، كما أن مخازن الرئيس الليبي نهب ما كان فيها من حبوب » .

وفي العصر الكلاسيكي كانت منطقة برقة الخصيبة تخضع للإغريق وحدهم أو لهم ولليبيين معاً ، بينما كانت منطقة وادي كعام تخضع للفينيقيين . أمّا بالنسبة لليبيين أنفسهم فقد سبقت الإشارة إلى هجرة الناسامونيين سنوياً إلى أوجلة لجني التمور ، كما أن سكان الواحات لا بد أن يكونوا قد عرفوا الزراعة منذ عهد استقرارهم في واحاتهم .

وفي شمال فزان كان الجرامنتيون ، وفقاً لما ذكره هيرودوتس ، يغطون الأرض السبخة بالتراب ويزرعونها . وربما كانت الكرمة تزرع في أنحاء مختلفة من ليبيا منذ وقت مبكر وخاصة في مارماريكا التي اشتهرت برداءة نبيذها .

ونستطيع أن نعتبر اللوتوفاجيين مزارعين ، إلى حد ما ، لأنهم كانوا يعيشون على ثمار شجرة اللوتس (= النبق أو الزيزفون) (Rhammus Zizyphus) . وبالرغم من أنهم لم يكونوا يزرعون تلك الأشجار فإنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمارها . وقد أكد هيرودوتس أن بعضهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمار

تلك الأشجار باعتبارها الغذاء الوحيد لهم ، وكانوا كذلك يستحضرون منها نوعاً من النبيذ .

وقد أثبتت الآثار أن زراعة الزيتون كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في منطقة طرابلس منذ العهد الفينيقي وكذلك في العهد الروماني الذي وجدت بين آثاره أعداد مختلفة من معاصر زيت الزيتون . ويذكر هيرودوتس أن شجرة الزيتون كانت موجودة في كل الأماكن الصالحة لنموها في منطقة البنطابولس (= شمال برقة) .

وكانت هنالك أشجار النخيل التي كان الليبيون يستفيدون من ثمورها كغذاء لهم ، ويصنعون منها نوعاً من النبيذ كما كانوا يصنعون من لفائفها ما يحتاجونه من حبال .

وكان الليبيون يعيشون على القمح والشعير يأكلون حبوبه كما هي أو يدقونها ويخبزون معجونها بدفنه في النار . وكان بعضهم يتغذون بجذور النباتات والخضروات والبعض الآخر مثل الجزانتيين كانوا يأكلون لحوم القرود المغربية « Barbary Apes » بينما كان التروجلودايت يأكلون لحم الأفاعي لعدم وجود غيرها عندهم . وكان الليبيون القاطنون حول خليج سرت يلتقطون الأسماك المتخلفة بعد انحسار المد ، كما كانت عادة أكل الجراد شائعة فقد اشتهر الناسامونيون بتجفيفه وسحقه ثم خلط مسحوقه مع الحليب وشربه .

التجارة :

كانت حركة النقل منذ أقدم الأزمنة التاريخية تسير شمالاً – جنوباً أكثر منها شرقاً – غرباً في ليبيا . وكانت أشهر تلك الطرق طريق طرابلس – تشاد التي كان يتم بوساطتها تبادل السلع التجارية بين الشمال والجنوب منذ آلاف السنين . وكانت السودان تفضل دائماً طرق القوافل هذه على استخدام الطرق المائية كالنيل والنيجر والسنغال . ولقد كان هدف الفينيقيين القرطاجيين إنشاء

المصانع والسيطرة على طرق القوافل هذه عندما أنشأوا محطاتهم التجارية على الساحل الطرابلسي وحول خليج سرت الكبير. ويبدو أن الليبيين كانوا يتاجرون في السلع السودانية والتشادية منذ عهد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة؛ فقد ذكر ضمن الجزية التي حصلتها هذه الملكة من التحنو «العاج وسبعمائة ناب فيل». ونحن نسمع مع حلول العهد الروماني باشتداد أعمال القرصنة ضد القوافل على طرق القوافل البرية في داخل ليبيا مما استدعى قيام الرومان بحملات سريعة مؤقتة لوضع حد لنشاط قطّاع الطرق. ونسمع كذلك أن الناسامونيين المقيمين حول خليج سرت كانوا يقومون بمباغتة المراكب الراسية في ذلك الخليج ثم يحطمونها وينهبونها.

وإذا حاولنا تقدير أهمية التجارة الليبية القديمة من وجهة نظر اقتصادية فلا يسعنا إلا أن نقول إنها كانت تجارة بدائية وإن سلعها كانت سلعاً طبيعية؛ إمّا كمالية مثل الأبانوس والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات المفترسة وإما خامات من مثل الجلود عامة والملح.

أما الواردات فكانت عبارة عن الأسلحة والأدوات المعدنية والأقمشة والخزفيات والزجاج والحاجيات الأخرى التي كان الليبيون يرغبون في اقتنائها ولكن لا يعرفون كيف يصنعونها.

وقد كان للتجارة الليبية أثران هامان على الليبيين أنفسهم فقد تقدم سكان السواحل منهم أكثر من سكان الدواخل نظراً لاحتكاك سكان السواحل الدائم المباشر مع الأجانب المتقدمين على الليبيين، كما أن طرق القوافل للتجارة مع السودان أدت تدريجياً إلى نشوء المدن التجارية في المواقع المهمة على طرق القوافل من مثل مدينة غدامس ومدينة جرما.

الأزياء والحلي :

كانت الملابس التي استعملها الليبيون حتّى العهد الروماني قليلة جداً إلى درجة

برّرت وصف الكتّاب القدماء «للجرامنتيين والناسامونيين بالعري». ويقول المؤرخ البيزنطي بروكوبيس إن اللباس الليبي كان عبارة عن إزار خشن لا يغيره صاحبه طوال العام. ويقول هيرودوتس إنّه مع أن الأدرماخيدي الليبيين كانوا يشبهون المصريين في طباعهم إلا أنهم كانوا يرتدون الزي الليبي.

وأبسط أنواع الألبسة القبلية، وإن لم تكن أكثرها شيوعاً، تظهر على الآثار المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولعل أحسن تصوير للزي الليبي هو ما يظهر على آثار مدينة هبو بمصر من عهد الأسرة العشرين حيث يظهر قراب العورة الليبي كإزار بسيط مثبت من الأعلى بحزام فوق الخصر ومنسدل إلى ما فوق الركبتين بقليل، وبه في بعض الأحيان فتحة من الأمام.

أما العباءة الطويلة التي تظهر لأول مرّة في عصر الدولة الفرعونية الحديثة فهي وإن لم تكن لباس الأغلبية الليبية إلاّ أنها كانت أكثر شيوعاً من القراب، وتجمع شواهد الآثار على أنها كانت لباساً مميزاً لذوي الجاه والمكانة. وعلى هذا الأساس كان البيزنطيون فيما بعد يقدمون عباءات طويلة للرؤساء الليبيين بمناسبة تثبيتهم في مناصبهم سنوياً. وكانت تلك العباءات تثبت على أحد الكتفين بمشابك ذهبية. ويصفها استرابو[1] بأنها كانت فضفاضة عريضة الحواشي. ويبدو أن طريقة تفصيلها نقلت، كما تدل الآثار المصرية، عن الأردية الجلدية التي سبقتها في الاستعمال. وكانت عباءة القماش عبارة عن قطعة مستطيلة، عرضها عند طرفها العلوي أكبر منه عند الطرف السفلي وذلك حتّى يمكن لفّها حول الكتفين وتعقد قرنتاها العلويتان المستطيلتان على الصدر. وهنالك نوع

[1] يقول استرابو إن سكان الشمال الإفريقي عامة كانوا «يرتدون جلود الأسود والنمور والدببة وينامون بها»، ثم يقول: «إن الرداء الليبي هو جلد يكون لصاحبه بمثابة لوح يقي صدره». ويقول ميلا (Mela) إن الليبيين في الدواخل كانوا يلتفون بجلود الحيوانات المفترسة والأليفة بينما كان المكاي يرتدون جلود الماعز. ونحن نعرف أن أفراد الفرقة الليبية في جيش كزركسيس الفارسي ضد مصر كانوا يرتدون الجلود.

آخر معقد من هذه العباءات كان له كم قصير وكان يشبك على كتف واحد فقط ، وهو النوع الذي يظهر به أربعة من الليبيين في صور ضريح بيتي الأول وكانت هذه العباءة مفتوحة من المقدمة من أعلى إلى أسفل ويأتي تحتها حزام قراب العورة . وكانت العباءات تزين في بعض الحالات بأشكال ملونة أو بخياطة قطع عليها من قماش مخالف . ويبدو أن استعمال قراب العورة أصبح أكثر انتشاراً بين الليبيين المتحضرين فيما بعد . والسؤال الذي يطرح نفسه بهذه المناسبة هو : من أين كان الليبيون الذين يعتمدون الجلد أكثر من غيره مادة للبسهم . من أين كانوا يأتون بالأقمشة الجيدة لعباءاتهم ؟ إن الجواب على ذلك السؤال يتلخص في القول إن الليبيين كانوا يأتون بالأقمشة من نفس المصدر الذي كانوا يستوردون منه أسلحتهم البرونزية أي من الشردن (= السردينيين) .

أما كيفية إعداد الملابس الجلدية للاستعمال فكانت في الغالب عبارة عن إحداث فتحة للرأس في وسط الجلد غير المدبوغ وغير المعالج ثم يسدل الجلد متدلياً من العنق حول الجسم . أمّا الجلد الذي عولج فربما كان يعمل على شكل قميص أو معطف .

وكان استعمال الملابس المذكورة آنفاً شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي بشكل عام ، ولا نستطيع أن نعتبر أياً منها «الزي المميز للشمال الإفريقي» لأن تلك مرتبة انفرد بها «البنستاشي Penistasche» أو قراب العورة الذي كانت الغاية منه وقاية الأعضاء التناسلية مما قد تتعرض له من أذى . وتظهر أقدم مراحل استعمال هذا القراب في آثار سحورع و «ني – أوسر – رع «Ne - User - Ra» من الأسرة الخامسة . ثم يبدو أنّه حل محله نوع آخر من الغطاء لأن الكتّاب الإغريق والرومان لم يشيروا إليه علماً بأنهم لو رأوه لأثار اهتمامهم دون شك لما فيه من غرابة بالنسبة لهم . وكان هذا القراب في الغالب يعمل من الجلد أو من الألياف ثم يربط في الحزام ويتدلى منه إلى الأمام ليتمكن الرجل من إدخال عضوه التناسلي فيه .

(٢٧)

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

أشكال قراب العورة الليبي

عن : أوريك بيتس

(٣١)

(٣٢)

(٣٣)

(تابع) أشكال قراب العورة الليبي

عن : أوريك بيتس

وكان الليبيون يرتدون أحزمة جلدية ما زلنا نجهل كيف كانوا يعقدونها ، وإن كان يظهر من النقوش المصرية أن الحزام كان يلف أكثر من مرة حول الخصر ثم تثبت نهايته بوضعها بين الجسم ولفات الحزام وترسل متدلية على الفخذ الأيسر . وربما كان الحزام والقراب في بعض الحالات يكونان قطعة واحدة .

وكان ارتداء القراب شائعاً بين الليبيين عامة سواء في ذلك الرؤساء والرجال العاديون . ومن الجدير بالذكر أن الغلمان الذين تظهر صورهم في نقوش معبد سحورع لا يرتدون هذا القراب مما يرجح الميل للاعتقاد أن ارتداءه لم يكن لوقاية أعضاء التناسل فقط وإنّما كان أيضاً شارة لبلوغ سن الرشد . أمّا المادة التي كان القراب يعمل منها فليست معروفة على وجه التحقيق وأغلب الظن أنه كان يعمل إما من الجلد وإما من الألياف النباتية وهما المادتان اللتان استعملتا لنفس الغاية في كل من مصر القديمة وإفريقيا الجنوبية على الترتيب . وفي بعض الحالات كان القراب يلون بخطوط طولية حمراء وزرقاء وبيضاء .

وفي الحديث عن الأحذية يجدر بنا أن نلاحظ مسبقاً أن ظهور الليبيين على الآثار المصرية حفاة في معظم الحالات ، حتّى في حالة الرؤساء والأمراء منهم ، لا يعني أنهم كانوا حفاة في واقع حياتهم وإنّما قد يعني إما الإهمال من جانب الفنانين المصريين وإمّا المبالغة في إظهار أولئك الرؤساء والأمراء بمظهر الذل والخضوع وإمّا لأن الفنانين اتخذوا ذلك أسلوباً فنياً لطريقتهم في الرسم . وعلى أي حال فهنالك صورة لأحد الليبيين على آثار مدينة هبو يظهر فيها وقد انتعل صندلاً . وتذكر نصوص حرب مربي أن هذا الأمير ترك وراءه ، ساعة هربه من ممفيس « صندله ... لأنّه كان مستعجلاً » . وقد سبق أن أشرنا إلى أنّه كان من جملة الهدايا التي كان الرؤساء الليبيون يتلقونها في العهد البيزنطي الصنادل المذهبة . وبالإضافة للصنادل كان الليبيون يلفون سيقانهم برباطات من الجلد أو الصوف .

أمّا لباس الرأس فلم يكن شائعاً بين الليبيين بشكل عام بالرغم من شدة

حرارة الشمس في ليبيا . ويظهر بعض الليبيين ، خاصة المشواش ، على الآثار المصرية وهم يرتدون نوعاً من غطاء الرأس يشبه ما نعرفه اليوم باسم الكوفية . وكانوا يثبتونه على رؤوسهم بالعصبة بدلاً من العقال عند العرب . ولم تكن القبعة التي تغطي قحف الرأس مجهولة عندهم . ويثبت معرفتهم لها صورة المرأة الليبية التي تظهر على آثار مدينة هبو وصور الليبيين المرسومين على آثار تحتمس الرابع .

وكان لباس المرأة الليبية يعادل لباس الرجل الليبي في خشونته إن لم يكن أخشن منه . ويقول هيرودوتس بعد أن يعرب عن اعتقاده أن زي الإلهة الإغريقية أثينا كان مقتبساً عن الزي الليبي للمرأة : « لأنّنا إذا استثنينا حقيقة أن لباس المرأة الليبية من الجلد وأن حاشيته مزينة بالعقد الجلدية بدلاً من الأفاعي ، فإن الزيين يتشابهان تماماً في كل شيء آخر . . . لأن المرأة الليبية ترتدي فوق ملابسها (التي ربما كانت من القماش) جلد الماعز الذي جرد من شعره وعملت له حواش وصبغ بالزُّنْجفْر أو الصباغ القرمزي » . وتدل الآثار والمنحوتات المصرية من العهد الروماني على أن الليبيات كن يرتدين جنلّة بسيطة تنضم على الخصر ثم ترسل على شكل ثنيات بسيطة حتى القدمين .

وإذا تذكرنا أن تجميل الإنسان لشخصه هو عملية تسبق حضارياً عملية تجميله لملابسه فلن يدهشنا أن نجد أنّه بينما كانت ملابس الليبيين لا تزال بسيطة كانوا قد طوروا عدداً من الحلي كالأطواق وحلق الأذنين وأساور الذراع .

ولعل أشهر الحلي الليبية كانت ريش النعام فنحن نجد أن المحاربين الليبيين عامة كانوا يزينون به رؤوسهم كما هو ظاهر في النقوش المصرية . ويمكن تعليل عدم ظهور الريشة في بعض النقوش بواحد من الأسباب التالية :

١ ــ ضحّى بها الفنان توفيراً للسطح الذي يرسم عليه .

٢ ــ استحال رسمها على الفنان نتيجة لصعوبات فنية روتينية متكررة .

٣ ــ كون الصورة تخص رجلاً ليبياً عادياً لا يحق له لبس الريشة .

وفيما عدا السببين الأول والثاني فإن الرئيس الليبي لا يظهر على الآثار المصرية

(٣٤)

(٣٥)

الريشة كأداة زينة
عن : أوريك بيتس

(٣٦) مجموعة من حلي الأذن
عن : أوريك بيتس

دون ريشة من عهد الدولة الوسطى فصاعداً . وهو قد يظهر بريشة واحدة حتى ولو كان من مرتبة عالية كمرتبة الأمير مريبي مثلاً الذي قالت عنه نقوش مرنبتاح « إن الحظ السيء ضيع ريشته » . وقد تميز وجهاء الدلتا من الليبيين في أواخر عهد الدولة الحديثة باستعمال ريشة واحدة . وفي واحة سيوة نجد نقشاً لأمير ليبي يمثله وهو يركع أمام الإله آمون ويحمل رأسه بريشة واحدة . ومن الناحية الأخرى فنحن نجد استعمال الريشتين يدل على أن صاحبهما يحتل مركزاً أعلى من مركز الرؤساء بريشة واحدة . أمّا كيف كانت تلك الريشة أو الريشتان تثبت فهي مسألة غير معروفة بالتأكيد وإن كان من المحتمل أنهم كانوا يغرسون الريشة في أصل إحدى خصل الشعر الجانبية .

وكما هو الحال مع معظم الناس البدائيين فإن الليبيين قد عرفوا أنواعاً عديدة من حلي الأذنين التي كانت ـت إمّا بالحلق أو بالأزرار . وكانت هذه الحلي تلبس دائماً في شحمة الأذن وليس في طرفها العلوي كما هي الحالة في النوبة مثلاً في الوقت الحاضر .

وتظهر على نقوش معبد سحورع من الأسرة الخامسة صور ليبيات وليبيين يتحلون بعقود من الخرز المنبسط والمدور . وعلى آثار مدينة هبو صورة يظهر فيها ليبيان يتحليان بالعقود التي يتدلى منها الخرز .

أمّا الأساور فيبدو أنها لم تكن شائعة كثيراً بين الليبيين ولكنها كانت معروفة إذ إنها تظهر على أذرع الليبيين ومعاصمهم في نقوش أبي صير ومدينة هبو .

وكان الأمراء الليبيون يتحلون بحلية أخرى غريبة عرفت عند الملوك المصريين كحلية تدل على علو المكانة وهي ذيل الحيوان . فقد كان الليبيون يرتدونها متدلية من مؤخرة الحزام ، ولعلها حلية موروثة عن عادة قديمة ترجع للوقت الذي كان فيه الصيادون يلبسون جلد الحيوان الذي يقتلونه . وكان الذيل الليبي ينتهي بطرف مزين يشكل تحت الحزام .

أما الخلاخيل فقد وردت في نقوش تحتمس الرابع حيث يظهر أحد الربيو

وفي أعلى قدمه اليمنى خلخال . وقد سبق أن عرضنا لما ذكره هيرودوتس من أن نساء الأدرماخيدي كن يلبسن خلخالاً من البرونز في كل ساق . وقد ذكر هيرودوتس أيضاً أن نساء الجندانيين كن يلبسن الخلاخيل الجلدية .

وبالنسبة للحلي المتخذة من الحجارة الكريمة أو شبه الكريمة فليس هنالك ما يثبت أن الليبيين استعملوها وإن كنا نفترض أنهم استعملوها في المراحل المتأخرة عندما صاروا يصدرون عن طريق القرطاجيين العقيق الذي اشتهر باسم الحجر القرطاجي .

وكان الليبيون يفرطون في العناية بتسريح شعورهم، وقد قال استرابو عن الليبيين الغربيين : « إنهم كانوا يعتنون بتحسين مظهرهم وذلك بتصفيف شعورهم وبالتأنق في حلاقة ذقونهم واستعمال الحلي الذهبية ، وبتنظيف الأسنان وتجميل الأظافر . ويندر أن ترى الواحد منهم يلمس الآخر أثناء سيرهم لئلا تضطرب تصفيفة شعورهم » وتحملنا شواهد الآثار المصرية على القول إن هذا الوصف كان يصدق على الليبيين الشرقيين أيضاً .

وكانت كيفية التصفيف تختلف من قبيلة لأخرى ؛ فنساء الأدرماخيدي كن يتركن شعورهن تسترسل وتطول بينما كان نساء المكاي يتركن خصل أواسط رؤوسهن تطول ويقصرن ما عداها حتى تصبح أشبه ما تكون بعرف الديك . ونساء الماخلاي الأولين كن يطلقن شعورهن طويلة ثم صرن فيما بعد يتركنها تستطيل من الخلف فقط ، بينما كانت نساء الأوزيين تتركها تستطيل من الأمام فقط . وكانت نساء الماكساي (Maxyes)[1] تربي الشعر على الصدغ الأيمن من الرأس وتحلقه قصيراً للغاية على الصدغ الأيسر . وهذا الأسلوب الأخير هو الذي يتكرر ظهوره على الآثار المصرية التي تعتبر أقدم وأوضح سجل بالنسبة لهذا الموضوع .

وأقدم دليل على تلك الآثار يعود إلى عهد الأسرة الخامسة ؛ فنحن نجد

[1] Herodotus, iv, p. 306.

على آثار أبي صير ليبيات وليبيين سرحوا شعورهم بطريقة طريفة لا تعود للظهور بعد هذه الفترة . وبموجب هذه الطريقة نلاحظ أن الشعور كانت ترسل حتى تتجاوز أدنى الرقبة من الخلف ثم ترسل خصل منها من خلف الأذنين مباشرة وتنهدل إلى الأمام على الجانبين حتى عظام الترقوة ، ثم يغطى كل الشعر بغطاء رأس ينثني فوق الجبهة إلى أعلى بحيث يعطي انطباعاً بأن فوق كل من الحاجبين شكل صغير لرمز الحية الذي يظهر على لباس الرأس للآلهة والملوك المصريين . وحسب نقوش أبي صير ذاتها نجد الأطفال يسرحون شعورهم قصيرة ولكنهم يغطونها بطريقة مشابهة .

وفي فترة لاحقة نجد النساء يسرحن شعورهن بطريقة تغاير طريقة الرجال ؛ ففي بعض الحالات ، كما في الصور التي وجدت على آثار بني حسن[1] ، نجدهن يرددن شعورهن عن الجبين إلى الوراء ويتركنها تتجعد خلف الرقبة أو يرددنها إلى الخلف على شكل خصل تتدلى فوق الكتفين في حين يغطين رؤوسهن بقبعات صغيرة .

وبالمثل فإن تسريحـــة الرجال التي رأيناها على نقوش سحورع لا نجد لها مثيلاً في العصور اللاحقة ، ولكنا نرى في نقوش ني — أوسر — رع تسريحة رجالية تقترن في عهد الدولة الحديثة بالمشواش . وحسب هذه التسريحة كان معظم الشعر يرسل خلف الكتفين بينما تنهدل خصلة عريضة غير مجدولة من كل من جانبي الرأس من خلف الأذن إلى الأمام نحو الترقوة وفوق الصدر . وهذه التسريحة تشبه إلى حد كبير التسريحة التي تظهر على نقوش سحورع مع فارق وحيد هو أن الرأس في هذه الحالة كان يترك دون غطاء .

ولعل أكثر التسريحات شيوعاً بين الليبيين هي تلك التي كانت تعتمد على إرسال خصلة من الشعر من كل من جانبي الرأس . وهي تسريحة ترتبط دائماً بالريبو وإن كان الفنانون المصريون قد منحوها ، خطأ أو صواباً ، لكل الليبيين إلى حد

[1] في المنيا بمصر .

أنها أصبحت بشكل عام سمة مميزة لليبيين لدى كل المعنيين بدراسة النقوش المصرية . وتظهر في النقوش أشكال متعددة من هذه التسريحة ، فالخصلة قد ترسل خلف الأذن أو أمامها ، وقد تكون عبارة عن خصلة ملوية أو مجدولة من عدة مسائح أو ذؤابات وبطرق متنوعة مختلفة . ويبدو أن الطراز الغالب كان إطلاق خصلة واحدة على الجانب الأيمن أو الأيسر من الرأس ثم تقصير الشعر على الجانب المقابل حتى يكون بمستوى الصدغ . وبعد هذا ليس غريباً أن نجد اللغة المصرية الهيروغليفية تعبر عن كلمة « الغرب » أي ليبيا بما يشبه أن يكون قبعة ذات ريشة يتدلى من جانبها خطان يرمزان للخصلتين الجانبيتين .

وأخيراً تجب الإشارة إلى تسريحة ليبية نادرة تظهر في صور الدهان على آثار بني حسن ويبدو الشعر فيها وقد جمع بنوع من العصبات المزينة بما يشبه الأصداف ثم يرسل من العصبة ليكوّن ما يشبه الفرشاة خلف الرقبة .

وسبب تنوع التسريحات عند الليبيين غير معروف ، وإن كان هيرودوتس قد أشار إلى أن التسريحة ربما كانت تستخدم كعلامة فارقة تتميز بها بنات وأبناء القبيلة الواحدة عن غيرهم . وربما كانت هنالك أسباب أخرى لاعتماد التسريحة ذات الخصلة الجانبية الواحدة أو الخصلتين الجانبيتين كأن تكون مثلاً علامة مميزة للشباب . ولما كنا نعرف أن الرؤساء فقط هم الذين كانوا يستعملون التسريحة ذات الخصلة الجانبية المزدوجة فإنا لن نخطىء إذا قلنا إن هذه التسريحة قصدوا بها أن تكون شارة لمركزهم الرئاسي .

والرجال الليبيون يظهرون على الآثار المصرية ملتحين في أغلب الأحيان ، ولحاهم ليست طويلة بل هي مهذبة بعناية فائقة . ومن ناحية أخرى كانوا يطلقون شواربهم خفيفة كذلك .

أما بالنسبة للوشم عند الليبيين القدماء فإن أحسن شاهد عليه هو صور الرؤساء الليبيين المرسومة بالدهان في تل العمارنة على ضريح سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة ، وبلاط مدينة هبو الأملس . ويدل رسم الأمير الليبي الموجود

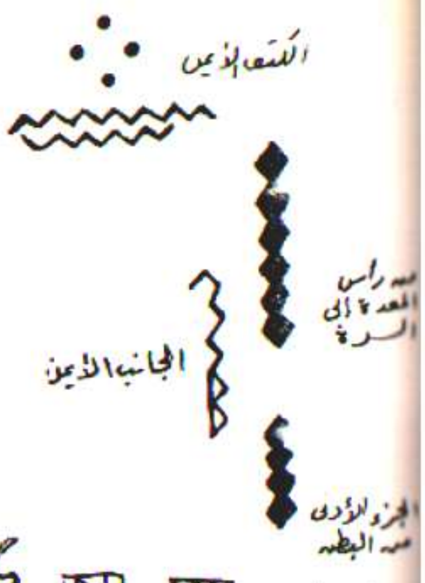

(٣٧)

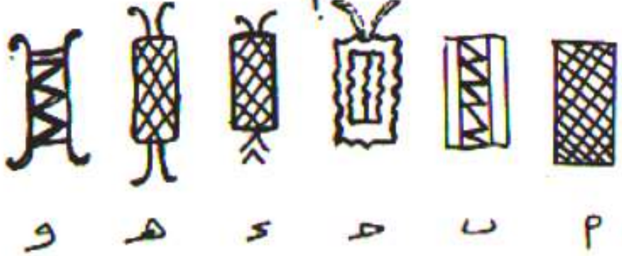

(٣٨)

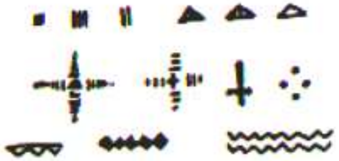

(٣٩)

أشكال الوشم المختلفة ، عن النقوش المصرية

عن . وريك بيتس

في تل العمارنة على أنّه كان رئيساً كبيراً لأنّه يتحلى بريشتين . ونلاحظ على الكتف الأيمن لهذا الرئيس رسماً من طراز بسيط هو عبارة عن خط مزدوج مموج تليه أربع نقط . وعلى صدره وبطنه ستة معينات في صف عمودي ، تليها أدنى منها أربعة أخرى . وهذا الوشم يختلف قليلاً عما كان مألوفاً عند الليبيين عامة . ولقد دل فحص صور الرؤساء التمحو الأربعة ، الموجودة على ضريح سيتي الأول ، على وجود علامات سوداء على أذرعهم وسيقانهم .

ويرجع أوريك بيتس [1] أن الرؤساء من الليبيين هم فقط الذين كانوا يستعملون الوشم وأن رجال الأسر الحاكمة دون نسائها هم الذين كانوا يستعملونه ، ثم يشير إلى أن استعمال الوشم عند الليبيين القدماء كان مناظراً لما ذكره هيرودوتس عن بعض القبائل التراكية (Tracians) التي كانت تستخدم الوشم كعلامة مميزة تشهد أن صاحبها ولد من أصل نبيل ، كما أن عدم وجود الوشم كان دليلاً على انحطاط الأصل [2] .

أما أنماط الوشم التي استخدمها الليبيون القدماء فقد كانت أنماطاً محلية بسيطة وربما كانت في أغلب الأحيان من صنع خيال الفنانين المصريين أنفسهم . ولذلك فإن من الخطإ نسبتها إلى مؤثرات خارجة عن المحيط الإفريقي والأصول الإفريقية . وأهم هذه الأنماط نمط اعتبر أن له دلالة دينية لأنّه يتعلق بالإلهة نيث « Neith » إلهة الدلتا (ليبية — مصرية) ، ولأنّه يعطينا أيضاً تفسيراً لاستخدام الليبيين للوشم .

وليس هنالك ما يثبت أن الوشم هذا كان عبارة عن وسم يوسم به الأسرى الذين وهبوا رقيقاً للربة نيث . ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد إمكانية كون الوشم على الأسرى الليبيين رمزاً لهذه الإلهة .

---

١ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, P. 138.

٢ Herodotus V, p. 312.

وعلى ذلك فقد كان الوشم عند الليبيين في البداية علامة مميزة للرؤساء الكبار ، ثم صار شيوع استعماله بين الرؤساء علامة تدل على أنهم كانوا بذلك يضعون أنفسهم تحت حماية الإلهة نيث .

أما الأنماط الأخرى من الوشم فهي بسيطة للغاية ويمكن ردها إلى العصر الحجري الحديث . وربما كان الوشم بأنماطه المختلفة مجرد دهان على الجسم من ناحية ، وربما كان ، من الناحية الأخرى ، وشماً حقيقياً ناتجاً عن حقن المادة السوداء تحت الجلد ، إذ من المعروف أن الجيزانتيين والماكساي كانوا يطلون أجسامهم بالدهان الأحمر .

وأخيراً تدل الآثار المصرية على أنه بالرغم من أن الشردن وغيرهم من حلفاء الليبيين كانوا يمارسون عادة الختان ، إلا أن الليبيين أنفسهم لم يكونوا يختتنون . وقد أكد هيرودوتس فيما بعد هذه المسألة وعزا أصولها للمصريين الذين قال عنهم إنهم كانوا يفضلون الطهارة بالرغم مما يترتب على الاختتان من تشويه . وعندما يعد هيرودوتس الشعوب التي تمارس عادة الاختتان ، لا يذكر الليبيين بينها . وهو يقول في هذا الصدد بحق إن هذه العادة مصرية ، وإنها كانت معروفة في مصر وإثيوبيا[1] منذ وقت قديم جداً . ومن الواضح أن هيرودوتس هنا لا يخلط بين الإثيوبيين والليبيين كما هي الحال بالنسبة للكتّاب الإغريق وبالنسبة له هو ذاته في موضعين من كتابه ؛ ذلك أن شواهد آثار الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، ولوح بعنخي تثبت ما ذهب إليه فيما يتعلق بأصول عادة الختان ؛ فنحن نعلم أن بعنخي ، في أعقاب إخضاعه للدلتا ومن فيها من الأسر الليبية ، منع الليبيين من الدخول عليه لأنهم كانوا يأكلون السمك — وهو محرم عند الإثيوبيين — ولأنهم ، كما يظهر ، كانوا غير مختتنين . والشخص الليبي الوحيد الذي سمح له بالدخول هو نملوت (= نمرود) ، وكان ذلك إما تقديراً لمركزه

١ Herodotus, II, p. 140.

كأعلى رئيس ليبي ، وإما لأنه كان قد « حمل على الاختتان » وفقاً للعادة المصرية .

الفن والمادة : استعمال المعادن :

أجمع عدد كبير من المؤرخين في صمت على أن الليبيين في عصر الغزوات الليبية الكبرى لمصر كانوا في مرحلة حضارية متقدمة إلى حد كبير ، لأنهم كانوا يستعملون الأسلحة والأواني المعدنية ؛ وهذه قضية خطيرة جديرة بالبحث الواعي العميق لأنها ذات أثر كبير على الحضارة الليبية القديمة وذات دلالة تاريخية عميقة . ومما لا شك فيه أن الليبيين القدماء كانوا يستعملون المعادن إلى حد ما . وقد سبق أن لاحظنا في قائمة الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمير الليبي مريي « ذهبه وفضته وأوانيه البرونزية » وأكثر من تسعة آلاف « من سيوف المشواش البرونزية » ثم « أواني الشرب الفضية » و « السكاكين » . وكان من جملة الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث من الليبيين (١١٥) سيفاً بطول خمسة سواعد و (١٢٤) سيفاً بطول ثلاثة سواعد .

ويؤكد هذه المعلومات ما نجده من تمثيل للأوعية الليبية في النقوش المصرية وما ذكره الكتاب الكلاسيكيون عن السيوف الليبية .

ولكنا نخطىء إن خرجنا من هذه المعلومات إلى القول إن الليبيين جميعاً كانوا يعيشون في « عصر المعادن الشامل » لأنهم في الواقع إنما كانوا صدفة يستعملون المعادن ؛ فقد كانت المعادن المفيدة في الماضي كما هي الحالة اليوم تأتي لليبيين من الخارج . وتدل أشكال الزهريات المعدنية الخاصة بالأمراء الليبيين على أنها من أصول أجنبية . أما السيوف الطويلة فقد كانت من النوع المتداول في جنوب أوروبا وبين الشردن بالذات ، ونحن نعلم أن هؤلاء كانوا حلفاء لأبناء الشمال الإفريقي الليبيين . والحقيقة المعروفة عن قلة المعادن المحلية وندرتها في الشمال الإفريقي من تونس إلى مصر في العصور التاريخية القديمة هي في حد ذاتها كافية

للتشكيك فيما إذا كان الليبيون أنفسهم قد عرفوا فن صناعة المعادن . وإذا استثنينا خام الحديد الممتاز « الهيماتيت »[1] الأحمر اللون في مارماريكا ، وعروق النحاس الأحمر في جبل العقبة فإنه لم توجد في ليبيا القديمة أية معادن أخرى قابلة للتصنيع . صحيح أنه كان هنالك بعض الرواسب الحديدية على حدود ليبيا الغربية ، وكميات صغيرة من رواسب النحاس الأحمر في المنحدرات الشرقية لجبال أطلس ولكن ليس هنالك ما يدل على أنها اكتشفت قبل العصر الروماني ، وحتى في أيامنا هذه فإن ليبيا تعتمد كلية على العالم الخارجي للحصول على حاجتها من المعادن .

ولا بد من القول بهذا الصدد إن تمحيص الكتابات الكلاسيكية ذات العلاقة بالأسلحة الليبية أمرٌ له مغزى كبير بالنسبة لهذا الموضوع لأن شعباً محباً للقتال مثل الليبيين يزود بكميات كبيرة من أدوات النحاس الأحمر والبرونز والحديد لا بد أنه كان بالتأكيد يزود بالأسلحة المعدنية ولكن الحالة لم تكن كذلك في العهدين الإغريقي والروماني . وصحيح أن كلاً من « هلانيكوس Hellanicus » ونيكولاوس « Nicolaus » الدمشقيين تحدث عن السيوف الليبية ولكنهما كانا يعنيان الليبيين الغربيين الذين كانوا قد تأثروا بالفينيقيين في قرطاجة وليس الليبيين الشرقيين (سكان ليبيا بحدودها الحالية) الذين قال عنهم ديودورس الصقلي (Deodorus Siculus) إن الواحد منهم كان يتسلح بثلاثة رماح وحقيبة حجارة وكانوا يجهلون السيوف والخوذات والأسلحة الأخرى . واستكمالاً لهذه الصورة التي رسمها ديودورس نضيف هنا أنهم كانوا أيضاً يتسلحون بالقوس والنشاب . وصحيح كذلك أن الأوزيين كانوا في احتفالاتهم الدينية يجعلون إحدى عذراواتهم تلبس « الخوذة الكورنثية والدرع الإغريقي »[2] ، ولكن هذه الأشياء كانت مستوردة ؛ يدل على ذلك أن هيرودوتس نفسه لا يلبث أن يعلن أنه لم يكن يعرف « كيف كان هؤلاء القوم يلبسون مثل تلك العذراء قبل استيطان

١ الهيماتيت (Hæmatite) هو أكسيد الحديديك (ح٢ أ٣) ولونه أحمر بني ويحتوي ٧٠٪ من الحديد .
٢ Herodotus, iv, p. 302.

الإغريق في المناطق المجاورة » ، ويفترض أنهم ربما كانوا يستعملون أسلحة مصرية ، ثم يؤكد أن الإغريق أنفسهم إنما أخذوا الدرقة والخوذة عن المصريين[1] . وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن الأوزيين أنفسهم كانوا يستعملون النبابيت والحجارة في القتال الذي كان يشكل جزءاً من احتفالاتهم الدينية . ونحن نعلم أن الليبيين أجهزوا على من كان متأخراً من الفرس من جند أرياندس « Aryandes » من أجل ملابسهم وأسلحتهم أثناء تقهقر الجيش الفارسي من منطقة برقة ، كما نعلم أن الفرقة الليبية في جيش كزركسيس بمصر كانت مسلحة برماح صليت رؤوسها الخشبية على النار لتكتسب شيئاً من الصلابة . أما الحراب ذات الأسل التي ذكر الشاعر سيليوس الإيطالي « Silius Italicus » أنها كانت سلاحاً ليبياً فليس من الضروري أنها كانت ذات رؤوس معدنية لأن الشاعر نفسه يشير في مكان آخر إلى جماعة أخرى من الليبيين كانت مسلحة بالحراب ذاتها ومع ذلك فهو يصفها بأنها كان ينقصها الحديد .

وقد ذكر كوريبوس « Corippus » أن أسلحة الليبيين في أوائل العهد البيزنطي كانت في بعض الحالات — بل ربما في أكثرها — من المعدن . وتجدر الإشارة إلى أن الأدلة المتعلقة بالأسلحة لا تشير فقط إلى ندرة المعادن وإنما تذكر أيضاً أن الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية الواردة في النصوص المصرية لا ذكر لها عند كتاب العصر الكلاسيكي فهم لا يذكرون إلا الكؤوس والأواني الخزفية أو الخشبية أو المصنوعة من لحاء الشجر[2] . ومن ناحية ثانية فنحن في الوقت الذي نجد فيه نساء قبيلة الأدرماخيدي المتأثرة بالحضارة المصرية يحلين سيقانهن بخلاخيل برونزية ، نجد أخواتهن نساء الأوزيين البعيدين عن مصر وتأثيرها يقنعن بالخلاخيل الجلدية[3] .

١ المرجع السابق ، نفس الصفحة .
٢ Mela, 1. 8.
٣ Herodotus, iv, pp 299 — 301.

ممّا تقدم يتبين لنا أن المعدن كان شيئاً نادراً ولكن الرؤساء الكبار كانت لديهم كميات كبيرة منه ، كما أن المحاربين الليبيين الذين كانوا على احتكاك بالمصريين في الشرق أو بالقرطاجيين في الغرب كانوا يتمكنون من الحصول عليه . أما أغلبية رجال القبائل فلم يكن لديهم منه ما يكفي لأن يستعملوه رؤوساً لأسلحتهم أو ليصنعوا منه سيوفهم . والواقع أن الليبيين يظهرون في العصر التاريخي ، وقد تعدوا فقط مرحلة حضارة العصر الحجري الحديث ، كحلفاء لمستعملي المعادن من أمثال الشردن والقرطاجيين . وهذه نقطة هامة لأن جزيرة سردينيا التي كانت إلى حد ما خاضعة لسيطرة الشردن كانت غنية بالمعادن . وقد سبق أن قلنا إن سيوف رجال القبائل الليبية الطويلة كانت من النوع المعروف في جنوب أوروبا . وتظهر رسوم هذه السيوف على الآثار المصرية من عهد الدولة الحديثة بمصر كأسلحة مميزة للشردن والشكلش العاملين كمرتزقة في الجيش المصري . وبناء على هذا يمكننا أن نستنتج باطمئنان أن الشردن ، جوالة البحر ، المتحالفين مع الليبيين ضد مصر ، هم الذين سلحوا حلفاءهم بالأسلحة المعدنية . وهذه القضية دلالة بالغة على مدى توثق العلاقات بين الشماليين (أبناء جنوب أوروبا) والإفريقيين (سكان شمال إفريقيا) وعلى طبيعة الغزوات التي قامت بها أحلافهم ضد مصر .

الأسلحة والحروب :

لم يأنف الليبيون من استعمال أبسط الأسلحة كأسلحة هجومية ، فقد سبقت الإشـارة لاستعمالهم للنبابيت والحجارة التي كانوا يحملونها في حقائب خاصة وكانوا يقذفونها بقوة إما باليد أو بالمقلاع . أما عصيهم فكانت إمّا مستقيمة أو منحنية بعض الشيء عند نهايتها . وإذا قصدوا بها أن تقذف فإنّهم كانوا يحنونها عـلى شكل الترمباش « Turumbash » السوداني الحالي .

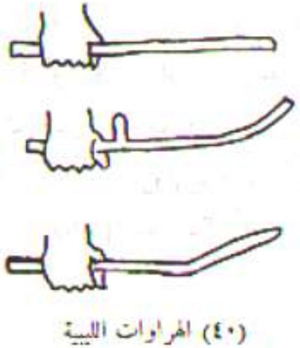

(٤٠) الهراوات الليبية
عن : أوريك بيتس

وقد استعمل الليبيون بشكل عام أسلحة بدائية للغاية . أما سلاحهم الممتاز فقد كان دون شك القوس والسهام والرمح القصير . ونحن نراهم في مناظر المعارك الكبرى على آثار الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين مسلحين بالأقواس . وتقول نصوص مرنبتاح عن الأمير الليبي مريي إنّه هاجم التمحو بنباله وإنّه أثناء انهزامه فيما بعد خلف وراءه قوسه وسهامه وحقيبته . وكان ضمن الغنائم التي استولى عليها مرنبتاح أكثر من ألفي قوس بينما استولى رمسيس الثالث على عدد من الأقواس وعلى (٢٣١٠) جعب . وتظهر الأقواس الليبية صغيرة جداً — كما هي الحال في بعض الأحيان بالنسبة للأقواس المصرية — إلى حدّ أنها تجعلنا نميل للاعتقاد أنها كانت تستعمل لقذف السهام الصغيرة السامة . ويدل شكلها أيضاً على أنها أشبه بالأقواس الآسيوية المنقوشة على الآثار المصرية منها بالأقواس المصرية أو الأقواس الإفريقيـة الحديثة . وكان القوس الليبي المألوف أشبه بضلعي زاوية منفرجة بمقدار (١٤٠) درجة . أمّـا أقواس الرؤساء فكانت في بعض الحالات معقوفة الطرفين . وفي حالة واحدة يظهر القوس صغيراً للغاية إلى حد يحملنا على وجوب اعتباره إمّا نموذجاً لقوس وإمّا أن يكون الفنان قد صغره لأسباب تقليديـة كالحاجة لتوفير الفراغ مثلاً .

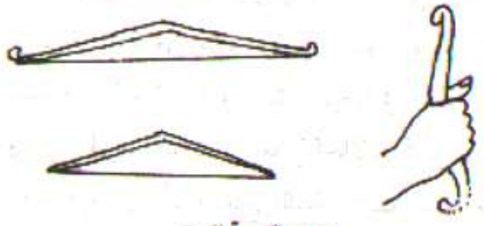

(٤١) القسيّ الليبية
عن : أوريك بيتس

أما رؤوس السهام الليبية فكانت من أشكال مختلفة ؛ وقد وجدت أعداد كبيرة منها ، وهي من الصوان أو العقيق الأحمر أو حجارة أخرى ، في الصحراء وفي الواحات المصرية وفي الفيوم مما يرجح الاعتقاد أن هذه الرؤوس هي التي كانت مستعملة بصفة عامة . ومن الناحية الأخرى فإن الرؤوس المحسنة التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث ، والتي كانت شائعة الاستعمال في مصر

حتى قبيل عصر الأسرات ، يرجح أنها كانت مستعملة من قبل الليبيين الأقل تقدماً خلال عصرهم التاريخي . ونحن نجد نظيراً لهذه الرؤوس بين رؤوس السهام الإثيوبية ، فقد كان الإثيوبيون حتى القرن الخامس قبل الميلاد – عندما كانوا يعملون في جيش كزركسيس الفارسي بمصر – يستعملون سهاماً « ليست لها رؤوس من حديد وإنما من حجر محدد إلى درجة عالية ، كالنوع الذي كان يستخدم في حفر الأختام »[1] . ويمكن التأكيد أن الرؤوس الصوانية التي وجدت في الفيوم هي رؤوس سهام ليبية من العصر الحجري الحديث وذلك بسبب التوزيع الجغرافي الواسع لعدة أنواع منها ولوجودها في أماكن صالحة للسكن ولعدم وجودها في وادي النيل .

أما الرماح التي كان يتميز بها الليبيون ، على الأقل بعد ظهور الحصان ، فيبدو أنها لم تكن شائعة في وقت الغزوات الليبية لمصر . ففي قائمة الأسلحة الليبية التي غنمها رمسيس الثالث ذكرت اثنتان وتسعون حربة فقط . ومع بدء العصر الكلاسيكي عم استعمال السهام والرماح الصغيرة والحراب في الشمال الإفريقي . وهذه الأسلحة كانت رؤوسها مثل رؤوس السهام الليبية . وإذا لاحظنا أشكال المجموعة الثانية من هذه الرؤوس سنجد بينها أمثلة متنوعة من رؤوس الحراب الصغيرة والكبيرة وقد وجدت جميعها في منطقة الفيوم . ولقد سبق أن ذكرنا أن رؤوس الحراب كانت في بعض الحالات تمتّن بصليها على النار . وتدل الكتابات الكلاسيكية على أن الرماح الليبية كانت تستخدم غالباً للقذف وليس للطعن . وكانت العادة أن يحمل المحارب رمحين أو ثلاثة من أجل هذه الغاية .

وبالإضافة لكل الأسلحة التي سبق ذكرها فإن الليبيين استعملوا السيف على نطاق محدود في الأوقات التي تحالفوا فيها مع أقوام أكثر منهم تقدماً . ونحن نعلم أن المصريين غنموا (٩١١١) سيفاً برونزياً من المشواش ، كما سبق أن ذكرنا السيوف الليبية من طول خمسة (٢٦٣ سم) وثلاثة سواعد (١٥٩ سم)

١ Herodotus VII. p. 440.

ضمن الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث .

هذه السيوف الضخمة كانت ، كما سبق أن ذكر ، من صنع أجنبي . وقد ذكر سيليوس الإيطالي نوعاً آخر من السيوف قال إن الأدرماخيدي استعملوه . ويتضمن وصف سيليوس لهذا النوع أنه كان محنياً كالمنجل وبذلك فهو يشبه النوع الذي استعمله المصريون القدماء والذي ترجع أصوله إلى العصر الحجري الحديث .

وفي العصر الكلاسيكي استعمل الليبيون المتصلون بعالم البحر الأبيض المتوسط ، في بعض الحالات ، نوعاً قصيراً من السيوف المنحنية القاطعة هو المشيرا « Machæra » بينما استعملوا في العصر البيزنطي سيوفاً قصيرة مستقيمة هي في الواقع عبارة عن سكاكين طويلة . ولا بد من التمييز بين هذه السيوف القصيرة والسيوف التي غنمها مرنبتاح من الليبيين ؛ فقد كانت الأولى عبارة عن خناجر كالتي تظهر في أيدي الليبيين منذ عهد ني – أوسر – رع وخلال عهد الدولة الحديثة في مصر ،

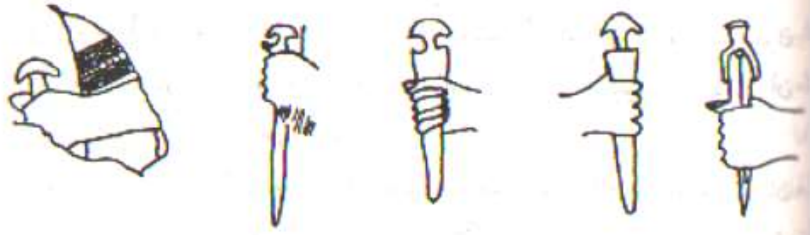

(٤٢) السيوف القصيرة أو الخناجر
عن : أوريك بيتس

والواقع أنه من الصعب أن نميز بين هذه الخناجر والأسلحة المصرية فهي في الحقيقة من النوع الذي كان شائعاً في بلدان البحر الأبيض المتوسط . ونحن نعرف أنها كانت لها أغماد من شكل نصابها ، ونعرف كذلك من شكل النصاب أنها إنما كانت تستعمل للطعن . وفي إحدى صور الدهان على آثار بني حسن يظهر أحد المرتزقة الليبيين وهو يحمل فأساً هلالية الحد ، وذلك هو الشكل الذي كان

شائعاً في مصر . ومن المحتمل أن يكون حاملها قد سلحه بها مستخدموه المصريون . ويذكر بهذا الصدد أن سيليوس الإيطالي أشار مرتين لوجود ليبيين في الجيش القرطاجي مسلحين بالفؤوس ، وإن كانت الفؤوس المقصودة في هذه الحالة هي فؤوس من النوع المزدوج أي ذي الحدين .

وفي الحديث عن أنواع الأسلحة تجدر الإشارة إلى أن الشعب المتأخر حضارياً يغلب على أسلحته أن تكون هجومية أكثر منها دفاعية لأن هذا المبدأ ينطبق تماماً على حالة سكان الشمال الافريقي القدماء . ولكن ذلك لا يعني أن أياً من شعوب هذه المنطقة كان مجرداً تماماً من وسائل الدفاع والوقاية كما ذكر هيرودوتس عن الجمفزانتيين ؛ فالمعاطف الجلدية السميكة تعتبر وسيلة وقاية وقد كانت شائعة بشكل عام إلى حد أن جنود المراتب الدنيا من المرتزقة الليبيين في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدونها . وفي العصر الكلاسيكي نجد التروس الجلدية مستعملة بانتظام . وكان النوع الشائع منها هو الشكل الكبير الذي كان مدوراً ومحدباً إلى حد ما . وقد ذكر هيرودوتس أن المكاي كانوا يستعملون ترساً صغيراً مدوراً يصنعونه من جلد النعام[1] . ويخبرنا سيليوس الايطالي أن الليبيين كانوا يطلون تروسهم بالدهان .

ولا يبدو أن الدرقات والدروع كانت مستعملة على نطاق واسع وإن كان الكتّاب الرومان قد أشاروا لها بين الحين والآخر في معرض وصفهم للرؤساء الليبيين ، وبالعكس فإن ديودورس الصقلي ذكر بصراحة أنها لم تكن مستعملة على الاطلاق[2] .

وحينما نبدأ بالحديث عن المعدات فلا بد أن نعيد للذاكرة ما سبق أن أشرنا إليه من أن الليبيين كانوا يستعملون جعب السهام منذ وقت غزواتهم لمصر ، كما

١ Herodotus, iv, p. 301.

٢ Diodorus Siculus, iii, 49. 4. عاش ديودورس في القرن الميلادي الأول وألف تاريخه المذكور (Bibliothèque Historique) .

أنهم كانوا يستعملون نوعاً من الحقائب الجلدية يحمل فيه رماة الحجارة حجارتهم . ولعل أهم المعدات الليبية القديمة هي قربة الماء التي كان يستحيل عليهم عبور الصحراء دونها . وقد ورد ذكرها لأول مرة على آثار الدولة الحديثة في مصر . وفي هذا العصر وفي العصر الكلاسيكي من بعده كانت القرب تحمل بربطها تحت بطون الخيل حتى لا يتبخر الماء منها ، وهذه عادة لا تزال دارجة حتى اليوم .

ومن المعدات الأخرى العربات الحربية ؛ فقد كان بين ما استولى عليه رمسيس الثالث من الليبيين حوالي مائة عربة حربية . ويقول هيرودوتس إن الإغريق عرفوا العربة ذات الخيول الأربعة عن طريق الليبيين[1] . ولكن هذا القول ، إن صح ، لا ينفي أن يكون الليبيون قد أخذوا استعمال هذه العربات الحربية عن المصريين . وعلى أي حال فإن نوعاً من العربات ذات العجلات كان قد عم انتشاره في الشمال الإفريقي مع بدء العصر الكلاسيكي . وفي ليبيا عرفها الاسبستي على الساحل وعرفها الجرامنتيون في الداخل[2] . كما أن الفرقة الليبية في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانت تمتطي هذه العربات . ومن المعروف بهذا الخصوص أن كل قوم من الأقوام المختلفة في الجيش الفارسي إنما كانوا يحاربون بأسلحتهم الوطنية . وقد اشتهرت قورينة بالعربات والسباق الخاص بها . ولكن شأن العربة لم يلبث أن انحط في العصر الروماني . ولا شك أن العربة الليبية كانت من النوع البسيط كما أنها كانت تصنع محلياً ، وهي قطعاً لم تكن من النوع الفاخر المصنوع من الخشب والبرونز . وهو النوع الذي كان شائعاً في مصر وآسيا وبلاد اليونان . وفي حديثنا عن المعدات عامة والعربات خاصة يجدر بنا أن نتذكر ما قلناه سابقاً عن الخيل الليبية التي تظهر لأول مرة

١ Herodotus IV, 305. The four horse chariot is at least as early as the Homeric poems — Iliad viii 185, Odyss xiii. 81 — and appeared in the olympic contests in the Seventh century B.C.

٢ هنالك نموذج لعربة الجرامنتية تمكن مشاهدته في متحف السراي الحمراء بطرابلس .

في فترة الغزوات الليبية الكبرى لمصر .

وفيما يتعلق بأساليب القتال نجد الليبيين في فترة الغزوات الكبرى لمصر يتبعون تكتيكاً يختلف عن التكتيك الذي صاروا يتبعونه في عصر لاحق بعدما أصبح أكثرهم يقاتلون من على ظهور الخيل . فعلى سبيل المثال نحن نعلم أن المشواش عندما أخضعوا التحنو ، المجاورين لهم من جهة الشرق ، أجبروهم على الانضمام اليهم في غزوتهم لمصر . وكان أميرهم مريي قد حالف أعداداً من الشردن والشكلش والإكوش واللوكا والتراكيين « منتخباً لهذه الغزوة أحسن المحاربين وأشجع الرجال في بلاده » . ولما تم له ما أراد زحف بذلك الجيش على مصر وراح يجهز في طريقه على المراكز المصرية المتقدمة حتى بلغ وادي النيل حيث دنا من ميدان المعركة الذي كانت تحتشد فيه قوات الفرعون مرنبتاح . وقبل فجر اليوم السابق ليوم المعركة ، قام الرئيس الكبير بنفسه بجولة بين خيام جنده الجلدية يشجع جنوده ويحثهم على الاستبسال في القتال . وفي صبيحة يوم المعركة كانت مقدمة الجيش الليبي تقف ضد المصريين وجهاً لوجه . وبدأت بين الفريقين معركة رهيبة دارت رحاها طيلة ست ساعات كان المصريون خلالها يطلقون رفوفاً من السهام على صفوف الجيش الليبي التي برهنت على صلابتها رغم قلة تنظيمها . وأسفرت المعركة في النهاية عن اندحار المغيرين ثم انهزامهم مخلفين وراءهم أقواسهم وقربهم وأكثر من تسعة آلاف قتيل ومثلهم من الأسرى .

أما في العصر الكلاسيكي فقد تغير تكتيك القتال الليبي وتطور ، إذ نحن نجد المعارك الليبية تختلف كثيراً في أساليبها عن المعارك والحملات الأولى في عهد الغزوات الكبرى المذكورة ، تلك الغزوات التي كانت ، على ما تميزت به معاركها من وحشية وبربرية ، تدل دلالة قاطعة على ثبات الليبيين وصلابتهم العسكرية . ويتجلى التطور الذي طرأ على أساليب القتال في العصرين الإغريقي والروماني في أن المحارب الإفريقي ، شأنه في ذلك شأن المحارب الفارسي المعاصر له ، كان فارساً خفيف الحركة ، سريع الانقضاض ، وسرعته في التراجع تفوق

سرعته في الهجوم ، ولا قبل لمشاة العدو بالدنو منه . ولذلك فنحن نجد أن الخيالة الإفريقيين ، ومنهم الليبيون ، كانوا في أيام يوليس قيصر نادراً ما يشتبكون مع عدوهم على أرض مستوية ، لأنهم كانوا يفضلون أن ينصبوا له الكمائن بخيولهم بين الأودية ثم ينقضون عليه فجأة . وفي بعض الأحيان فقط كانوا يحاربون بمؤازرة مشاة مسلحين تسليحاً خفيفاً وذلك لكي يتمكنوا من التحرك بسهولة وبسرعة ولكي يتمكنوا من المحافظة على التماسك والثبات . ونحن نلمح صفة الثبات القديم هذه ماثلة في منطقة طرابلس في مرحلة لاحقة عندما نجد الليبيين ينيخون جمالهم على شكل دائرة يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في وسطها ثم يستحكمون هم أنفسهم خلف صفوف الجمال استعـداداً لقتال العدو المهاجم .

وهنالك ناحية أخرى تدل على أن الليبيين عرفوا أساليب القتال المنتظم من وراء خطوط محصنة ؛ فقد وجدت آثار حصون جيدة في أماكن متفرقة من ليبيا وخاصة في مناطق قبيلة الأوسخيزي وقبيلة الناساموني. وهذه مسألة لم يرد لها ذكر في أية مصادر تاريخية باستثناء أحد النقوش المصرية الذي يظهر فيه رمسيس الثاني وهو يقتحم حصناً اسمه « ساتونا » « Satuna » — والمفروض أن هذا هو اسم إحدى المدن السورية القديمة — ، والغريب في أمر هذا النقش أن حامية الحصن هي عبارة عن خليط من الآسيويين والليبيين ؛ وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام حتى لو سلمنا جدلاً بأن العملية ، موضوع النقش ، لم تقع في ليبيا وإنما وقعت في سوريا لأن مغزاها واضح وهو يؤيد ما ذهبنا إليه في بداية هذه الفقرة .

وفي وقت لاحق نجد القتال من داخل دائرة من الجمال يصبح لعبة محببة لدى الليبيين يلجأون إليها لاستيعاب هجوم أعدائهم . فقد كانت الجمال تناخ على شكل دائرة ثم يصطف المحاربون خلفها بينما يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم

في الوسط [1] — وفي بعض الأحيان كان الرجال ينصبون تروسهم أمام الجمال لوقايتها من أذى المهاجمين وسهامهم . ولم يكن البربر القدماء أقل شجاعة فردية من أحفادهم ، ولكنهم كغيرهم من البدائيين كانوا يصابون بالذعر في بعض الأحيان كما حدث عندما تمكن بضعة من فرسان يوليس قيصر الغاليين (الفرنسيين) من تشتيت ألفي فارس من فرسان شمال إفريقيا . ولكن هؤلاء الأخيرين كانوا في الأحوال المواتية يتفجرون جرأة وعناداً في وجه أعدائهم ، فثورة إنارس « Inarus » وتكفاريناس (Tacfarinas) كانتا في حد ذاتهما عمليتين جريئتين تميزتا بالشجاعة والتصميم وإن كانتا فشلتا في تحقيق أهدافهما . ونحن ما نزال نذكر ما قاله ليفي (Livy) من أن سيوف المرتزقة الليبيين هي التي أدت إلى هزيمة روما في معركة كاني (Canæ) [2] . وبالرغم من أن أسلحة الليبيين كانت ضعيفة ومختلفة إلا أنهم في حالات استقلالهم التام ، كما حدث في عهد الدولة المصرية الحديثة مثلاً ، كانوا يتميزون دائماً بكثرتهم وشجاعتهم التي كانت تكفي لتشكيل تهديد دائم لمصر لو لم يكن ينقصها التنظيم بصورة مركزة . وفي العصر الكلاسيكي ظل الليبيون يتحلون بشجاعتهم القديمة كما أنهم تمكنوا بفضل انتشار الحصان والجمل ، من تطوير تكتيك حربي يعتمد على مناوشة العدو وإنهاكه . أما قدرتهم على الاتحاد فإنها لم تتطور كثيراً كما أن أسلحتهم ، بعكس أسلحة أقوام البحر الأبيض المتوسط الأخرى ، لم تتحسن . ولذلك فإنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الخيالة الرومان المنظمين المدربين تدريباً حسناً ، ولا أمام العرب المسلمين الذين كانت حرارة الإسلام في بداية عصره قد وحدت صفوفهم وقلوبهم . وبإيجاز فإن تاريخ الليبيين العسكري على غموضه يبرز مزية عامة لهم هي الشجاعة الفردية التي تصل حد التوحش والتي فقدت فعاليتها لانعدام الطاعة والثبات والانضباط .

1 Procopius, De bello Vandalico, ii, 11.
2 Livy, xx, 47, 48 —

الأدوات المنزلية :

يمكننا أن نجمل أدوات الليبيين المنزلية القديمة والتي ورد ما يثبت وجودها ، كما يلي :

الكراسي :

فقد كان بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من مربي عرش هذا الأمير الليبي ، ولكن المفروض أن الكراسي لم تكن شائعة الاستعمال .

الزهريات :

لقد سبق ذكر الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمراء الليبيين . وتدل أشكال تلك الزهريات ، كما صورتها النقوش المصرية ، على أنها كانت من صنع سوري . ولتلك الزهريات أهمية خاصة من حيث دلالتها على ثراء الأمراء الليبيين وعلى علاقاتهم بالآسيويين .

الأواني الخزفية :

من المحتمل أن يكون المصريون قد قصدوا هذا النوع من الأواني عندما سجلوا في قوائم غنائمهم من الليبيين «الزهريات المتنوعة» . ومن المؤكد أن الليبيين كانوا يستعملون فناجين خزفية وجراراً فخارية ، وإن كانت الخزفيات إجمالاً نادرة لدى الجرامنتيين .

أواني قشر بيض النعام :

لما كان الجرامنتيون لا يستطيعون صنع الأواني الخزفية نظراً لأن تربتهم رملية فقد عملوا فناجين من قشر بيض النعام . وقد ذكر ميلا [1] أن الليبيين عرفوا

1 Mela, i, 8.

نوعاً آخر من الأواني هو الأواني المصنوعة من الخشب أو لحاء جذوع الشجر .

الحبال :

وكانوا يصنعونها من الجلد أو من ألياف النخل كما أنهم كانوا يصنعون من الليف أيضاً عصبة الرأس (نظير العقال عند العرب) . أمّا المقلاع فلا بد أنهم كانوا يصنعونه من الجلد — وكانوا كذلك يصنعون الحبال النباتية من نبات اسمه « Lygeum Spartum » ، وقد وجد أوريك بيتس حبلاً من هذا النوع حزم به كفن أحد البدو الرحل في قبر اكتشفه بيتس في جربة ، قرب سيوة سنة ١٩١٠ م .

قرَب الماء :

سبقت الإشارة إليها وإلى كيفية حملها .

السّلال :

تدل إحدى الصور على آثار بني حسن أن السلال كانت مستعملة عند الليبيين ، فقد ظهرت الليبيات في تلك الصورة وهن يحملن أطفالهن في سلال على ظهورهن .

الحصر الجلدية :

لقد عرف الليبيون الحصر الجلدية وإن كان بروكوبيس[1] — إما لأنه كان يتحدث عن بيئة ليبية فقيرة أو ميلاً منه للمبالغة في تأخر القبائل الليبية البدوية وهمجيتها — يقول إن عظماء الرجال فقط هم الذين كانوا يتمتعون بهذه الكماليات ولا شك أن الليبيين كانوا يقتنون أشياء أخرى كثيرة لم تذكرها مصادرنا من

1 Procopius, De bello Vandalico, ii. 6.

مثل الإبر والخيوط والأكياس الجلدية والأدوات اللازمة لصنعها ، وأوعية لغلي اللحم ، وأزندة من الصوان أو غيره وأدوات لتصنيع الجلود . وكان الليبيون الذين يشغلون الأجزاء الشمالية من الفيوم يمتلكون نوعاً بسيطاً من الطواحين اليدوية يستعملونه في طحن حبوبهم . وما زالت أمثال هذه الطواحين تكتشف في المواقع التي كانوا يسكنونها .

(٤٣) الآلات الموسيقية
عن : أوريك بيتس

الموسيقى والرقص :

(٤٤) الآلات الموسيقية
عن : أوريك بيتس

كانت الموسيقى الليبية في منتهى البدائية. وكان أبسط أشكالها تلك الصرخات التي كانوا يطلقونها في حالة نشوتهم والتي لاحظها هيرودوتس بين ليبيي عصره وقال في معرض حديثه عنها : « إن الصرخات العالية أثناء أداء الطقوس الإغريقية إنّما نقلت عن إفريقيا حيث تميز، بهذا النوع من الصراخ، النساء الليبيات اللواتي يطلقن صرخاتهن بشيء غير قليل من الحلاوة »[1] . ولعل هذه الصرخات هي أصل الزغاريد المألوفة في هذه الأيام.

1 Herodotus iv, p. 305.

وبالإضافة إلى هذه الصرخات فلا بد أن الليبيين القدماء كانت لهم أغانيهم التي كانت دينية في بعض الحالات كالذي ذكر من أن النساء الليبيات في سيوة كن وقت عبادتهن للإله آمون « يتغنين بترنيمة غريبة على طريقة أهل البلاد » .

أما الآلات الموسيقية القديمة عند الليبيين فإن ما وردنا عنها قليل . ويبدو أن نوعاً من الصنج كان مستعملاً كما يظهر في الرسوم المصرية . وكانت هنالك آلة أخرى هي الطبل ذو الوجهين الذي يدل شكله على أنه كان مصنوعاً إما من الفخار أو الخشب الذي غطيت نهايتاه بالجلد . وكان هذا الطبل يحمل برباط يشده إلى الكتفين ويتركه يتدلى أفقياً بحيث تكون طبلتاه في وضع قريب من اليدين ليمكن الدق عليهما بسهولة .

وهنالك آلة موسيقية ثالثة هي المزمار البسيط ذو القصبة الواحدة وكان يصنع في الغالب إما من الخشب أو من عظام الساق لنوع من الطيور الكبيرة ، وكان به عدد غير معروف من الثقوب التي يستعملها العازف لعزف ألحانه المختلفة . ولعل هذا المزمار هو سلف الشبابة الحالية وإن كان يختلف عنها في أن طرفه من جهة الفم كان أدق من الطرف الآخر . وفي الحديث عن المزمار لا بد أن نشير إلى أن « دوريوس ساميوس »[1] (Dorius Samius) ذكر وجود المزمار المزدوج (سلف المقرونة الحالية) عند الليبيين .

أما أكثر الآلات الموسيقية الليبية تقدماً ، وهي آلة وردت عليها إثباتات قديمة ، فقد كانت القيثار الصغير ذا الزاوية القائمة . وقد كان هذا النوع من القيثار شائع الاستعمال في مصر إلى جانب أنواع أخرى من القيثارات التي كانت أكثر منه تعقيداً . ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة إذ إننا نجد أحد النقوش المصرية يمثل جميع هذه الآلات أثناء استعمالها في آن واحد .

١ Dorius Samius, Frag. 34 in Fragmenta Historicorum Græcorum (Edited by Müller, Paris, 1841).

وكان الليبيون يقومون بالرقص ويسيرون في مواكب احتفالية ؛ فقد كان المرتزقة منهم في الجيش المصري يمارسون الرقص الحربي في عهد الدولة الحديثة . وكان المرتزقة من التمحو ينقسمون وقت الرقص إلى فريقين أحدهما واقف يضبط الإيقاع « بالطق » أي القرع بعصا على أخرى ، والفريق الثاني يتحرك ويقفز على ذلك الإيقاع . وهنالك مشهد آخر في النقوش المصرية يذكرنا بالرقصات الحربية التي تمارسها الأقوام البدائية وخاصة القبائل الهندية الحمراء في أمريكا . وقد سبقت الإشارة إلى رقصة أخرى هي ذلك الرقص الديني الذي كانت تمارسه عذارى الأوزيين والذي يمكن أن نعتبره نوعاً من الرقص الحربي . ويشير أوريك بتس[1] بهذا الصدد إلى رقصة كان أهل سيوة يمارسونها وهي ليست عربية وليست سودانية وكان شباب سيوة يؤدونها مرّة واحدة في السنة بمناسبة مولد سيدي الشيخ سليمان ، ولي الواحة ، فيقفون في صفين متواجهين ويقومون بحركات هي أقرب إلى الرقص الريفي في إنجلترا منها إلى الرقص العربي أو السوداني مما يرجح الاعتقاد أنها رقصة قديمة موروثة عن الليبيين الذين كانوا يسكنون الواحة .

ومن الواضح أن المواكب كانت تشكل جزءاً من الاحتفالات الليبية الدينية فقد كان الأوزيون يكرمون إلهتهم أثينا (الأوزية) بموكب سنوي يدورون فيه حول بحيرة « تريتونس Tritonis » (شط الجريد بتونس) كما أن طقوس عبادة الإله آمون كانت تتميز بالمواكب . وقد وصف سيليوس الإيطالي[2] مواكب الحداد حول جثمان الأميرة اسبستي (Asbystæ) . وكان هنالك أيضاً موكب سنوي مقدس يحمل خلاله رمز آمون ؛ إله طيبة ، ويدار به في ليبيا طيلة اثني عشر يوماً .

١ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*., Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St. London 1914, p. 156.

٢ Silius Italicus ii. 265.

النقش والنحت :

لقد سبقت الإشارة إلى النقوش الصخرية في الصحراء الكبرى عامة وفي الصحراء الليبية خاصة . أمّا المنحوتات التي عرفت فعلاً في ليبيا فهي قليلة وترجع إلى عصر متأخر . ولعل أهم هذه المنحوتات ما وجد في غرزة (على بعد سبعين فرسخاً[1] إلى الجنوب من طرابلس عند ملتقى خط عرض ١٠َ ٣١ْ شمالاً مع خط طول ٤١َ ١٤ْ شرقاً) . وكان قد زار آثار غرزة هذه لأول مرّة رجل اسمه كابتن سميث (Captain Smith, R. N.) من الأسطول البحري الملكي البريطاني في مارس سنة ١٨١٧ م . وكتب يصفها بقوله :

« هذا الموقع جبلي عارٍ تظهر فيه كتل قاحلة من الحجر الجيري والحجر الرملي وتقطعها في عدة أماكن فروع وادي زمزم الكبير . وبالرغم من أنني كبحت جماح خيالي ولم أسمح له أن ينطلق متناسباً في تحليقه تناسباً تصاعدياً مع الروايات المثيرة التي سمعنها عن هذا الموقع ، إلا أنني لم أستطع تفادي الشعور بخيبة الأمل لدى رؤيتي للأبنية السيئة ، التي ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً وتقوم على حافة الرابية الجبلية ، ولبعض القبور ذات الأساليب المختلفة التي تتميز باللامبالاة في الذوق ، وتتحلى بأعمدة خالية من التناسب تعلوها تيجان ليس بينها وبين الأعمدة أي انسجام » .

ولكن بالرغم من خيبة أمل الكابتن سميث فإن منقوشات ومنحوتات غرزة هذه تكتسب أهمية خاصة عندما نتذكر أن شكلها ومستواها الفني يدلان على أنها كانت من عملٍ محلي وأنها إنّما تمثل مرحلة متوسطة بين النقوش الصحراوية القديمة وبين النقوش الرومانية .

وقد اكتشف « دوفيرير Duveyrier » قرب غدامس لوحاً حفر عليه

١ ٢،٤ — ٤،٦ ميل = الفرسخ — League

(٤٥) لوح غدامس
عن : أوريك بيتس

مشهد تظهر فيه فتاة ملتفتة نحو اليمين وهي جالسة على كرسي بسيط من نوع كراسي المعسكرات ، وقد وضعت قدميها على موطىء خشبي وهي ترتدي حلة طويلة ، وشعرها مسرح تسريحة غريبة ، وقد مدت ذراعها اليمنى ورفعت فيها جريدة نخل أو ريشة نعام ربط في نهايتها شيء صغير مثلث الشكل . وتظهر خلف هذه الصورة صورة أخرى أصغر منها كثيراً ولكنها مشابهة لها وربما كانت تمثل إحدى وصيفات الفتاة الأولى . ويظهر أمام الشكل الكبير بناء نصف مقوس تمتد نحوه الجريدة أو الريشة . وتحت نصف القوس شكل ثالث تهشم حتى لم يبق منه إلا الذراع اليمنى . وليس من شك في أن هذا اللوح في مجمله وفي تفاصيله يعكس تأثيراً مصرياً قوياً يشير إلى عهد الدولة الحديثة ولكن من الثابت أنه من صنع محلي يدل على ذلك الزي البربري الذي كسيت به الصورتان . أمّا مغزاه فهو ديني ؛ فشكل الفتاة الجالسة ووصيفتها يوحي بأنهما تؤديان طقساً دينياً أمام إله أو روح يسكن المكان المقدس نصف المقوس . وإذا سمحنا لأنفسنا بعقد مقارنة بين فن النقش الصخري في العصر الحجري الحديث وبين فن النحت ، على ضآلة ما عرف عنه وما اكتشف منه حتى الآن خرجنا بالقول إن الليبيين القدماء الذين بلغوا شأواً معقولاً من الإبداع في فن النقش الصخري لم يبلغوا في فن النحت مستوى يجعل هذا الفن وسيلة تعبير طبيعية وسهلة .

فن البناء :

إن مما يلفت النظر في الآثار الليبية أنه لم يكتشف بينها حتى الآن شيء من النصب الميجاليثية التي ترجع للعصر الحجري بعكس ما عليه الحال في المغرب الأقصى حيث توجد آثار ونصب ميجاليثية كثيرة . ويميل أوريك بيتس[1] إلى تأكيد النظرية القائلة إن البناة الميجاليثيين كانوا قوماً من غرب أوروبا قدموا عبر شبه جزيرة إيبيريا إلى المغرب ولكن موجتهم توقفت عند تونس .

وفي العصر التاريخي نجد لدى بعض الليبيين قلاعاً لا تزال آثارها قائمة في المنطقة الجنوبية الغربية من برقة . ولا بد أن طبيعة حياة القبائل الليبية غير المستقرة كانت تقتضي وجود حصون هنا وهناك في مناطق تجوال تلك القبائل لتكون بمثابة معاقل يلجأون إليها عند الخطر ، أو يخزنون فيها ما بأيديهم من أمتعة أو غنائم أو يستعينون بحماتها الأقوياء من أتباعهم . ويقول ديودورس الصقلي بهذا الخصوص : « إن زعماء البدو الرحل من الليبيين لم تكن لهم مدن تجمع شملهم وإنما كانت لهم معاقل قرب مصادر المياه يخزنون فيها ما لديهم من غنائم فائضة عن الحاجة » . وقد أيد بلايني الكبير ما ذهب إليه ديودورس الصقلي .

ولدينا مزيد من الإثباتات عن وجود هذه القلاع ؛ فكثيراً ما ورد ذكرها عند الكتاب والأدباء الكلاسيكيين ، كما أن شيئاً من آثار هذه القلاع ذاتها ما زال قائماً إلى اليوم ، وقد شاهد تلك الآثار عدد من الرحالة الحديثين وأعطونا فكرة عن حجومها ومخططاتها وبنائها . ولا تزال آثار واحد من هذه الحصون تشاهد في « هوا سيجال Hawah Segal » في الجنوب الغربي من برقة وهي تدل على أن البناء كان من نوع بدائي خشن يتكون من قطع مستطيلة من الحجارة

١ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*,, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, p. 160.

مثبتة في الأرض بحيث تكون مستطيلاً أبعاده ٣٦×٤٥ متراً . ولا بد أن هذا البناء كان في الأصل عبارة عن زريبة مبنية بالطين وأغصان الشجر أو الحجارة الصغيرة .

ولعل أهم هذه الآثار في ليبيا هي تلك القلاع المبنية من عدة أضلاع من الجدران الحجرية في الجزء الجنوبي الغربي لبرقة . ويقول بيتشي : « هنالك آثار عديدة لقلاع قديمة إلى الجنوب من بنغازي ، وبعضها تختلف كلية في مخططها عن القلاع الإغريقية والرومانية »[1] .

وهذه القلاع ذاتها مبنية « بحجارة كبيرة غير متساوية في حجومها رصت على بعضها البعض دون إسمنت أو طين على أسلوب البناء السيكلوبي « Cyclopian » » . وكانت أبعاد هذه الأبنية بصورة عامة تتراوح بين (٣٠) إلى (٤٥) متراً في الطول و(٢٤) إلى (٣٠) متراً في العرض ، وكان شكلها مستطيلاً وزواياها أسطوانية كما وجدت في مناطق بعض القلاع قبور محفورة في الصخور . وكان يحيط بالقلعة في أغلب الحالات خندق عميق أقيم على حافته الخارجية جدار متين قصير مشيّد بقطع كبيرة من الحجارة .

وليس ثمة أدنى شك في أن هذه القلاع وطنية محلية لأنها تختلف في مخططاتها وبنائها عن القلاع البونيقية والإغريقية والرومانية في الشمال الإفريقي ، ولأنها موجودة في مناطق كان التأثير الأجنبي فيها ضعيفاً إلى حد يبرر إهماله . وقد عزا بارث هذه القلاع لقبيلة الأوسخيزي لأن ما شاهده منها كان واقعاً على حافة منطقة سكنى هذه القبيلة قديماً قرب خليج سرت الكبير . ويرجع أوريك بيتس[2] أن تكون تلك القلاع من مخلفات الناسامونيين فقد وجدت آثار بعضها ضمن الحدود الشمالية لمنطقة سكناهم حول القسم الشرقي من خليج سرت الكبير ،

١ F.W. & H.W. Beechey, *Expedition to the North of Africa.*, p. 244.

٢ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, p. 166.

كما أن هذه القبيلة كانت أقوى من جيرانها الأوسخيزي وبالتالي أجدر بإقامة القلاع . وعلى أي حال فإن هذه القلاع تشهد أن بناتها كانوا يتمتعون بقسط لا بأس به من المهارة في البناء أو أنهم كانوا يسيطرون على أصحاب تلك المهارة ويستخدمونهم . أما زمن هذه القلاع فيمكن رده إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد .

وكانت مساكن الليبيين القدماء إمّا الكهوف الطبيعية أو المنازل الثابتة أو الأكواخ المتنقلة . ومن الملاحظ أن بعض الليبيين كانوا لا يزالون حتى عهد قريب يسكنون الكهوف الطبيعية في مناطق متفرقة من البلاد وخاصة في تلال الجبل الأخضر في برقة ، والكهوف الاصطناعية ، كما لا يزال يشاهد حتى اليوم في غريان وجبلها[١] .

ولما كانت أغلبية الليبيين تعيش عيشة البدو الرحل فإنهم لم يسكنوا منازل ثابتة وإنّما سكنوا الخيام والأكواخ المتنقلة . وفي عهد الأسرة المصرية التاسعة عشرة كان الليبيون يستخدمون خيام الجلد التي كانت شائعة في فزان حتى وقت قريب . ولا بد أن الخيام ظلت مستعملة لوقت طويل بعد ذلك التاريخ . وبالإضافة للخيام كان الليبيون يسكنون أكواخاً متحركة عرفها الرومان باسم « مباليا أو مجاليا Mapalia, Magalia »[٢] وكانت هذه المباليا عبارة عن أكواخ متنقلة . وقد وصف هيرودوتس مساكن الناسامونيين « بأنها كانت تعمل من عروق البروق[٣] أو من القصب المشدود بعضه إلى بعض » . وكان نقل هذه الأكواخ من مكان لآخر[٤] أمراً سهلاً لأنها لم تكن في الواقع سوى حواجز خفيفة تقي ساكنها من الشمس والريح . وكانت المباليا مستخدمة لدى النوميديين وفي داخل مارماريكا ولدى

١ Vischer, *Across the Sahara*, p. 38.
٢ لعل هذه التسمية من أصل بونيقي .
٣ البروق (asphodel) نبات من الفصيلة الزنبقية يرد ذكره كثيراً في الأساطير اليونانية .
٤ Herodotus, iv, p. 305.

الرعاة الإفريقيين بصورة عامة ممّا يدل على مدى انتشار هذا النوع من المساكن المتنقلة ليس في ليبيا وحدها وإنّما في الشمال الإفريقي بأسره . وفي زمن الحروب البونيقية لم يكن لدى الجنود النوميديين في الميدان أي مأوى غير هذه الأكواخ[١] ولهذا السبب تمكن القائد الروماني سكيبيو أفريكانوس « Scipio Africanus » في إحدى المناسبات من إحراق معسكر سيفاكس « Syphax »[٢] النوميدي .

ولا شك أن شكل المباليا كان يختلف من منطقة لأخرى ومن بنّاء لآخر فقد كانت المباليا النوميدية أشبه بشكل القوارب المقلوبة وكان يدعمها من الداخل عصي أو أعمدة خشبية مغروسة في الأرض . وأغلب الظن أنها كانت شديدة الشبه بأكواخ منطقة طرابلس . وبعض الأكواخ كان شبيهاً بالأفران ولعل هذا النوع هو الذي تظهر أشكاله في الفسيفساء التي اكتشفت في موقع « العالية » بتونس . وتمثل هذه الفسيفساء مشهدين من النيل ولكن فنّان الشمال الإفريقي

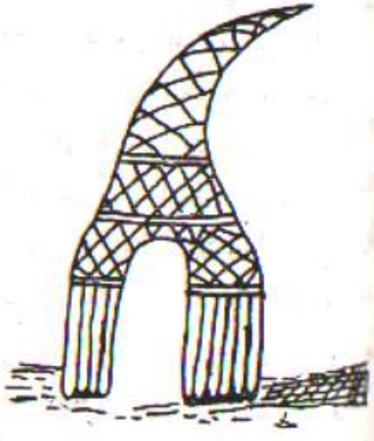

(٤٦) كوخ مباليا
عن : أوريك بيتس

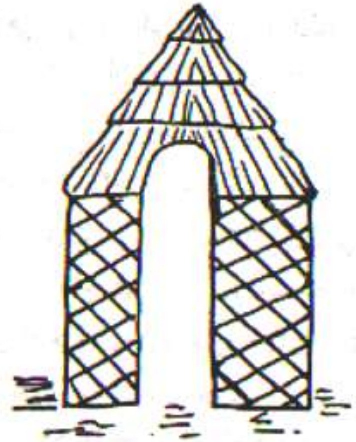

(٤٧) كوخ مباليا
عن : أوريك بيتس

١ Livy, xxx. 3.
٢ Ibid., xxx. 5.

زين المشهدين بصور أكواخ من الواضح أنها كانت مباليا . وقد عملت هذه الأكواخ بشد عدد من العصي إلى بعضها البعض ثم وضع فوقها سقف من الأغصان المنسوجة . ويتخذ هذا السقف شكل مخروط يستطيل ويستدق عند نهايته العليا بشكل لافت للأنظار . ولعلّ الغاية من هذه النهاية المستطيلة المنحنية كانت امتصاص الدخان . وهنالك نوع آخر من المباليا كان جداره الدائري يتكون من الوتل[1] وسقفه المخروطي من القش المنسوج . ونستطيع بصورة عامة أن نصنّف هذه الأكواخ إلى صنفين : الأول يشبه النوع الذي كان سائداً في منطقة طرابلس وكانت مصطبته أشبه بالمقطع الطولي لخيارة كما أن سقفه كان من الوتل وكان مقوساً أو منحنياً ، والثاني هو النوع الذي يتمثل في الشكل (٤٧) وكانت مصطبته دائرية وسقفه مخروطياً .

أما المنازل الليبية الثابتة فقد كانت في الواحات وقد ذكر كل من هيرودوتس[2] وبلايني أن هذه المنازل كانت تبنى من الملح وهو وصف من السهل أن يكون مضللاً خاصة إذا قارنا هذه المنازل بالمنازل التي ما زالت شائعة في واحة سيوة وهي تبنى بدعائم من جذوع النخل والحجارة وملاط من الطين والملح .

ولا بد أن الليبيين شيدوا الآبار وخزانات المياه في وقت مبكر من تاريخهم ، فقد ذكر هيرودوتس أن البسلّي كانوا يجمعون مياههم في خزانات كما أن الأعداد الكثيرة من الخزانات والآبار التي يصادفها المرء على طول الشمال الإفريقي من مصر إلى تونس ، وإن كان يغلب على بنائها الطراز الروماني ، لا بد أن أصولها كانت أقدم منها بكثير . وتوجد مخازن الحبوب في أماكن متفرقة من ليبيا ولكن من الصعب أن نقرّر ما إذا كانت ليبية أو إغريقية أو رومانية لأنها مجرد حفر في الصخور على أشكال مكعبة أو على شكل الزجاجة . وتثبت وجودها في ليبيا آثارها من ناحية والمصادر الكلاسيكية من ناحية أخرى . فقد ذكر مؤرخ حروب

---

١ قضبان تضفر مع الأغصان والقصب لإنشاء الأسيجة أو الجدران والسقوف = Wattle

٢ Herodotus, iv, p. 304.

يوليس قيصر في إفريقيا « أنّه كان من عادة الإفريقيين أن يضعوا حبوبهم في مستودعات مقوسة تحت الأرض لحمايتها أثناء الحروب ، ولحمايتها من غارات الأعداء المفاجئة ، وقد وجد مخزن حبوب من هذا النوع في جزيرة بلاتيا بخليج بمبا ووجد مخزن آخر في مرسى سوسة (= أبولّونيا) .

الدين :

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها الديانة الليبية القديمة إلى ثلاث :

١ — مرحلة تقديس مظاهر الطبيعة والاعتقاد أن لها أرواحا ،

٢ — مرحلة الإيمان بالأخرويات من بعث وحساب ،

٣ — المرحلة اللاهوتية .

المرحلة الأولى :

في هذه المرحلة كانت المعتقدات الدينية التي عرفها الليبيون من النوع البدائي البسيط المتعلق بعبادة الحيوانات وتقديسها شأنهم في ذلك شأن كل الشعوب في مراحل تاريخها البدائي . فقد كان ابن الشمال الإفريقي البدائي في المرحلة المبكرة من تاريخه يشعر بأن العالم مليء بالقوى الروحانية وبأن كل ظاهرة من ظواهره الطبيعية مليئة بتلك القوى كذلك . وهكذا فإن الآبار والأشجار والتلال والسحب والعواصف . . . الخ كانت تسكنها ، في نظره ، أرواح أعطت كلاًّ منها الطابع الذي يميزه عن غيره . وحتى بعد مضي زمن ليس بقصير وبعد أن حلت محل هذه العقائد مفاهيم أخرى أوسع منها وأعمق ، فإن العقائد الأولى بقيت تسيطر على عقول الجماهير . ففي العصر الكلاسيكي نجد أن نافورة الشمس في سيوة لفتت أنظار عدد كبير من الكتاب فعزوا إليها صفات حرارية ربما كانت تتوافر فيها كما عزوا إلى لونها كثرة التغير والتقلب ؛ وهي صفات من

المؤكد أنها لم تكن فيه [1] . ومن المحتمل أن النافورة الرائعة في قورينة ، وهي التي كرست لأبولُّو بعد نزول الإغريق في ذلك المكان ، كانت تحظى بكثير من الاحترام والتقديس قبل العصر الإغريقي . وكان الليبيون في العصر الكلاسيكي يعتقدون أن الحجارة الكبيرة كانت تسكنها الأرواح . وقد ذكر پلايني [2] نقلاً عن ميلا [3] أن ليبيي سيوة كانوا يقدسون حجراً من هذا النوع في تلك الواحة وكانوا يعتقدون أنّه إن تجرأ أحدهم ولمسه بيده فإن ذلك كان يؤدي فوراً إلى قيام عاصفة رملية مهلكة تعصف بالواحة .

وبالإضافة للحجارة كان الليبيون في العصر الكلاسيكي يقدسون التلال — وكانوا يعتقدون أن لكل تلّة روحاً توافيها بكل ما تقف عليه هي من معلومات — وهذه النظرة ذاتها كانت تتجسم بشكل أوضح لدى سكان المناطق الجبلية إلى الغرب من ليبيا ؛ فقد ذكر پلايني أن الخشوع الديني كان يملأ قلوب من يقتربون منهم من جبل أطلس خاصة عندما كانوا يشاهدون قمته المرتفعة فوق السحاب إلى درجة تجعلها تبدو قاب قوسين من القمر نفسه [4] . وقد ذكر الجغرافي الروماني ميلا في حديثه عن حجر سيوة الذي سبقت الإشارة إليه « أن ذلك الحجر كانت قدسيته في الأذهان مرتبطة بتقديس الريح الجنوبية (القبلي) ، فإذا ما تجرأ أي إنسان ولمسه بيده كانت الريح الجنوبية تهب من فورها وتقذف الرمل في كل مكان كالمطر ويسمع لها هدير كأنّه هدير الأمواج » . وإذا ما أضفنا بعض القرائن الأخرى لقول ميلا هذا فإنّنا سنستنتج دون ريب أن الليبيين كانوا يعتقدون أن الريح الجنوبية ذات طبيعة روحانية ، وهذه عقيدة كانت متعمقة في عقل البربر إلى حد أنها دامت حتى الوقت الحاضر . وهذه مسألة تذكرنا بما سبق أن سمعناه من هيرودوتس من أن البسلّي إنّما قضت عليهم ريح جنوبية

١ Herodotus, iv, p. 303 & Diodorus Siculus xvii. 50.
٢ Pliny, ii, 45.
٣ Mela, i.8.
٤ Pliny, v. 1

ظلت تعصف باستمرار حتى جففت مياه خزاناتهم ممّا حملهم على إعلان الحرب عليها ، على حد ما رواه الليبيون لهيرودوتس ، فساروا في الصحراء حيث هبت عليهم ريح من الجنوب فقضت عليهم بما كانت تحمله من رمال [1] . وهذه الأسطورة تذكرنا بأسطورة أخرى تتعلق بالحملة التي كان قمبيز الثالث الفارسي قد بعث بها ضد سيوة . وقد روى هيرودوتس نفسه أن الفرس زحفوا من طيبة بمصر حتى بلغوا واحة الخارجة بسلام . وبعد ذلك « لم يعرف عنهم أي شيء سوى ما ذكره أهل سيوة ومن نقلوا معلوماتهم عنهم » . فالجيش الفارسي لم يصل سيوة ولم يعد لمصر لأن المصيبة حلت به ، كما تقول رواية أهل سيوة ، عند نقطة في منتصف الطريق بين واحة الخارجة وواحة سيوة . فبينما كان الفرس يتناولون وجبة الغداء هبت عليهم من الجنوب ريح عاتية مهلكة تحمل معها أعمدة ضخمة من زوابع الرمال فدفنتهم كلية . ومن الواضح أن الشك يرجح على اليقين بالنسبة للقصة الأولى وهو أيضاً محتمل بالنسبة للقصة الثانية . أما قصة البسلي الحقيقية فتتلخص ، على ما يبدو ، في أنهم تراجعوا جنوباً مبتعدين عن الشاطىء تحت ضغط الناسامونيين الذين استولوا على ديارهم فكان في ذلك التراجع هلاكهم في الصحراء . وفي الحديث عن قصة الحملة الفارسية إلى سيوة لا بد أن نلاحظ أن مسألة هبوب عاصفة رملية تغمر جيشاً بأجمعه هي مسألة ليس لها نظير في التاريخ الحديث . وقد تكون حدثت فعلاً في ذلك الزمن القديم ولكن يغلب على الظن أن يكون الفرس قد ضلوا طريقهم خلال عاصفة رملية عادية فدب الذعر في قلوبهم ممّا حملهم على قتل أدلائهم ، أو حمل أدلاءهم على مغادرتهم فتاهوا بعد ذلك في الصحراء واستمروا يضربون في جنباتها على غير هدى حتى ماتوا عطشاً . ومهما يكن الأصل التاريخي لهاتين القصتين فإن هنالك أمرين

١ Herodotus, iv, p. 301. According to Nonnus (Dionysiaca, xiii — 381) the expedition of the Psylli was made by sea (!) and the ships were sunk by tempests from the south.

يتعلقان بهما لا بد من ملاحظتهما وهما :

١ – أن هيرودوتس في روايته للقصتين إنّما يسجل ما سمعه من الليبيين أنفسهم ؛

٢ – أن الإساءة للريح الجنوبية في إحدى القصتين ، ولعبد شيوة الصحراوي في الأخرى هي التي يفترض أنها جرت العقاب على المسيء بعواصف رملية عاتية أثارتها ريح الجنوب .

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن مسألة الاعتقاد بوجود أرواح في الرياح ما زالت سائدة في أيامنا هذه بين سواد الشعوب العربية ، فأنا شخصياً ما زلت أذكر أن الناس في الريف الفلسطيني يعتقدون أن الزوبعة « الفرتينة » إنّما تحدث نتيجة قتال بين الشياطين ؛ ولذلك فهم يخاطبونها كلما ثارت قريباً منهم بقولهم « على الظالمين والقوم الكافرين » إيماناً منهم أن ذلك الخطاب يجنبهم شرها وشرّ شياطينها من ناحية ، ويصرف ذلك الشر إلى الظالمين والكفار من ناحية أخرى . ولا شك أن فكرة مشابهة فيما يتعلق برياح « القبلي » لا تزال سائدة في الريف الليبي ، كما أن الناس ، في صعيد مصر ما زالوا يعتقدون أن الزوبعة إنما تثور في أعقاب طيران أحد الشياطين أو الجن الفاسقين .

ولا شك أن الليبيين القدماء كانوا يعتقدون كذلك بوجود أرواح في قوس القزح وفي السراب وفي النجوم ، وأدى بهم ذلك الاعتقاد إلى عبادتها وتقديسها[1] .

١ انظر أيضاً : ليبيا القديمة ، نشرة حولية تصدرها الإدارة العامة للآثار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا ، وزارة التربية والتعليم ، المجلدين الثالث والرابع ، ١٩٦٦ – ١٩٦٧ ، ص. ١٠٥ – ١٠٦ حيث يقول فروبينيوس إن نقوش القرون التي تم اكتشافها في فزان إنما تهدف إلى أغراض رمزية ، وإنها تشير إلى الضوء ، وفي اعتقاده أن ثمة صلة تربط بين فكرة استعمال القرون في عصور ما قبل التاريخ واستعمالها الرمزي فيما بعد في ثقافات أخرى . وهو يرى أن تلك الصلة بين القرون من جهة والقمر والشمس والنور من جهة أخرى تبدو واضحة في النقاط التالية

أ إبراز القرون على هيئة هلال .

ب إضافة الهلال إلى رسم القرون .

وهذا الاعتقاد بوجود أرواح في الظواهر الطبيعية المختلفة إنما هو نتيجة لتفاعلهم ببيئتهم الطبيعية ذات الصحراء الواسعة الممتدة والسماء العالية الصافية مما يجعل تلك الظواهر تتجسم هنا أكثر منها في أي مكان آخر ؛ فالنجوم مثلاً تبدو هنا أكبر حجماً وأكثر تألقاً ، وكذلك الحال بالنسبة للشمس والقمر . والليبيون ليسوا وحدهم في ذلك الموقف الخاص بعبادة ظواهر الطبيعة فقد شاركهم فيه العرب الساميون في شبه جزيرة العرب ، والحاميون في إفريقيا الشرقية .

أمّا بالنسبة للمحرمات من المأكولات فقد ذكر هيرودوتس أن بعض الليبيين كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحم البقر تقديساً للإلهة المصرية إيزيس التي كانت البقرة رمزاً لها ، وحتّى من تأغرقوا منهم في قورينة كانوا يسلكون سلوكاً مشابهاً . وزيادة على ذلك فإن نساء مدينة برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر فقط بل حرمن على أنفسهن أكل لحم الخنزير كذلك . وبالإضافة إلى هذا يبدو أن لحم الكلب كان محرماً ؛ فكان لا يجوز أكله إلا في حالات معينة ولأسباب خاصة . وبالرغم من أنّه كان يعرض للبيع في أسواق الشمال الإفريقي في القرون الوسطى إلا أن أكله كان يرتبط بخرافات شائعة يستدل من طبيعتها على أنها

ج وضع القرن على هيئة دائرة ، وإن كان من الصعب تحديد ما إذا كانت تلك الدائرة ترمز للشمس أو للقمر .

د إضافة خطوط على هيئة شعاع قد يكون رمزاً لأشعة الشمس .

ه إضافة زخارف ترمز لأشعة الشمس من مثل الصليب بأشكاله المختلفة .

وهو يرى أن النماذج المختلفة ربما كانت تشير إلى أن الناس كانوا يحاولون أن يربطوا بين الأرض وقوى الفضاء التي تعذر عليهم فهم ماهيتها . ويرى كذلك أن الآلهة والأجرام السماوية والحيوانات ذات القرون ربما كانت تكون ثالوثاً رمزياً فيما قبل التاريخ مما جعل القرن يصبح فيما بعد أحد رموز القوة الروحية . ولقد تكهن البعض بأن القرن أصبح يمثل النور على الأرض نظراً للشبه القائم بينه وبين الهلال ، ونظراً لخاصته الهجومية الدفاعية مما شجع الاعتقاد أنه منبع القوة والحياة وعندما أصبحت الماشية من أهم مصادر الغذاء ، أصبح القرن يرمز أيضاً للخصوبة والتوالد بالإضافة إلى الاستمرار في استعماله كعنصر فني. ومن ناحية أخرى فربما كانت له دلالة سحرية؛ فنحن ما زلنا نرى بعض الريفيين يعلقون العظام والقرون على أطفالهم لتكون رُقّى لهم .

وضعت في أوقات قديمة كان لحم الكلب فيها محرماً .

وفي مجال التنجيم والعرافة والسحر عرف عن أبناء الشمال الإفريقي أنهم كانوا ماهرين في التنجيم في العصر الروماني . وكما هي الحال بالنسبة لمعظم الشعوب البدائية الأخرى كان المنجم في أغلب الحالات امرأة وليس رجلاً . ومن الثابت بالنسبة لليبيين أن المنجم أو المنجمة كان في بعض الحالات يستلقي عند قبر أحد أسلافه مستعيناً به على كشف المستقبل ثم يفيق وقد رأى رؤيا يعتبرها وحياً من سلفه . وفي أوجلة بالذات كانت أرواح السلف المؤلهين تعتبر ذات صلة بالسماء ، وكانت تستشار بطريقة مشابهة أي عن طريق النوم والأحلام[1] . وقد اعتبر هيرودوتس هذه العادة شائعة بين الناساموتيين عامة حين قال : « إنهم كانوا يستعينون على التنبؤ بالمستقبل بالذهاب إلى قبور أجدادهم والنوم عليها ثم يتصرفون وفقاً لما يرونه من أحلام هناك »[2] . ويذكر أوريك بيتس[3] أن نساء الطوارق في قرية الأصنام قرب غدامس كن في مطلع القرن الحالي يرتدين أجمل ملابسهن ثم يذهبن إلى بعض القبور المشهورة مثل قبر « الزبار Zabbar » حيث ينادين الروح الساكنة بين القبور والتي يعرفنها باسم « إديبني Idebni »[4] فتظهر لهن على شكل عملاق ضخم عيناه بحجم عيني الجمل وتجيب على أسئلتهن التي لم تكن تعدو الاستفسار عن زوج أو قريب أو حبيب غائب . ويرى بيتس أن هذه العادة توضح وتؤكد ما ذهب إليه كل من ميلا وهيرودوتس .

ولقد مارس الليبيون القدماء السحر بنوعيه الأبيض والأسود . ويذكر بهذه المناسبة ما أحرزه المغاربة إجمالاً من الشهرة بالسحر في مختلف أرجاء العالم

1 Mela, i.8.
2 Herodotus, iv pp 300 — 301.
3 Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St. London, 1914, p. 178.
4 هذه الكلمة بلغة الطوارق تعني القبر — Idebni

الإسلامي . فقد ذكر نيقولاوس الدمشقي « Nicolaus Damascenus »[1] نوعاً من السحر كانت تشترك في ممارسته قبيلة كاملة عندما قال إن ليبيين معينين كانوا يقيمون حفلاً سنوياً ينتهي مع غياب الثريا . وآنذاك كانت الأنوار تطفأ ويمارس المشتركون في الحفل العملية الجنسية مع المشتركات كيفما اتفق . ويقول أوريك بيتس[2] في تعليقه على هذا القول : « إن هذا العمل رغم بربريته كان دون شك يخدم غاية دينية هي تأمين محصولات وافرة » .

ويشير هيرودوتس[3] إلى عادة التعاهد عند الناساموتيين فيقول إنهم كانوا عند إبرام العقود يتبادلون الماء فيسقي كل من الفريقين الفريق الآخر بيده ، فإن لم يوجد الماء استعاضوا عنه بالتراب بحيث يأخذ كل من الفريقين شيئاً من التراب في راحة يده فيلعق الفريق الآخر شيئاً منه بلسانه . ويبدو أن غايتهم من ذلك كانت تثبيت الفريقين المتعاهدين على الوفاء بالعهد لاعتقادهم أن من نقضه بعد إبرامه على تلك الصورة سيقع فريسة لمرض عضال لا نجاة له منه . ولقد مارس الليبيون القدماء السحر من أجل استنزال المطر كما مارسه البسلي الليبيون كحواة للأفاعي ، فقد كان الاعتقاد السائد هو أن هؤلاء القوم يتحلون بقدرة عجيبة على سحر الأفاعي ومعالجة عضاتها على نحو ما هي الحال في وقتنا هذا بالنسبة لأصحاب طريقة سيدي الرفاعي في مصر وغيرها . وكان من المعتقد أن ريق البسلي يشفي من عضة الأفعى السامة . ولذلك يقول پلايني عنهم : « إن في أجسام هؤلاء القوم نوعاً من السم الطبيعي القاتل للأفاعي[4] فإذا تعرضت الأفعى لرائحته تخدرت إلى حين ثم ماتت » . وكانت عادتهم أن يعرضوا الطفل بعد ولادته مباشرة لأشرس الأفاعي ، فإذا تجنبته الأفعى كان ذلك إثباتاً لصحة نسبه

1 Nicolaus Damascenus, Frag. 135 in F.H.G.
2 Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St Martin's St., London, 1914, p. 178.
3 Herodotus iv, p. 300.
4 ما زلت أذكر اعتقاد الناس في الريف الفلسطيني أن ريق الإنسان هو بمثابة السم القاتل للأفاعي .

إلى والده من ناحية وإثباتاً لعدم خيانة الزوجة «أم ذلك الطفل» لزوجها من الناحية الأخرى. ومع أن پلايني لم يترك لنا وصفاً لتفاصيل أسلوب هؤلاء القوم في العلاج من عضة الأفعى، إلا أن قوله «إنهم كانوا يدهنون موضع العضة بريقهم» يشير إلى الطابع السحري الذي كان يتصف به أسلوبهم في العلاج. ومن المعروف أن الپسلّي كانوا يُستخدمون في العصر الكلاسيكي كأطباء لمعالجة عضة الأفعى السامة ولدغة العقرب[1] ولعل أشهر مناسبة استعين فيها بخدماتهم دون جدوى هي عندما دعاهم أكتاڤيوس ليحاولوا إنقاذ كليوپترة إثر إقدامها على الانتحار باستخدام أفعى سامة. ومن أجل هذا الغرض نفسه رافق عدد من الپسلي جيش كاتو في مسيرته عبر منطقة خليج سرت الكبير. ويصف لنا كالياس السراقوسي[2] بوضوح أسلوب الپسلي في علاج عضة الأفعى السامة عندما يقول إن الواحد منهم كان يعالج حالة التسمم البسيطة الناجمة عن عضة الأفعى بأن يبصق في الجرح الذي أحدثته العضة، أمّا في الحالات الخطرة فإنّه كان يتمضمض بشيء من الماء ثم يفرغه من فمه في فنجان ويسقيه للمصاب، فإذا لم ينجح هذا العلاج تجرد الپسلي والمصاب من ملابسهما واستلقيا متلاصقين إلى أن يتغلب الپسلّي بما أودع فيه من قوى عجيبة على آثار السم. ومن الواضح أن هذا الوصف يدل على عادة سحرية موقرة كان يتوارثها الأبناء في هذه القبيلة عن الآباء. ويبدو أن هذا النوع من السحر لم يلبث أن تحول إلى مجرد وسيلة لابتزاز الأموال.

وبالنسبة للسحر الأسود فإن أوريك بيتس[3] يعرب عن اعتقاده أن «الإصابة بالعين» ليست موروثة عن العرب فقط وإنّما أيضاً عن قدماء البربر. وقد روى پلايني نقلاً عن اثنين من الكتّاب الإغريق «أن أسراً إفريقية معينة من السحرة كانت تستطيع عن طريق الاستحسان وإظهار الإعجاب أن تسبب الموت للقطعان

١ Pliny, XI. 25.

٢ Callias Syracusanus, Frag. in F.H.G., Vol ii.

٣ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London 1914, pp 180 — 181.

والذبول للأشجار والموت للأطفال»[1]. ولقد سبق أن تعرضنا لمسألة استطلاع المستقبل بالنوم على قبور الأسلاف. ونحن نعرف أن لوسيوس أپوليوس (Lucius Apuleius)، الذي سنعرض لقصته فيما بعد، قدم لمحكمة صبراتة بتهمة أنّه استخدم السحر الأسود ليحمل پدنتيلا (Pudentilla) على حبه والزواج منه. وقد مثل أمام المحكمة فعلاً في سنة ١٥٧ م. وقال في دفاعه عن نفسه: «أجيبوني أنتم، يا من تدّعون أن أپوليوس حاول أن يغوي روح پدنتيلا لتحبه بأن استخدم السحر الأسود...»[2]

المرحلة الثانية:

أما فيما يتعلق بعبادة أرواح الأسلاف المؤلهين فإنها تتضح في طريقة الدفن وفي النظرة للموتى. وفي الحديث عن طرق الدفن التي اتبعها الليبيون القدماء يقول هيرودوتس[3]: «إن الليبيين الرحـل، باستثناء الناسامونيين، كانوا يدفنون موتاهم على نحو ما يفعل الإغريق»، أي إنهم كانوا يضعون الجثمان في اللحد ممدوداً من الشرق إلى الغرب أو بالعكس. أما الناسامونيون فكانوا يوارون الجثمان وهو في وضع الجلوس. ولذلك فإن أصدقاء المحتضر الناساموني كانوا يساعدونه في لحظات حياته الأخيرة على البقاء جالساً حتى يفارق الحياة. ويضيف الشاعر سيليوس الإيطالي أن الناسامونيين كانوا أيضاً يتخلصون من موتاهم بإلقائهم في البحر كما يذكر في الإشارة للجرامنتيين أنهم كانوا يدفنون موتاهم في حفر رملية قليلة العمق. وقد عرف الليبيون كذلك دفن الموتى تحت كومة من التراب يسهل معها تمييز القبر. والجدير بالملاحظة هو أن عادة الدفن كانت شائعة بين الليبيين عموماً؛ أما الحرق فلم يرد له ذكر سوى في حالة واحدة ذكرها

١ Pliny, vii — 2, on the authority of Isogonus and Nymphodorus.

٢ Ward, Philip, *Apuleius on Trial at Sabratha*, the Oleander Press, London, 1968. p. 13.

٣ Herodotus, iv, p. 305.

سيليوس الإيطالي في معرض وصفه لجنازة الأميرة أسبتي (Asbyte) [1] وأنواع الدفن التي ذكرت هي :

١ – دفن الجثة ممدودة .

٢ – الدفن بإلقاء الجثة في البحر .

٣ – دفن الجثة وهي في وضع الجلوس .

٤ – الدفن تحت كومة تراب تذكارية .

وربما كانت عادة دفن الجثة ممدودة ، كما لاحظ هيرودوتس ، شائعة بين الليبيين المتأغرقين في منطقة برقة ، ذلك أننا نجد هيرودوتس يلاحظ عادة أخرى بمجرد وصوله للناسامونيين حول خليج سرت الكبير .

أما عادة الناسامونيين في إلقاء الجثة في البحر فربما كانت ناشئة من أصول نبعت في وقت لاحق كأن يكون الناسامونيون اقتبسوها مثلاً عمن احتكوا بهم من الغزاة من أقوام ما وراء البحر ، أو إنها كانت ناجمة عن عرفان الناسامونيين بالجميل لهذا البحر الذي طالما زودهم بالكثير من خيراته .

ولكن طريقة دفن الجثة وهي في وضع الجلوس لم تكن مقصورة على الليبيين فقد كانت شائعة بين معظم شعوب القارة الإفريقية وبين الشعوب البدائية إجمالاً .

وجدير بالملاحظة أن اهتمام الليبيين القدماء اهتماماً فائقاً بدفن موتاهم إنما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بنوع من الحياة بعد الموت وإن لم يكن لدينا ما يثبت أنهم توصلوا لفكرة الحساب في الحياة الأخرى .

أما بالنسبة للكومة فإنما تدل على الطريقة التي كان الليبيون يميزون بها القبور ويخلدون بها ذكرى موتاهم . وقد كانوا يودعون الجثمان في لحد دائري أو بيضوي مصفح من الداخل بقطع رقيقة من الحجارة ومسقوف بها بارتفاع يقارب

١ Silius Italicus, De Bello Punico, ii. 263 sqq.

نصف المتر ، ثم يقيمون على ذلك اللحد كومة التراب التذكارية .

وقد كان الليبيون القدماء يسكبون بعض السوائل التي يقدمونها لموتاهم على قبور أولئك الموتى تكريماً لهم كما كانوا يزورون قبور مشاهير رؤسائهم من أجل تلك الغاية ذاتها . وخلاصة القول أن نظرة الليبيين القدماء عامة لموتاهم كانت نظرة دينية دون ريب . والذي يؤكد هذه النتيجة التي خلصنا إليها هو ليس فقط ما لمحناه سابقاً من نومهم على القبور بقصد استطلاع المستقبل بل الحلفان بالموتى أيضاً . فقد ذكر هيرودوتس أن الناساموني كان عندما يعقد يميناً ، يضع يده على قبر أحد الموتى ممن عرف في حياته بالعدل والصلاح ثم يقسم اليمين باسم صاحب ذلك القبر »[1] .

ولعل الحلفان باسم الأولياء والأنبياء بين المسلمين عامة في أيامنا هذه إنما هو صادر عن عاطفة مشابهة للعاطفة القديمة عند الليبيين ، تلك العاطفة التي جرتهم للحلفان بموتاهم . وهذا في الواقع يقيم الدليل على أنهم كانوا يؤمنون بوجود حياة أخرى[2] .

المرحلة الثالثة :

بعد المرحلة الثانية انتقل الليبيون إلى مرحلة دينية متطورة عرفوا فيها آلهة متعددة ذات أسماء وأشكال مختلفة نذكر منها ما يلي :

١ – **الإله آش « Ash »** : ذكر اسم هذا الإله الليبي في نقوش سحورع من الأسرة الخامسة ، ويستدل من الصورة التي يظهر عليها هذا الإله في النقوش المصرية أنه كان من الآلهة المهمة عند الليبيين منذ أيام الدولة المصرية القديمة .

١ Herodotus, iv, p. 300.

٢ تجدر الإشارة بهذا الصدد إلى نقشين رومانيين متأخرين وجدا على آثار غرزة وتظهر فيها الكتابات التي نقشها الأبناء تخليداً لذكرى آبائهم واختتموها برغبة غريبة فحواها أن يتمكن الموتى الذين تدل أسماؤهم على أنهم كانوا وطنيين ، من زيارة أحفادهم « وجعلهم مثلهم هم أنفسهم » .

وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف شيئاً عن طبيعته أو قدرته .

٢ – **الإلهة شاهيدد** « Shaheded » : لم يثبت أي شيء بالنسبة لهذا الاسم وإن كان البعض يعتقدون أنه اسم إلهة ليبية استناداً لما ورد على بعض الألواح التي وجدت في الدلتا وذكرت عليها أسماء بعض الليبيين المقيمين هناك .

٣ – **الإله سينيفيري** « Sinefere » : ذكر كوريبّوس « Corippus »[1] إلهاً بهذا الاسم قال إن الليبيين كانوا يعبدونه . ويستنتج مما كتبه كوريبّوس عن هذا الإله أنّه كان إله حرب قبلي بمعنى أنّه كان يساعد أتباعه في الحرب وفي السلم على أساس نزعة قبلية .

٤ – **إله البحر بوزايدن** « Poseidon » : ذكر هيرودوتس أن الإغريق أخذوا هذا الإله عن « الليبيين الذين كانوا دائماً يعبدونه ولقد انفردوا بين الشعوب القديمة بأن كان لهم دون سواهم إله بهذا الاسم »[2] . وتدل كلمة هيرودوتس هذه على أن ليبيي الساحل كان لهم في القرن الخامس قبل الميلاد إله بحر مشهور ذو طبيعة عامة . وكان هذا الإله يعبد بصورة خاصة حول بحيرة تريتونس (= شط الجريد بتونس) . ونحن لا نستطيع أن نقرّر ما إذا كان هذا الإله ليبي الأصل أم إنّه قدم إلى ليبيا مع أقوام البحر التي تحالفت مع الليبيين في غزو مصر .

٥ – **پسافون** « Psaphon » : يذكر ماكسيموس الصوراني[3] « Maximus Tyrius » أن رجلاً ليبياً اسمه پسافون كان يطمح إلى الألوهية . ومن أجل تحقيق غايته جمع عدداً كبيراً من الطيور الناطقة وعلمها أن تردد « الإله پسافون العظيم » ثم أطلقها فانتشرت في الأحراش وهي تتغنى بتلك الكلمات . واعتقد من سمعوها من الليبيين البسطاء أن تلك الأصوات كانت إلهية فبدأوا يقدمون القرابين للإله پسافون . ولعل هذه الأقصوصة إنما هي محاولة متأخرة من جانب

١ Corripus, Johannis, iv. 681.

٢ Herodotus, II, p. 123.

٣ Maximus Tyrius, Dissertat — XIX.

الكاتب لتفسير أسباب عبادة هذا الإله . وجدير بالذكر أنّه لم تتوافر أية بينات أخرى بهذا الصدد .

٦ – **إله الشمس** : لقد سبقت الإشارة إلى أن بعض علامات الوشم التي وجدت على رسوم الليبيين في النقوش المصرية كانت ذات مغزى ديني . ونضيف هنا أن علامات الوشم المصلبة التي ما زالت توجد بين البربر الليبيين حتى اليوم ، إنما كانت تشير إلى عبادة الليبيين القدماء للشمس باعتبار الصليب رمزاً لأشعتها . ومن المعروف أن عبادة الشمس كانت شائعة بين الليبيين عامة فقد ذكر هيرودوتس أن الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس وللقمر[1] . وهو يصف كيفية تقديمهم القرابين بقوله : « الطقوس التي يتبعها الليبيون الرحل . . . هي كما يلي : إنهم يبدأون بأذن الأضحية فيقطعونها ويرمونها فوق مسكنهم . وبعد الفراغ من هذا الطقس يقتلون الحيوان بليّ رقبته . وهم يقدمون القرابين للشمس والقمر فقط وليس لأي إله آخر . وهذه العبادة يشترك فيها الليبيون جميعاً . أما المقيمون منهم حول بحيرة تريتونس فإنهم بالإضافة للشمس والقمر يعبدون الإلهة تريتون والإله بوزايدن والإلهة أثينا بشكل خاص » . وقد أيدت المصادر المختلفة عبادة الليبيين للشمس فقد وجدت في سيوة نافورة مكرسة للشمس كما أن ابن خلدون ذكر أن البربر بصفة عامة كانوا في الزمن القديم يعبدون الشمس ، بينما ذكر آخرون أن الليبيين كانوا يعبدون الشمس الغاربة باسم هامون « Hammon »[2] . والاسم الوحيد المعروف لإله الشمس الليبي هو جرزل « Gurzil » . وهذا الاسم هو ما حفظه لنا كوريبّوس[3] . وهذا الإله يظهر محبوباً للغاية بين رجال القبائل فكاهنه « يرنا Ierna » يحارب ببسالة في المعارك كما ان الليبيين يحملون رمزه في وطيس المعركة . وهم يعتبرونه من نسل إله النبوءات في واحة سيوة ،

١ Herodotus, iv, p. 305. He has already excepted the Atarantes of the West, by saying that they cursed the sun for its wasting heat (iv. p. 304).

٢ Macrobius, Saturnalia, i. 21.

٣ Corippus, Johannis, ii - 109, 405, iv. 665, 683, 1139, iv. 116, vii 304, 619.

وكان هذا الأخير عبارة عن كبش ذي قرون وقد عرف فيما بعد بارتباطه الوثيق بالإله آمون طيبة المصري لأسباب سنبينها فيما بعد . وكان شكل جرزل شكل الثور ولعل تمثيل إله الشمس على هذا النحو نابع من قوة الشمس وروعتها ومزج هاتين الصفتين بقوة الثور وجماله . ويقابل هذه الظاهرة لدى الليبيين ظاهرة التقديس الذي كان يضفيه أهل هليوبولس في مصر على إله الشمس « الثور المقدس » . ولقد وجدت على قاعدة مصباح روماني من القرن الميلادي الأول صورة رأس يظهر أنه رأس جرزل ، كما وجد في القنيصية رأس منحوت نحتاً غير متقن يجمع بين صفات آمون وجرزل ، ذلك أن له قرني الثور المقدس وقرني الكبش المقدس في آن واحد . ولا بد أن عبادة جرزل امتدت زمناً طويلاً في ليبيا فنحن نجد البكري يكتب في القرن الحادي عشر الميلادي أن قبائل متعددة في منطقة طرابلس من بينها قبيلة هوارة كانت تقدم الصلوات لصنم من الحجر أقيم على رابية وكان اسمه « كرزا » وذلك من أجل حماية قطعانها . وموضع هذا الصنم والغرض من الصلاة والتقارب في الاسم ، تشير جميعاً إلى أن المقصود بهذا الصنم هو جرزل .

نستنتج مما سبق أن أصل جرزل ، إله الشمس ، ينبع من تشخيص الظواهر الطبيعية وعبادتها منذ أقدم العصور وهو بذلك يشبه الإله الإغريقي هيليوس « Helius » . أما ظهوره في الحروب فربما كان يرجع إلى اعتبار أتباعه له حامياً لهم ومبدداً للظلام عنهم . وهم عندما كانوا يدعونه لحماية قطعانهم فإنما كانوا يدعونه باعتباره رب الثيران ، وهو على ذلك الاعتبار لا يمكن إلا أن يكون بطبيعته حامياً لقطعانها .

٧ – إله القمر : هذا هو الإله الوحيد الذي عبده الليبيون إلى جانب إله الشمس حسبما ذكر هيرودوتس[1] . وفي الحديث عن عبادة القمر في شمال

١ Heredotus iv, p. 305

إفريقيا نشير إلى ما سبق ذكره من أن لحم الخنزير كان محرماً في الشمال الإفريقي حسبما رواه هيرودوتس[1] من أن أحداً من الليبيين لم يكن يربي الخنازير ، وأن نساء برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر على أنفسهن بل حرمن لحم الخنزير كذلك . ونذكر بهذا الصدد أسطورتين ليبيتين قديمتين لما لهما من دلالة خاصة : الأولى تقول إن الناسامونيين الذين كانوا يعتبرون العقيق حجراً سماوي الأصل كانوا يخرجون للبحث عنه عندما يكون القمر بدراً . والثانية تقول إن الملح في سيوة كان يزداد أو ينقص تبعاً لازدياد القمر أو نقصانه – ولعل موقف المصريين القدماء من الخنزير يصلح لإلقاء بعض الضوء على موقف الليبيين القدماء منه ؛ فقد كان المصريون يحرمون لحم الخنزير تحريماً قاطعاً ويعتبرونه نجساً ، فإذا حدث أن لمسه أحدهم فقد كان عليه أن يسارع إلى نهر النيل ليغطس فيه بملابسه الكاملة تطهيراً لنفسه . وبالرغم من ذلك فإنهم كانوا يقدمون الخنزير قرباناً لإله القمر عندما يكون القمر بدراً ، وكان يتحتم على مقدم القربان أن يأكل من لحم الخنزير في هذه المناسبة وإن كان محرماً عليه حتى أن يذوقه في الأحوال الأخرى . وربما كان للتحريم الليبي للحم الخنزير طابعاً مماثلاً .

٨ – الإله زيوس آمون ، إله النبوءات :

يقدر بعض المؤرخين أن واحة سيوة ظلت ليبية حتى احتلها المصريون في منتصف القرن السادس قبل الميلاد . وعندما احتلوها وجدوا أن سكانها الليبيين كانوا يعبدون إلهاً مشهوراً لهم فأسماه المصريون زيوس آمون باسم رئيس الآلهة المصرية « آمون طيبة » . والأساطير التي تدور حول أصل الإله الليبي تقول إنه كان راعياً وإنه أهدى عدداً كبيراً من المواشي للإله ديونيسوس « Dionysus » فكافأه الأخير بأن أعطاه أرضاً في طيبة ورفعه إلى مرتبة الآلهة . وتقول أسطورة أخرى إن ديونيسوس أو هراكليس « Heracles » كان يعبر الصحراء الليبية

١ Ibid. 304.

في طريقه إلى الهند فاشتد به العطش مما دعاه إلى الاستغاثة بأبيه الإله زيوس فأرسل إليه كبشاً . هو كبش آمون المقدس — دله على نبع ماء . وفي أسطورة ثالثة أن بعض الرعاة وجدوا في المنطقة بين قرطاجة وقورينة طفلاً جالساً على الرمل وهو يضع على رأسه قرني كبش ويتفوّه بالنبوءات — وعندما رفعوه عن الرمل توقف عن الكلام ، فلما أعادوه إليه استأنف الكلام ، وهكذا . ولما اختفى فجأة عرف الرعاة طبيعته الإلهية وبدأوا يعبدونه باسم الإله زيوس آمون . ويقول ديودورس الصقلي[1] إن آمون كان ملكاً ليبياً أسطورياً كما أن عدداً من الكتاب الكلاسيكيين يشيرون بوضوح إلى أصله الليبي .

وهذه الأساطير إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى التقارب الوثيق الذي حدث في الأذهان بين الإلهين : آمون سيوة الليبي وآمون طيبة المصري . وليس على الآثار المصرية ما يثبت أن الإلهين صارا إلهاً واحداً في وقت من الأوقات . وصحيح أن موكباً يحمل رمز آمون طيبة كان يطوف أنحاء ليبيا مدة اثنَي عشر يوماً ولكن هذه العادة متأخرة وتتبع أصلاً من نفس مصدر الأساطير المذكورة آنفاً . وإذا نحن رجعنا لهيرودوتس فإنّا نلمح في كتابته تمييزاً واضحاً بين هذين الإلهين ؛ فهو دائماً يسمي الإله الليبي باسم زيوس آمون بينما يسمي الإله المصري آمون باسم زيوس طيبة ، وهو يظن أن أتباع زيوس في سيوة سموا إلههم زيوس آمون تأثراً بالتقليد المصري في تسمية إله طيبة زيوس آمون . ويؤيد هذا الفرق الذي أوضحه هيرودوتس أن قمبيز الثالث الفارسي أرسل حملة ضد زيوس آمون الليبي وأتباعه في سيوة لمحقه واسترقاق أتباعه بينما لم يتعرض أبداً للإله آمون المصري في طيبة ؛ وهذا التمييز في المعاملة له مغزاه في الدلالة على أن زيوس آمون الليبي في سيوة كان غير زيوس آمون في طيبة بمصر . وإذا صح افتراض المؤرخين أن سيوة لم تتبع لمصر إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد فإن من المشكوك

1 Diodorus Siculus. iii , 68.

فيه أن يصبح إلهٌ جديد قدم إلى سيوة مع الفاتحين ذا شهرة عظيمة واسعة مثل الشهرة التي كان يتمتع بها الإله زيوس آمون الليبي .

وهذا الإله كان إله نبوءات في الدرجة الأولى فلقد أحرز موحاه في سيوة شهرة عظيمة إلى حد أن أهالي أثينا كانوا يبعثون إليه بأسئلتهم ، كما أُقيمت له معابد في قورينة وفي أماكن متفرقة من بلاد اليونان ذاتها . ونحن ما زلنا نذكر الرحلة التي قام بها الاسكندر الكبير لمعبد هذا الإله في سيوة[1] .

وعلى هذا فإن آمون الليبي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن آمون المصري ؛ فقد كان الأول إله نبوءات في المرتبة الأولى بينما كان الآخر إله زراعة وحصاد قبل أن يصبح رئيساً للآلهة المصرية باسم آمون رع ، حامي الحمى ومانح البركات . وهو وإن كان له موحى إلا أنّه لم يبلغ من الشهرة كإله نبوءات ما بلغه آمون سيوة ؛ وما دام أن وظائفهما كانت متغايرة فإن أصليهما كانا متغايرين دون ريب . وفي الحديث عن هيئة الإله الليبي يقول أوريك بيتس[2] : «من المهم أن نلاحظ حالياً أن هذا الإله لم يكن مشخصاً في أعين أتباعه تشخيصاً بشرياً ولا حيوانيّاً» .

وكانت أجوبة آمون الليبي تنقل للمستفسرين بطريقة مشابهة للطريقة التي كان الليبيون يتبعونها عند الاستعانة بأسلافهم على استطلاع المستقبل أي بالأحلام التي كانت تعتبر وحياً . وكانت طريقة الاستشارة في سيوة تتم بحمل رمز الإله في موكب يطوف به حدائق النخيل المجاورة لمعبده . وفي هذا الموكب كان ثمانون من كهنة هذا الإله يحملون على أكتافهم مركباً ذا ثلاثة صوارٍ — وهو طقس يظهر فيه تأثير الإله المصري آمون رع — وعليه المعبد الذهبي الخاص بهذا الإله . وكان ذلك المركب يحلى بصحاف فضية تتدلى من حافة المركب العليا بينما كان

١ انظر قصة إنشاء موحى آمون في سيوة وشهرة هذا الموحى ص ٦٦١ — ٦٦٢ و ٦٦٤ — ٦٦٥ الملحق «ب» .

٢ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, p. 193.

تمثال الإله ذاته يحلى بالحجارة الكريمة . وكان يسير خلف حملة المركب موكب طويل من العذارى والعقائل وهن يرتّلن « ترانيم غريبة باللغة الليبية » من أجل كسب رضا الإله وإقناعه بإعطاء مستشيريه جواباً مرضياً . وكان الموكب يسير في الاتجاه الذي يبدي هذا الإله رغبته فيه . وبعد انتهاء هذا الاحتفال كان آمون سيوة يعطي جوابه بالإشارة على الأسئلة المطروحة عليه . وفي العصر الكلاسيكي كان أحد كهنته يفسّر تلك الإشارات . وكان ذلك الكاهن حراً في صوغ تلك الأجوبة شعراً على طريقة أرقى المواحي الإغريقية . وكان الرجال والنساء من أتباع هذا الإله يقومون بخدمته وعبادته فكانت النساء تشترك في مواكبه إلى جانب الرجال . وقد ذكر هيرودوتس في قصته القائلة إن أصل إله سيوة من طيبة بمصر – يلاحَظ ان القصة ذاتها من طيبة أيضاً – ان موحى هذا الإله في سيوة إنّما أسسته امرأة [1] .

ويقول أوريك بيتس [2] إن الحيوان المقدس لهذا الإله الليبي كان كبشاً ، وهذه حقيقة تلقفها المصريون بنهم لدى استيلائهم على سيوة لأن الحيوان المقدس لإلههم آمون طيبة كان الكبش أيضاً ، وذلك توافق يؤدي إلى تعزيز الروابط بين الإلهين .

وقد يشك المرء في أن تقديس أتباع آمون الليبي للكبش المقدس لدى المصريين إنما جاء نتيجة للأساليب والمؤثرات المصرية ولكن البينات المتوافرة بهذا الصدد تؤدي إلى استنتاج أن الكبش من الحيوانات المقدسة البارزة لدى الليبيين ؛ أي إن تقديس الليبيين لهذا الحيوان إنما هو ناتج عن دوافع أصيلة لا علاقة لها بتقديس المصريين للحيوان ذاته . أما كيف ارتبط تقديس هذا الحيوان بآمون سيوة فهي مسألة تسترعي النظر ويصعب تفسيرها ، وإن كان من المرجح أن النظرة السائدة

1 Herodotus, ii, pp. 124 — 125.

2 Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited, St. Martin's St., London, 1914, p. 195.

بخصوص آمون سيوة هي أنّه يمثل فقط مرحلة في عبادة الكبش الإله . وممّا يؤيد وجهة النظر هذه أن عبادة الكبش لم تكن شائعة في ليبيا فقط وإنما في جميع الشمال الإفريقي .

والمعروف أن الكبش البربري وجد في ليبيا منذ القدم وأن قوته وسرعته واستحالة الوصول إلى أماكن تجواله في المناطق الجبلية التي كان يتعشقها جعلت منه في نظر العقول البدائية حيواناً جديراً بالإعجاب والتقديس .

ويجوز لنا أن نقول إن عبادة آمون سيوة ظلت محلية حتّى اقترن هذا الإله في ذهن الناس بآمون طيبة المصري ، وآنئذاك شاعت عبادته وانتشرت على نطاق واسع في ليبيا . وممّا يدل على شيوعها على ذلك النحو كثرة الأماكن الليبية المسماة باسم هذا الإله فهنالك معبد آمون في أوجلة ، وتل آمون جنوبي بنغازي ، ومحطة آمون على ساحل خليج سرت الكبير ، ومحطة آمون قرب القوس الرخامي عند نصب الأخوين فيليني « Philænorum Aræ » ، ويقول أوريك بيتس [1] إن أهم تطور أجنبي طرأ على الإله الليبي – المصري آمون هو تبنّي قرطاجة له تحت اسم « بعل حامون » (Baal Hammon) . ويلاحظ بهذا الصدد أن عدم تسمية القرطاجيين لأبنائهم بأسماء مستمدة لهذا الإله كان ناجماً عن أن هذا الإله احتفظ لديهم بطبيعته الليبية كإله للأموات ممّا جعلهم يتشاءمون من تسمية أبنائهم باسم يتصل بالموت ، ويتجنبون بالتالي تسميتهم على ذلك النحو . ولقد وجد أن ثلاثة أرباع الألواح التي عثر على آلاف منها في قرطاجة كانت مكرّسة للإله « بعل حامون » والإلهة تانيت « Tanit » ؛ وهذا أمر مستغرب لأن المفروض في القرطاجيين الساميين أن يكرسوا مثل تلك الألواح لآلهتهم السامية الخالصة من أمثال بعليم وعشتار وإشمون وملكارت .

ولقد كان « بعل حامون » بالفعل شكلاً قرطاجياً من أشكال الإله الليبي –

1 Ibid. pp. 198 — 199.

المصري آمون ، يدل على ذلك شكله الذي يظهر أحياناً على هيئة الكبش المقدس أو على هيئة التماثيل التي وجدت له في المقابر البونيقية والتي تظهره وهو يلبس قرني الكبش . وفي حالة واحدة فقط من هذه الحالات لم يكن يلبس القرنين

(٤٨) كبش آمون (٤٩) (٥٠)

تماثيل آمون

عن : أوريك بيتس

ولكنه كان يحمل على ساعده الأيسر كبشاً قائماً . ويذكر بهذا الصدد أن مقدمات السفن القرطاجية كثيراً ما كانت تأخذ شكل إله رأسه رأس كبش . ويذكر سيليوس الإيطالي[١] في وصفه لمعركة بحرية بين القرطاجيين وأعدائهم أن قبطان إحدى السفن القرطاجية عندما رأى سفينته قد خرقت انتضى سكينته وطعن نفسه بها وقدم دمه قرباناً بسكبه بين قرني الكبش المقدس على مقدم سفينته . وفي المواقع الفينيقية في جزيرة سردينيا من مثل مستوطنة ثَرُّس « Tharrus » وجدت عدة تماثيل لرؤوس أكباش على الطراز المصري مستوردة عن طريق القرطاجيين مما يثبت أن « بعل حامون » القرطاجي إنما هو آمون الليبي ـ المصري . ولا يعرف إلى متى استمرت إفريقية القرطاجية تعبد هذا الإله وإن

١ Silius Italicus, De Bello Punico, XIV. 452 Sq.

كان يعتقد أن عبادته تلاشت إثر انتشار المسيحية في المنطقة .

وفي ليبيا ذاتها طرأ تطور جديد على طبيعة هذا الإله ؛ ذلك أن اتساع رقعة البلاد وغلبة الطبيعة الصحراوية عليها وصعوبة معرفة المسالك بين واحة وأخرى من واحاتها كانت جميعاً تستدعي وجود إله مواصلات يكون رفيقاً ودليلاً إلهياً للمسافرين . ولقد سبقت الإشارة إلى أسطورة تلقي بعض الضوء على هذا التطور في طبيعة هذا الإله وهي الأسطورة المتعلقة بسفر ديونيسوس (أو هراكليس) عبر الصحراء الليبية إلى الهند واشتداد الظمأ به ثم استغاثته بأبيه الإله زيوس ـ آمون الذي أغاثه بكبش حفر بقائمتيه الأماميتين حتى استخرج الماء . وهنالك أسطورة أخرى تشير إلى الإرشاد الإلهي وتتعلق برحلة الاسكندر المقدوني إلى سيوة . فقد وجد الاسكندر نفسه وجيشه ، بعد أيام من مغادرتهم الساحل ، وسط متاهة يستحيل عليهم الخروج منها . ولم يلبث ماؤهم أن نفد وكادوا يهلكون لولا أن تدخلت عناية آمون الربانية فجعلت السماء تمطر عليهم ما يبل ظمأهم ثم وجهت خطاهم حتى وصلوا سيوة وعادوا منها . وكان دليلهم في الحالتين زوج من الغربان وقيل من الأفاعي .

وفي تاريخ سيوة الذي ألفه شخص مجهول باللغة العربية قصة لها مغزاها بالنسبة لهذا الموضوع خلاصتها أن أحد حكام مصر قضى ببعض العقوبات على بعض أتباعه فهربوا من وجه العقاب إلى الصحراء وليس معهم إلاّ زاد قليل لم يلبث إلا قليلاً حتى نفد . وآنذاك رأوا كبشاً يركض مبتعداً بين التلال فساروا في أثره حتى وصلوا إلى مدينة مأهولة تحف بها البساتين والأشجار وتجري من تحتها الأنهار . وكان أهلها لا يدفعون أية ضرائب . وعندما سألهم القادمون عن البلد الذي ينتمون إليه أجابوا بأنهم لا علاقة لهم البتة بالعالم الخارجي ، وعاش هؤلاء الغرباء فترة طويلة في تلك المدينة ثم عادوا لمصر ، وحاولوا بعد ذلك أن يجدوا تلك المدينة الواحة ثانية دون جدوى . ولعل هذه القصة التي يظهر الكبش فيها دليلاً للمسافرين إنما هي واحدة من عدة قصص مشابهة لا بد أنها كانت متعددة

في وقت قديم ؛ وهي تدل على مدى عناية آمون الليبي ، إله التنبؤات في سيوة ، بالمسافرين في الصحراء .

٩ – إله السماء Deus Coelestis

أثبت أحد البحاثة الفرنسيين [1] وجود إله للسماء بين الليبيين القدماء . ولكنه كان إلهاً ذا طبيعة غامضة عامة . وأقدم مفهوم لليبيين عن السماء ، وهو مفهوم استمر سائداً حتى بداية القرن السابع قبل الميلاد ، هو أن السماء ، في نظرهم ، كانت عبارة عن سطح صلب معلق فوق الجو الأرضي . وقد أشار هيرودوتس إلى هذه الفكرة في سرده لقصة مساعدة الليبيين للإغريق في القدوم إلى موقع قورينة من أزيرس عندما قال إن الليبيين مدحوا ذلك الموقع للإغريق بقولهم « إن سماءه مثقوبة » [2] أي غالباً ما تمطر . ولكن المؤسف حقاً أنه لم توجد تفاصيل عن هذا الإله . ولعل أحسن ما يدل على طبيعته هو دراسة الإله زحل الذي شاعت عبادته في الشمال الإفريقي خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد . فقد وجدت على الألواح الخاصة بزحل رموز للظواهر السماوية مثل قرص الشمس والنجوم والهلال . وكان أبرز ما تتميز به طبيعته أنه كان أباً للسماوات وإلهاً للطقس . ولا بد أن إله السماء الليبي القديم كان يشبه زحل في طبيعته العامة من مثل حماية الزراعة والقطعان ، ولا بد كذلك أن أتباعه من قدماء الليبيين كانوا يقدمون له بواكير الفواكه من أعناب وتمور ، ثم زيت الزيتون والنبيذ وأكواز الصنوبر ، ثم الثيران والنعاج والبقر . وكان الليبيون يعتقدون أن إله السماء هذا ، وإن كان علياً عالمياً لا يموت ، كان يموت موتاً مؤقتاً في فصل الخريف ويحتفلون بانبعاثه في الربيع ؛ ولعل عادة أكل الثوم خلال أسبوع كامل من شهر أكتوبر –

١ بحث بعنوان Toutain, J., *De Saturni Dei in Africa Romana Cultu.*

٢ Herodotus, iv. p. 295.

تشرين الأول في سيوة ترجع إلى أصل قديم ناشئ عن الصيام حداداً على الموت المؤقت لهذا الإله .

١٠ – إلهة السماء « Dea Coelestis » :

كانت هذه الإلهة شريكة لإله السماء ومشابهة له في طبيعته . وقد التبس أمرها في أيام القرطاجيين بالإلهة القرطاجية تانيت . أما في العصر الروماني فقد عرفت باسم إلهة الأغذية « Dea Nutrix » .

١١ – أثينا إلهة الأوزيين :

عبد الأوزيون الليبيون حول بحيرة تريتونس إلهة أسماها هيرودوتس وغيره أثينا . وقد كان لها معبد عند الأوزيين ، ووصفها هيرودوتس كما يلي :

« تقيم عذارى الأوزيين احتفالاً سنوياً تكريماً للإلهة أثينا فيقفن في صفين متقابلين ويتراشقن بالحجارة والهراوات . وهن يقلن إن هذه العادة طقس موروث وإنهن يكرمن به إلهتهن التي هي نفس الإلهة الإغريقية أثينا . وإذا ماتت إحداهن بسبب ما يصيبها من جروح فإن الأوزيين كانوا يعتبرون أنها لم تكن عذراء حقيقة . وكان يسبق بدء ذلك الاحتفال طقس آخر هو اختيار أجمل واحدة بين العذارى المشتركات في الحفل . ومتى تم اختيارها فإنها كانت تلبس بحضور الجمهور خوذة كورنثية وبزة عسكرية إغريقية ثم تمتطي عربة حربية يقودونها بها في موكب يدور حول البحيرة . ويقول الأوزيون إن أثينا هي ابنة الإله بوزايدن ، إله بحيرة تريتونس ، ويقولون إنها تشاجرت مع أبيها واستغاثت بالإله زيوس فوافق على أن يعتبرها ابنة له فصارت كذلك » [1] .

١ قارن أيضاً برواية هيرودوتس هذه رواية ميلا (Mela i.7) الذي Herodotus iv, p. 302
لا يضيف جديداً لما ذكره هيرودوتس سوى قوله إن هذا الاحتفال السنوي كان يقام يوم عيد ميلاد الإلهة .

ويعلق أوريك بيتس[1] على رواية هيرودوتس هذه ثم يستخلص منها النتائج التالية :

١ – إن كون هذه الإلهة من نسل بوزايدن وتريتونس يمكن أن يعني أنها كانت إلهة بحر ، إلا أن ارتباطها بزيوس لا يؤيد هذه النتيجة . وإذن فإن التفسير الوحيد لطبيعتها هو أن نقول إنها لم تكن طبيعة محددة واضحة المعالم . ولذلك فإن من المنطقي أن نلحقها إما بإله السماء أو بإله البحر .

٢ – تشير الحفلة السنوية لهذه الإلهة إلى أنها كإله السماء كانت على علاقة بفصول السنة .

٣ – مراسم تسليح العذراء : إن اختيار أجمل العذارى وتسليحها على الطريقة الإغريقية الممتازة أمر له مغزاه ، فقد كانت هذه العذراء المسلحة ، الممتطية عربة حربية بمناسبة الاحتفال ، إنما تمثل الإلهة المحتفل بها والتي لا بد أنها كانت ذات صبغة حربية .

٤ – الموكب : كانت الإلهة ، ممثلة في شخص العذراء المذكورة ، تدور حول بحيرة تريتونس ومن خلفها موكب المحتفلين . وكانت الغاية من هذا الطقس استنزال بركات الإلهة على البلاد . وكانت مسيرة الموكب تختتم بالمبارزة التي سبقت الإشارة إليها والتي كانت بديلاً لتقديم القرابين .

٥ – المبارزة : هي المناورة الحربية التي كان الاحتفال يختتم بها ، وهي في الواقع ذات دلالة كبيرة على طبيعة هذه الإلهة . ونحن نلاحظ أن العذارى فقط كان يسمح لهن بالاشتراك في الحفل ، ومن ماتت منهن نتيجة لما أصابها من جروح أثناء هذه المناورة كان يفترض أنها إنما تلقت ما تستحقه من عقاب لمشاركتها في الاحتفال وهي تعلم أنها كانت فاقدة لعذريتها وأنه لا يجوز لغير

١ Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co. Limited. St. Matin's St., London, 1914, p. 204.

العذارى أن يشاركن فيه . ونحن نلحظ في هذه النظرة اهتماماً كبيراً بالعذرية ممّا يدل على أن طبيعة هذه الإلهة كان فيها جانب قوي من العذرية . وليس صعباً أن ندرك مغزى المبارزة ذاتها ، فمن الواضح أنها كانت أشبه بصلاة استسقاء وأنها كانت تمثيلاً للكفاح بين الجفاف والمطر . ومثل هذه الظاهرة بين الشعوب البدائية تفضي بنا إلى القول إنها كانت عند الأوزيين تهدف إلى إبعاد الشر واستجلاب الخير والبركة لأرض القبيلة . ولذلك فقد كان الاحتفال يختتم بها بقصد تأمين سقوط كميات وافرة من المطر في فصل الشتاء التالي .

كل ذلك يرجح الظن أن هذه الإلهة لا تمثل إلا مرحلة محلية من مراحل عبادة إلهة السماء التي سبق أن ذكرنا أنها شريكة لإله السماء . وعند هذا الحد نلمح ارتباطاً محتملاً بين كل من إلهة الأوزيين المرسلة للمطر وإلهة السماء الليبية بشكل عام وبين إلهة الدلتا الغربية في مصر وهي نيث « Neith » إلهة مدينة سيس « Sais » التي ألحقها عدد من الكتاب الحديثين بأثينا الأوزية . وقد عرفت عبادة نيث في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات ووصفت على تمثال محفوظ في الفاتيكان بأنها « أم الشمس » وبأنها « بدأت تنجب قبل أن تولد » . وقد ذكر بلوتارك أن معبد هذه الإلهة في سيس يحمل نقشاً ترجمته كما يلي : « أنا كل ما وجد وكل ما هو موجود وكل ما سيوجد ، ولم يكشف أحد طرف ردائي » .

ويؤكد المصريون وجود النص السابق ذاته منقوشاً على مدخل معبدها ويضيفون إلى ما ذكره بلوتارك « والثمرة التي جئت بها هي الشمس » .

ممّا تقدم يظهر أن نيث كانت أمّاً عظيمة للطبيعة تتصف بالعذرية ، وهذه الصفة هي التي حملت الإغريق على اعتبارها أثينا .

وفيما يلي بيان بأوجه الشبه بين الإلهة المصرية نيث والإلهة الأوزية أثينا وهما اللتان أسمى هيرودوتس كلاً منهما باسم أثينا :

أثينا مدينة سيس المصرية (نيث)	أثينا الأوزيين الليبيين
١ — إلهة السماء	إلهة السماء
٢ — الأم العذراء	عذريتها أكيدة ومهمة
٣ — إلهة النباتات	باعثة المطر
٤ — لها صبغة حربية مرحلية	تمثلها في حفلها عذراء مسلحة ويختم الحفل بمناورة حربية
٥ — شكلها شكل بقرة	لحم البقر محرم في ليبيا

ولقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين نظرية مفادها أن الإلهة نيث كانت إلهة ليبية لليبيين الذين كانوا يعيشون في مصر في عصر ما قبل الأسرات ثم اضطرت كما اضطروا هم أنفسهم إلى الرحيل إلى الشمال الغربي من مصر حيث استقرت واستقروا . والنظرية تتسم بالذكاء والمنطق ولكن لم يكتشف حتى الآن ما يؤيدها من الآثار. ومن المحتمل أن يكون هنالك نوع من الارتباط بين هاتين الإلهتين نظراً لظهور رمز الإلهة المصرية (⤫) وشماً على أجسام الأسرى الليبيين دون سواهم في نقوش موقع سيس الجغرافي في الدلتا الغربية .

الطابع العام للديانة الليبية القديمة

مما تقدم يتضح لنا أن الليبيين الذين بلغوا في الدين مرحلة تشخيص الآلهة كبشر ظلوا يتعلقون بقوة في عدد كبير من الأفكار الخاصة بألوهية الحيوانات ، ويظهر أن الديانة الليبية كانت إيقونية جزئياً وأنها كانت تتصف بالتنوع وبالميزات المحلية الكثيرة كما أنها كانت تخضع إجمالاً لأفكار قليلة بسيطة وشائعة في جميع الشمال الإفريقي . ولهذا فإنها جمعت بين السحر وعبادة عدد من آلهة طبيعتهم واضحة محددة وآخرين لم تعرف طبيعتهم إلا بشكل عام كإله السماء مثلاً . ولا شك أن الليبيين القدماء كانوا يتحلون بفهم عميق لوجود حياة أخرى بعد الموت .

ويبدو من طبيعة هذه الديانة أنها كانت من إبداع عنصر من الناس متفائل بالنسبة لهذه الحياة وللحياة الأخرى ، بعكس ما عليه الحال في أغلب الديانات الإفريقية القديمة . وإذا استثنينا أبسط العقائد فليس لدينا من البينات ما يبرر القول إن الديانة الليبية القديمة كانت ديانة عقائدية ، فقد كانت بإيجاز ديانة بربرية ، نصف متطورة ، ونابعة مباشرة من الاعتقاد بوجود أرواح في كل ظواهر الطبيعة .

وإذا نحن فتشنا عمّا يناظر هذه الديانة في الديانات القديمة المعروفة الأخرى فإننا نجد التشابه أكثر ما يكون بينها وبين الديانة المصرية . ففي مصر ارتبطت الشمس بالثور ، كما هي الحال في ليبيا ، وتطور الاعتقاد بوجود حياة أخرى إلى حد كبير ، واعتبر الكبش ، كما هي الحال في بقية الشمال الإفريقي ، حيواناً مقدساً . ولقد وجدنا تشابهاً كبيراً بين الإلهة المصرية نيث ، إلهة مدينة سيس ، ونظيرتها الليبية أثينا الأوزية . ويقول أوريك بيتس [1] : « إن أوجه الشبه الكثيرة بين

[1] Ibid., p. 207

الديانتين توضح أن العلاقة بينهما كانت أقوى بكثير مما كانت عليه مثلاً بين الديانة الليبية والديانات السامية القديمة . وكما ان عنصراً ليبياً معيناً اندمج في اللغة المصرية القديمة فإن عناصر مماثلة من الديانة الليبية القديمة دخلت ، على الأرجح ، الديانة المصرية القديمة وإن كنا لا نستطيع أن نتبينها في الوقت الحاضر نظراً لقلّة المعلومات المتوافرة بالنسبة لليبيين القدماء بشكل عام » .

برقة في العهدين الإغريقي والبطلمي
(٦٣١ – ٩٦ ق . م .)

كلمة لا بد منها :

سبق أن أشرنا إلى أن ليبيا في عصر ما قبل التاريخ كانت تنقسم إلى منطقتين حضاريتين أولاهما غربية هي منطقة طرابلس وكانت واقعة تحت تأثير الحضارتين المجاورتين لها من الغرب : حضارة قفصة في تونس وحضارة وهران على طول الساحل من خليج قابس بتونس حتى نهاية ساحل المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي ، وثانيتهما شرقية هي منطقة برقة وكانت واقعة تحت تأثير الحضارة المصرية ومن ورائها تأثير الحضارة الآسيوية . وأشرنا في موضع آخر إلى أن اتساع رقعة الأرض الليبية ، وطبيعتها الصحراوية ، وصعوبة مواصلاتها ، وقلة كثافة سكانها ، وعدم اتحاد قبائلها أدت جميعاً إلى ضعف البلاد ، وإلى عدم قيام سلطة مركزية قوية فيها مما أتاح للغزاة التغلب عليها دائماً بسهولة . وسنحتاج إلى الإشارة لهذا الوضع بين الحين والآخر في الفصول القادمة لتفسير مواقف متعددة استطاعت قوى خارجية تتفاوت قوة وضعفاً أن تتغلب فيها على الديار الليبية بعضها أو كلها دون عناء كبير .

من هذا القبيل ما تم للإغريق حينما استوطنوا ساحل برقة وللفينيقيين حينما أقاموا لهم وجوداً على ساحل طرابلس . ولقد تركت هذه القسمة المبكرة أثرها على البلاد حتى سنوات قليلة مضت ؛ فقد راحت منطقة برقة تتطور حضارياً تحت تأثير الحضارة الإغريقية المزدهرة على ساحلها ، بينما تأثرت منطقة طرابلس بالحضارة الفينيقية ذات الطابع التجاري عن طريق المراكز التجارية الفينيقية القائمة

على الساحل الطرابلسي ، وبقيت الأقسام الداخلية من البلاد حتى العهد الروماني بعيدة نسبياً عن المؤثرات الحضارية ، ومتمتعة معظم الوقت بما يشبه الاستقلال الفعلي ممّا جعل تاريخها يتميز بالطابع البدوي القبلي . وحتى في العهد الروماني بشقّيه الغربي والشرقي أو البيزنطي ظلت هذه القسمة قائمة عملياً وإن كانت غير قائمة رسمياً بحكم تبعية المنطقتين لسلطة واحدة . وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية لم تلبث منطقة طرابلس حتى خضعت للوندال بينما ظلت منطقة برقة تابعة للإمبراطورية البيزنطية . وحتى خلال عصر الأباطرة الرومانيين الأول نجد أن عنصراً جديداً قد طرأ على الصورة وهو نشوء مركزّي قوة كبيرين مجاورين لليبيا : الأول في الغرب في ولاية إفريقية الرومانية الجديدة التي حلت محل قرطاجة الفينيقية في تونس والآخر في الاسكندرية بمصر . وكان هذان المركزان الرومانيان يحرصان على أن يمدا نفوذهما على ليبيا ؛ الأول على منطقة طرابلس والثاني على منطقة برقة . والذي كان يحدث نتيجة لهذا التنافس هو زيادة اتضاح القسمة السابقة للبلاد . وحتى في العهد الإسلامي نجد أن هذه الصورة الأساسية لم تتغير كثيراً فقد أصبحت مدينة القيروان مركز القوة الإسلامية في ولاية إفريقية غربي ليبيا بينما أصبحت الفسطاط ومن بعدها القاهرة مركز القوّة الإسلامية في مصر إلى الشرق من ليبيا . واستمرت ليبيا منطقة تنازع نفوذ بين هذين المركزين الإسلاميين ، فوالي الفسطاط أو القاهرة يحاول دائماً أن يبسط نفوذه على برقة ويتولى تعيين ولاتها بينما يحاول والي القيروان أبداً أن يبسط نفوذه على منطقة طرابلس ويتولى تعيين ولاتها . وقد ينجح أحد المركزين في بسط نفوذه على ليبيا بأسرها إلى حين ، إلا أن الغالب هو أن تكون برقة تابعة لوالي مصر بينما تكون طرابلس تابعة لوالي إفريقية وتبقى الدواخل مستقلة فعلياً بشؤونها وإن كانت تتبع رسمياً للسلطة المركزية وهي الخلافة .

ونحن إذا أمعنا في تتبع هذه الصورة الانقسامية سنجد أنها ترافق تاريخ ليبيا في العهد العثماني وأثناء الاحتلال الإيطالي وخلال عهد الإدارة الحليفة وحتى

في عهد الاستقلال وقيام المملكة الليبية المتحدة بولاياتها الثلاث : برقة وطرابلس وفزان . ولم تختف هذه الصورة الانقسامية إلا بعد إلغاء الدستور الاتحادي وإعلان وحدة البلاد وفقاً لدستور أبريل – نيسان ١٩٦٣ مما أنهى رسمياً عهد انقسام طويل أسهم في عرقلة نهضة البلاد طيلة تاريخها الماضي . والمأمول أن تعمل الجمهورية العربية الليبية الفتية ، التي أقامها الجيش بعد ثورته البيضاء صباح اليوم الأول من سبتمبر – أيلول ١٩٦٩ ، على تحقيق الوحدة الوطنية عملياً بربط أجزاء البلاد بشبكة حديثة من المواصلات المختلفة ، وبتطوير المجتمع الليبي تطويراً عصرياً يخلصه من التركة الثقيلة التي خلفها له النظام القبلي القديم .

الإغريق في منطقة برقة

كانت بلاد اليونان ، برها وجزرها ، تخضع لحكومات مدينية كل منها مستقلة تماماً عن حكومات المدن الأخرى . وكانت حكومة مدينة أثينا ، على البر اليوناني ، وحكومة مدينة إسبارطة ، على شبه جزيرة البلوبونيز ، أشهر اثنتين من هذه الحكومات المدينية التي كانت علاقاتها ببعضها البعض علاقات عداء وحروب أكثر الوقت . ولما كانت بلاد اليونان جبلية ، قليلة الموارد ، فإنها كانت تشكو الفقر في معظم الأوقات . وكانت مشكلتها هذه تزداد حدة بتزايد عدد سكانها وبسبب قوانين الإرث التي كانت تعطي تركة الأب للابن الأكبر على حساب إخوته الآخرين فكان ينتج عن ذلك أن أعداداً كبيرة من الإخوة والأخوات كانوا يجدون أنفسهم فجأة ولا أملاك لهم ، وبالتالي لا مناص لهم من الهجرة إن أرادوا البقاء على قيد الحياة . فإذا أضفنا إلى هذه العوامل عامل حب المغامرة والجري وراء المجهول لدى الإغريق ، ثم وعي كهنة المواحي ،

خاصة موحى دلفي ، بالمشكلة وشدة إيمان الإغريق بتلك المواحي ، أدركنا أن توسعهم خارج بلادهم كان واقعاً لا محالة كقضية حتمية في تاريخهم . ولذلك فإن الدارس لتاريخهم يلاحظ أنهم بدأوا منذ القرن السابع قبل الميلاد يتوسعون ويقيمون المستوطنات على شواطىء آسيا الصغرى والبحر الأسود وعلى سواحل جنوب إيطاليا وفي صقلية وقبرص ثم في مصر وليبيا[1].

وكان الدين يلعب دوراً كبيراً في حياة الإغريق القدماء شأنهم في ذلك شأن معظم شعوب العالم القديم . وكانوا يؤمنون إيماناً قوياً بما تلقيه إليهم آلهتهم المختلفة على ألسنة كهنة مواحيها وخاصة موحى دلفي ، موحى الإله أبولّو ابن الإله زيوس ؛ فلقد طالما ذهب الإغريق زرافات ووحداناً إلى موحى أبولّو في دلفي ليقدموا له القرابين ، ويستشيروه في شؤونهم الخاصة والعامة . وكان من الطبيعي أن يكون كهنة الآلهة المختلفة بما فيهم كاهنة موحى دلفي على وعي بمشكلات بلادهم ، وبضرورة تشجيع مواطنيهم على الهجرة إلى الخارج ، باعتبار الهجرة أفضل حل لتلك المشكلات . ولذلك فإن هيرودوتس يخبرنا أن فكرة هجرة الإغريق إلى ليبيا إنما نبعت أصلاً من موحى أبولو في دلفي . يقول هيرودوتس نقلاً عن أهالي جزيرة ثيرا (= سنتوريون الحالية) الذين كانوا قد بعثوا وفداً منهم لاستشارة موحى دلفي في سبب انحباس المطر عن جزيرتهم : « ذهب جرنّوس (Grinnus) بن إيزانيوس (Aesanius) سليل ثيراس (Theras)

1 تشير المصادر الكلاسيكية إلى أن برقة وبقية ليبيا عرفت عناصر قادمة من بلاد اليونان من سبقوا الغزو الدوري لبلاد اليونان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وكانت تلك العناصر تنتمي إلى كريت وشمالي وشبه جزيرة البلوبونيز بالإضافة إلى عناصر أخرى قادمة من آسيا الصغرى (وربما كان هؤلاء هم الشردن أسلاف سكان جزيرة سردينيا الذين قدموا إليها أصلا من آسيا الصغرى) . ويذكر الشاعر الإغريقي پندار أن عناصر من أهل طروادة (في آسيا الصغرى) قدمت إلى برقة هاربة من طروادة المدمرة في الوقت ذاته . انظر أيضاً :
Cyrenaican Expedition of the University, of Manchester1952, Manchester University Press, 1956, Manchester, England, Edited by : Allan Rowe with contributions by Derek Buttle and John Gray.

وسيد جزيرة ثيرا إلى دلفي ليقدم قرباناً قوامه مائة ضحية نيابة عن أهالي الجزيرة ، وكان بين الوفد الذي رافقه من أهالي الجزيرة شخص اسمه باتوس (Battus) ابن پولمنستوس (Polymnestus) من أسرة مينوية . وقد استشار جرنّوس أثناء إقامته في دلفي الإله أبولّو في أمور عديدة ، وتلقى من كاهنة الموحى جواباً لم تكن له علاقة ظاهرة بموضوعات الاستشارة ، ويتلخص في وجوب قيام جرنّوس بتأسيس مدينة في ليبيا . وعندما سمع جرنّوس ذلك الجواب احتج بقوله : ولكن يا إلهي أبولّو ، أنا رجل طاعن في السن وضعيف إلى درجة لا تسمح لي بالبدء بمثل هذه الرحلة ، أفلا تستطيع أن تكلف واحداً من هؤلاء الشباب بالقيام بتلك الرحلة بدلاً مني ؟ ، قال هذا وهو يشير بإصبعه إلى باتوس . ولكن لم يطرأ أي جديد على الموقف في ذلك الحين ، ورحل الوفد عن دلفي ونسوا ما تفوه به الموحى ولم يتخذوا أي إجراء عملي بهذا الصدد لأنهم كانوا يجهلون موقع ليبيا ، ولذلك فقد أحجموا عن إرسال جماعة من المستوطنين إلى مكان كانوا يجهلون حتى موقعه . ولم تسقط في جزيرتهم خلال السنوات السبع التالية نقطة مطر واحدة وجفت جميع أشجار الجزيرة ما عدا واحدة . وفي هذا الظرف القاسي أرسل أهالي ثيرا إلى موحى دلفي يستشيرونه ثانية فكان الجواب تذكيراً لهم بوجوب إقامة المستوطنة التي تناسوا أمرها في ليبيا . ولما جاءهم هذا الجواب لم يبق لديهم غير أن ينفذوا الأمر فبعثوا إلى جزيرة كريت يستفسرون عما إذا كان أحد أبنائها أو أحد الغرباء من المقيمين بها قد سبق له أن زار ليبيا . وبينما كان وفدهم يتجول في كريت ، وصلوا إلى بلدة إتانس « Itanus » حيث صادفوا تاجر أصبغة اسمه كورويبُس « Corobius » فأخبرهم أن عاصفة دفعته في إحدى سفراته إلى جزيرة پلاتيا[1] « Platea » القريبة من الساحل الليبي . واتفق الوفد مع كورويبُس هذا أن يعود معهم إلى جزيرتهم ثيرا مقابل مبلغ من المال دفعوه له . وبعد ذلك بقليل أبحرت من ثيرا جماعة استطلاعية تولى

1 كانت تقوم في خليج بمبا وتعرف باسم جزيرة خروف البحر « Seal Island » .

كوروبيُس إرشادهم حتى وصلوا إلى پلاتيا . وهناك تركوا كوروبيس على شاطئها وتركوا عنده مؤونة تكفيه لأشهر اتفقوا على عددها وكروا عائدين بسرعة إلى جزيرتهم ليزفوا إلى أهلها بشرى اكتشافهم للجزيرة . ولكنهم تجاوزوا المدة التي كانوا قد اتفقوا عليها مع كوروبيس فبدأ الرجل يقاسي من قلة المؤونة حتى يسّر له القدر سفينة من سفن جزيرة سامُس كانت في طريقها إلى مصر بقيادة رجل اسمه كولايُس « Colaeus » فحملتها الرياح إلى جزيرة پلاتيا . وبعد أن استمع ملاحوها إلى قصة كوروبيُس تركوا له مؤونة تكفيه سنة كاملة واستأنفوا رحلتهم إلى مصر التي كانوا يتعجلون الوصول إليها . ولكن الرياح الشرقية حالت دون وصولهم إلى مصر وساقتهم غرباً عبر أعمدة هرقل إلى أن أسعفهم حظ يفوق حظوظ البشر بالوصول إلى طرطسّوس[1] « Tartessus » وهو مكان لم يكن قد استغل حتى ذلك الحين . وترتب على ذلك أن تجار سامُس الذين كانوا في تلك السفينة ربحوا من الحمولة التي عادوا بها إلى بلادهم أكثر من أي تاجر إغريقي آخر نعرف أخباره الصحيحة باستثناء سوسترّاتُس « Sostratus » ابن لودامُس « Laodamus » من جزيرة إيجينا فهو تاجر لا يمكن أن يقارن به في الربح أي تاجر آخر . . . وكانت المساعدة التي قدمها تجار سامُس لكوروبيُس أصل الروابط الودية الوثيقة بين جزيرة سامُس من ناحية وقورينة وثيرا من الناحية الأخرى .

أما أبناء ثيرا الذين تركوا كوروبيُس على جزيرة پلاتيا فإنهم بعد وصولهم إلى جزيرتهم أبلغوا أهلها أنهم أقاموا مستوطنة على جزيرة قريبة من الشاطىء الليبي فتقرّر إرسال جماعة أخرى لتنضم إلى المستوطنة على أن تكون تلك الجماعة ممثلة لأقسام ثيرا السبعة وأن يقترع الإخوة فيما بينهم لتقرير من الذي سيذهب منهم ، وأن يتولى السلطة المطلقة على تلك الجماعة باتوس . وبعد ذلك أبحرت

١ إقليم في جنوب إسبانيا قرب نهر الوادي الكبير . وكان هذا الاسم يطلق على النهر نفسه وعلى مدينة في مصبه .

الجماعة في سفينتين من ذوات الخمسين مجدافاً [وهما تحملان مائتي رجل] إلى جزيرة پلاتيا . . .

وتتفق رواية أهل ثيرا وأهل قورينة على أن باتوس كان بلسانه عقدة منذ طفولته ، وأن والديه سمياه بذلك الاسم منذ ولادته . ولكنني شخصياً أرى أنه لم يسمّ بذلك الاسم إلا بعد ذهابه إلى ليبيا حيث تسمى باتوس تحقيقاً لما كان قد أفضى به موحى دلفي وبسبب المركز السامي الذي صار يشغله في ليبيا – ذلك أن كلمة « باتوس » تعني « ملكاً » في اللغة الليبية[1] . ويخيل إليّ أن كاهنة موحى دلفي إنما أطلقت عليه ذلك الاسم الليبي عندما خاطبته بما أوحى به إليها الإله أپولّو لأنها كانت تعرف أنه سيصبح ملكاً في ليبيا ؛ ذلك أن باتوس عندما بلغ سن الرشد ذهب إلى موحى دلفي ليستشيره بشأن ما كان عليه لسانه من لعثمة فأجابه الموحى قائلاً : آه يا باتوس ! إنك من أجل صوتك جئت إلينا، ولكن الإله أپولّو يبعث بك إلى ليبيا ، مرتع القطعان ، لتبني فيها مدينة ؛ وهذا الخطاب باليونانية يعادل قول الإله : «آه ! يا أيها الملك . . . » . وكان جواب باتوس في هذه المناسبة أن شكا أنه إنما جاء يستشير الموحى في كيف يتخلص من لعثمته فألقى عليه جواباً لا يناسب سؤاله وإنما ينصحه بتأسيس مستوطنة في ليبيا[2] ، وذلك مشروع هو أعجز من أن يقوم به – فما الموارد التي كانت لديه ومن الذين كان يمكنه أن يقنعهم بمرافقته ؟ ولكن شكواه لم تجده نفعاً ولم يستطع أن يستخلص من الموحى أي جواب آخر بل إن الكاهنة كررت على مسامعه الجواب الأول . ولم ينتظر باتوس حتى تفرغ الكاهنة من إلقاء الجواب في المرة الثانية بل أسرع عائداً إلى ثيرا . ولكن حالته لم تتحسن بعد ذلك فقد أدبرت الدنيا عنه وعن غيره من أهل الجزيرة دون أن يتمكنوا من معرفة السبب . ولما أعادوا الكرة واستشاروا موحى دلفي من جديد أجابتهم الكاهنة بمضمون جوابها الأول

١ اسمه الأصلي أرسطوطاليس « Aristoteles » ولكنه صار يعرف باسم باتوس فيما بعد .
٢ قيل إنه شفي من تلك العلة نتيجة لصدمة أصابته عندما وجد نفسه فجأة أمام أحد الأسود في ليبيا .

وإن كان في كلمات جديدة إذ إنها قالت إنهم إذا انضموا إلى باتوس في تأسيس مستوطنة في ليبيا فإن حظوظهم سوف تتحسن . وكانت هذه النصيحة كافية لحملهم على إرسال باتوس مع جماعة من المستوطنين في سفينتين من ذوات الخمسين مجدافاً كما سبق . وبعد أن وصلوا الشاطىء الليبي لم يتمكنوا من اتخاذ قرار بالخطوة التالية فعادوا إلى ثيرا ولكن أهلها لم يسمحوا لهم بالنزول على شاطئها ورشقوهم بما وقعت عليه أيديهم عندما رأوهم يتجهون إلى الميناء ، وصاحوا فيهم معلنين وجوب عودتهم من حيث أتوا . ولما رأى باتوس ورفاقه موقف أقربائهم ذاك قرروا أن لا سبيل لهم غير العودة فكرُّوا راجعين إلى ليبيا واستقروا هذه المرة في جزيرة پلاتيا التي كانت قريبة من الشاطىء الليبي ، وهي جزيرة يقال إن مساحتها مساوية لمساحة قورينة في هذا الوقت [القرن الخامس قبل الميلاد] .

وأقام هؤلاء المستوطنون في جزيرة پلاتيا مدة سنتين ولكنهم لم يصادفوا أي ازدهار في وطنهم الجديد مما حملهم على الإبحار إلى بلاد اليونان ليستشيروا موحى دلفي تاركين وراءهم في پلاتيا رجلاً واحداً فقط . وعندما بلغوا موحى دلفي أعلنوا أمامه أن حالتهم لم تتحسن رغم أنهم كانوا يعيشون في ليبيا . وأجابتهم كاهنة الموحى ببيتين من الشعر قائلة بلسان أپولّو إنّه هو زار ليبيا أما هم فإنهم لم يفعلوا ، وبناء على ذلك فإنهم إن كانوا يعرفون تلك البلاد أكثر منه هو فهم مفرطون في الذكاء دون شك ! ولما سمع باتوس ورجاله ذلك الجواب أعادوا الكرة وأبحروا إلى پلاتيا لأنّه اتضح لهم أن أپولّو لن يتركهم وشأنهم إلا إذا أقاموا مستوطنة حقيقية على البر الليبي . ولهذا فإنهم مروا بجزيرة پلاتيا والتقطوا الرجل الذي كانوا قد خلفوه عليها ثم عبروا إلى البر الليبي وأقاموا على شاطئه مدينة على مسافة قصيرة إلى الجنوب من پلاتيا في بقعة اسمها أزيرس[1] « Aziris » —

١ من المحتمل أن يكون ذلك المكان هو موقع تميمي إلى الجنوب قليلا من درنة وربما كان وادي الخليج بعينه .

وهي بقعة خلابة يجري في إحدى جنباتها نهر وتحيط بها أودية بديعة . وأقاموا في هذا المكان ست سنوات ثم أقنعهم الليبيون بمغادرته وتعهدوا أن يدلوهم على مكان أفضل منه . وبعد موافقتهم على الاقتراح الليبي سار بهم أصدقاؤهم الليبيون — وكانوا من قبيلة الجليجامي (Giligamae) — ووقتوا مسيرتهم بحيث يجتازون بهم منطقة إراسا (Irasa) [لعلها أم الرزم] وهي أجود بقعة في البلاد ، تحت جنح الظلام وذلك حتى يحولوا دون رؤيتهم لها [لئلا تعجبهم فيستقروا بها] . وأخيراً وصلوا إلى النبع المسمى « نافورة أپولّو » وهناك قال الأدلاء الليبيون للإغريق : « هذا هو المكان الذي يجدر بكم أن تستقروا فيه لأن سماءه مثقوبة »[1] .

وفي حياة باتوس ، مؤسس قورينة وسيدها طيلة أربعين سنة ، وفي حياة ابنه آركيسيلاوس (Arcesilaus) الذي كان سيداً للمدينة لمدة ست عشرة سنة ظل عدد سكان قورينة مساوياً لعدد المستوطنين الأصليين . وفي عهد ملكها الثالث المعروف باسم « باتوس السعيد » أعلن موحى دلفي نبوءة تسببت في تزاحم الإغريق عامة على الهجرة لمستوطنة قورينة ؛ فقد حدث أن أهالي قورينة كانوا يقدمون هبات من الأراضي للمستوطنين الجدد عندما أعلن موحى دلفي « أن كل من يذهب إلى ليبيا البهيجة بعد الفراغ من تقسيم الأراضي سيندم على عمله في يوم من الأيام »[2] .

تلك هي رواية هيرودوتس عن تأسيس الإغريق الدوريين لمستوطنتهم الأولى قورينة (= سيرين ، شحات) ، والمؤرخون متفقون على أن تأسيسها كان سنة ٦٣١ ق . م . في موقع من أراضي قبيلة الاسبستي (Asbystae) الليبية[3] .

١ أي إنها كثيرة المطر . انظر أيضاً ص ٢٢٤ أعلاه .

٢ Herodotus, iv, pp. 292 — 296.

٣ Smith, Captain R. Murdoch, R.E. & Commander E.A. Porcher, R.N., History of the Recent Discoveries at Cyrene — made during an expedition to Cyrenaica in 1860 — 1861 under the auspices of her Majesty's Government — Day and son, London 1864, p. 2.

ولقد عطف الليبيون في بداية الأمر على المهاجرين الإغريق ورحبوا بهم ونشأت بين الفريقين علاقات صداقة أدت إلى تزوج شباب الإغريق المهاجرين من فتيات ليبيات ، كما تجلت فيما بعد في مجاملة النساء الإغريقيات لليبيات بالامتناع عن أكل لحم البقر الذي كان النساء الليبيات يحرمنه على أنفسهن تقديساً للإلهة المصرية نيت ثم إيزيس التي أصبح النساء الإغريقيات أيضاً يقدسنها ويعتبرنها نظيرة لإلهتهن ديميتر (Demeter) . وسيتضح لنا فيما بعد كيف بدأت القبائل الليبية تهاجم الإغريق وتحاربهم بسبب اشتداد هجرتهم ، وتوسعهم الإقليمي على حساب الليبيين ، واتضاح نواياهم ومطامعهم الاستعمارية . ولقد ذكر هيرودوتس فيما تقدم مساعدة الليبيين للإغريق في اختيار موقع قورينة . أمّا لماذا أسموها قورينة فإن إحدى الأساطير الإغريقية تعطينا الجواب . تقول الأسطورة إن الإله أبولّو شغف بفتاة إغريقية اسمها قورينة (Kurana) فراح يجري وراءها من بلاد اليونان إلى ليبيا حيث تمكن منها . وكانت قورينة فتاة رائعة الجمال ، متحررة الذوق ، ولم تكن تحب السير ذهاباً وإياباً أمام آلة الغزل ، أو المشاركة في الحفلات مع صواحبها داخل المنزل ، وإنّما كانت مولعة بصيد الحيوانات الشرسة وقتلها برمحها وسيفها البرونزيين من أجل تأمين السلامة لقطعان والدها . ولم تكن قورينة تسمح للنوم أن يلمس جفونها إلا لفترة قصيرة قبيل الفجر ، وفيما يلي خلاصة للقصيدة التي نظمها الشاعر بندار في وصفها :

« بينما كانت قورينة ذات يوم تكافح أسداً ضخماً بيديها العاريتين ، رآها الإله أبولّو فأعجب بها ووقع في حبها ولكنه كان في حيرة من أمره ، لا يدري ماذا يصنع ، ولذلك فإنّه استدعى مستشاره وسأله قائلاً : « هل من الشرع أن أباشر الاتصال بها فوراً أم الأفضل أن أقطف الزهرة الحلوة على فراش الزوجية ؟ » ويعلق المستشار في رده بقوله إن الإله أبولّو يعرف كل الأجوبة ، ويضيف المستشار قوله : « إنّك قدمت لهذا الوادي لتتزوج هذه الفتاة وإنّه مقدر لك أن تحملها عبر البحر إلى إحدى حدائق الإله زيوس المختارة حيث تجعلها

ملكة لإحدى المدن وذلك بعد أن تكون قد جمعت أبناء إحدى الجزر ولمت شملهم على رابية تقوم وسط سهل رحيب . وآنذاك ستكون ليبيا ذات المروج الرحبة سعيدة باستقبال العروس البديعة في منزل ذهبي ، وسيسعد ليبيا أن تقدم العروس كهدية قطعة من الأرض تعيش عليها متمتعة بشتى أنواع الفواكه والمزروعات ومستأنسة شتى أنواع الحيوانات .

وتم كل شيء بسرعة وفقاً لإرادة الإله ، وزفت إليه العروس في صالة ليبية مذهبة . ومنذ ذلك الحين حتى الآن وقورينة تتردد على مدينتها ذات الجمال الرائع وذات الإبداع في مختلف الألعاب » .

العهد الملكي ٦٣١ – ٤٤٠ ق . م :

وهكذا أسس الإغريق مستوطنتهم الأولى كحكومة مدينية على غرار ما عرفوه في بلادهم الأم ، وتولى الحكم فيها باتوس الذي أصبح ملكاً لها ، وتوالى حكمها في أسرته ، رغم قيام عدد من الثورات ، حتى سنة ٤٤٠ ق . م . وكان عدد ملوك هذه الأسرة ثمانية ؛ أربعة منهم حملوا اسم باتوس والأربعة الآخرون حملوا اسم آركيسيلاوس . وتعاقبوا جميعاً على الحكم فكان أولهم باتوس الأول ثم تلاه ابنه آركيسيلاوس الأول فباتوس الثاني ، وهكذا . وفيما يلي أسماؤهم والفترة التي حكم خلالها كل منهم[1] :

١ – باتوس الأول	٦٣١ – ٥٩١ ق . م .
٢ – آركيسيلاوس الأول	٥٩١ – ٥٧٥ ق . م .
٣ – باتوس الثاني « السعيد »	٥٧٥ – ٥٥٤ ق . م .

١ هذه التواريخ تقريبية ومبنية على أساس الإشارات التي وردت في المصادر الكلاسيكية لقورينة وملوكها ؛ فعلى سبيل المثال اعتبرنا سنة ٦٣١ ق. م. بداية حكم باتوس الأول لأن الكتاب أجمعوا أنها سنة تأسيس قورينة ، واعتبرنا سنة ٥٩١ ق. م. نهاية عهده لأن هيرودوتس ذكر أنه حكم قورينة مدة أربعين سنة .

٤ – آركيسيلاوس الثاني « الطاغية » ٥٥٤ – ٥٤٤ ق . م .
٥ – باتوس الثالث « الأعرج » ٥٤٤ – ٥٢٩ ق . م .
٦ – آركيسيلاوس الثالث وأمه فريتيما ٥٢٩ – ٥١٥ ق . م .
٧ – باتوس الرابع « الوسيم » حوالي ٥٠٠ – ٤٦٥ ق . م .
٨ – آركيسيلاوس الرابع حوالي ٤٦٥ – ٤٤٠ ق . م .[١]

وفي السنة الثالثة من عهد باتوس الثاني « السعيد » أي سنة ٥٧٢ ق . م . تضخم عدد سكان قورينة نتيجة لتحريض موحى دلفي للإغريق على الهجرة إلى ليبيا . ومن الطبيعي أن ينتج عن تضخم عدد السكان اشتداد الحاجة للمزيد من المواد الغذائية وبالتالي إلى الأراضي المنتجة لها وهذا يعني وجوب توسع قورينة على حساب قبيلة الإسبستي الليبية المجاورة لها . وهكذا بدأت قورينة تتعدى على الأراضي الليبية المجاورة وتغتصبها ، واستمرت تتوسع على هذه الصورة حتى أثارت نقمة الاسبستي الذين أغضبتهم نزعة السيطرة القورينية من ناحية وفقدان أراضيهم من الناحية الأخرى مما حملهم في عهد شيخهم أدكران (Adicran) على إرسال وفد إلى بلاط أبريز (Apries) ملك مصر . وقدم الوفد إلى مصر وأعلنوا ولاءهم وتبعيتهم هم وقومهم لملك مصر ثم شكوا إليه أمر قورينة . واستجاب الملك المصري لشكواهم فقام بإرسال قوة كبيرة ضد قورينة . وخفت قوات قورينة لمجابهة القوة المصرية القادمة فوقعت بين الفريقين معركة قرب بئر ثيستيس (Thestes) في إراسا سنة ٥٧٠ ق . م . هزم الجيش المصري فيها هزيمة منكرة بحيث لم يعد من جنده إلى مصر سوى عدد قليل . ويعلل هيرودوتس تلك الهزيمة بأنها « كانت ناتجة دون شك عن انعدام الخبرة لدى المصريين بحرب الإغريق وعن عدم استعداد المصريين لمعالجة الموقف معالجة جادة »[٢] ونتيجة

١ See also : Cyrenaican Expedition of the University of Manchester, 1952, Manchester University Press, England, 1956, edited by Allan Rowe with contributions by Derek Buttle & John Gray, p.2.

٢ Herodotus, iv, p. 296.

لفشل هذه الحملة ثار أتباع أبريز عليه وحمّلوه شخصياً مسؤولية الكارثة . أما قورينة فقد توطد سلطانها وتأكدت سيادتها على الليبيين نتيجة لانتصارها .

وتلا باتوس السعيد على عرش قورينة ابنه آركيسيلاوس الثاني الملقب بالطاغية . وما إن استقر الحكم لآركيسيلاوس هذا حتى بدأ يضطهد أربعة من إخوته هم : پرسيوس (Perseus) وأرستوميدون (Aristomedon) وليكوس (Lycus) وزاكنثوس (Zakynthus) ، وراح يمعن في تجريدهم من حقوقهم وامتيازاتهم الدستورية ، فغضبوا عليه ورحلوا عن قورينة سنة ٥٥٠ ق . م . هم ومن آزرهم من الإغريق الذين كان بينهم عدد لا بأس به من أمهات ليبيات ، وقاموا بمساعدة قبيلة الأوسخيزي (Auschisae) الليبية بتأسيس مدينة برقة (Barce) (= المرج)[١] في سهل المرج إلى الغرب من قورينة . وبينما كانت أعمال البناء لا تزال مستمرة في برقة أقنع الإغريق فيها من حولهم من الليبيين بالتخلي عن ولائهم لقورينة مما دعا آركيسيلاوس الثاني إلى محاربة من فعل ذلك منهم . فلما أحس هؤلاء بزحف قوات قورينة بقيادة آركيسيلاوس الثاني تراجعوا مسرعين باتجاه الغرب وخف آركيسيلاوس الثاني بجيشه لمطاردتهم حتى بلغ مدينة لوكن (Leucon) الليبية حيث التحم الفريقان في معركة حامية هزم القورينيون فيها هزيمة منكرة وفقدوا سبعة آلاف من جنودهم . وبعد هذه الضربة القاسية أصيب آركيسيلاوس الثاني بحمى حاول التخلص منها بتناول شيء من الدواء ولكن القدر لم يمهله إذ إن أخاه ليارخوس (Learchus) قام بخنقه سنة ٥٤٤ ق . م . وانتقمت له زوجته إركسو « Erixo » فقتلت ليارخوس فآل عرش قورينة لباتوس الثالث الأعرج بن آركيسيلاوس الثاني .

هذه الأحوال المضطربة في قورينة أتاحت الفرصة أمام مدينة برقة لتبسط

١ قال هيرودوتس إن إخوة آركيسيلاوس الثاني وأنصارهم أسسوا مدينة برقة ولكن أوريك بيتس يعتقد أن برقة ليست إغريقية الأصل وإنما كانت قرية ليبية وكانت قائمة قبل مقدم الإغريق أو « على الأقل » أن قبيلة الأوسخيزي الليبية التي أقيمت برقة في أراضيها قد شاركت في تأسيسها .

نفوذها على القسم الغربي من المنطقة ، وحفزت أهل قورينة على إرسال وفد إلى دلفي لاستشارة موحى أبولّو هناك حول أنجع السبل لإقامة أفضل أنواع الحكم في مدينتهم . وأجابتهم كاهنة دلفي بأن عليهم أن يستدعوا أحد رجال مدينة منتينيا (Mantinea) في مقاطعة أركاديا (Arcadea) لينظم لهم شؤونهم . وعملوا بنصيحة الموحى فأعبروا خدمات المشرع ديموناكس (Demonax) الذي كان يتمتع بشهرة ممتازة وسمعة طيبة في بلده . وقدم ديموناكس إلى قورينة فدرس أوضاعها وأحوالها ثم تقدم بالإصلاحات الدستورية التالية :

١ – قسم سكان قورينة إلى ثلاثة أقسام أو قبائل :

أ – المهاجرون من إغريق جزيرة ثيرا وجيرانهم ،

ب – المهاجرون من إغريق شبه جزيرة البلوبونيز وكريت ،

جـ – المهاجرون من إغريق الجزر الأخرى .

٢ – خصص لباتوس ، ملك المدينة ، أراضي معينة ومهام كهنوتية معينة كذلك .

٣ – أباح لسكان المدينة عموماً التمتع بالامتيازات التي كانت حتى مقدمه مقصورة على الملوك[1] .

ثم انتخب من هذه القبائل الثلاث مجلس شيوخ انتقل إليه حكم المدينة من أسرة باتوس بموافقة باتوس الثالث . وظلت هذه الإجراءات سارية المفعول طيلة حياة باتوس الثالث ولكن ضجة كبرى ثارت في المدينة حول المناصب والامتيازات الحكومية المختلفة في عهد آركيسيلاوس الثالث ، بن باتوس الثالث الأعرج من فريتيما (Pheretima) وخليفته في الحكم . ولما أصر أركيسيلاوس الثالث هذا على تجاهل تشريعات ديموناكس وطالب بأن ترد إليه امتيازات أسلافه وحقوقهم وقع نزاع بينه وبين أهل المدينة أسفر عن هزيمته وهربه إلى جزيرة ساموس ، وهرب أمه إلى مدينة سلاميس في قبرص حيث التجأت إلى بلاط الملك يولثن

١ Herodotus, iv, p. 297.

(Euelthon) الإغريقي وطلبت إليه إمدادها بجيش يعيدها هي وابنها إلى عرش قورينة . وكان يولثن كريماً في معاملتها فأغدق عليها الهدايا بسخاء ولكنه لم يكن ينوي إعطاءها جيشاً . وراحت هي من جانبها تمتدح كل هدية يقدمها لها وتؤكد في الوقت ذاته أن هديتها المفضلة هي أن تعطى جيشاً . فلما ألحت في هذا المطلب أهداها يولثن مغزلاً من ذهب عليه بعض الصوف معلناً أن ذلك المغزل – وليس الجيش – أليق بها كامرأة .

وفي هذه الأثناء تمكن آركيسيلاوس الثالث ، بما بذله من وعود بأنه سيقطع من يناصره ما يكفيه من الأرض في قورينة ، من حشد قوة لا بأس بها من جزيرة ساموس ، أبحر بها إلى قورينة وتمكن من استرجاع عرشه . ولكنه ارتكب الفظائع ضد الأهلين فشرد بعضهم ، ونفى بعضهم إلى قبرص حيث أعدموا وأحرق البعض الآخر ، ثم تذكر أن كاهنة موحى دلفي كانت قد تنبأت بموته إذا ارتكب مثل تلك الأعمال فاستبد به الذعر وهرب من قورينة والتجأ إلى حميه ألازير (Alazir) ، صاحب مدينة برقة . وبعد حين من مكوثه في مدينة برقة ، وبينما كان يسير مع حميه في أحد شوارعها انقض عليهما عدد من أهل المدينة ومن كان فيها من لاجئي قورينة فقتلوهما .

وعندما كان آركيسيلاوس الثالث لاجئاً في مدينة برقة كانت أمه فريتيما تقوم مقامه في قورينة فتتمتع بامتيازاته وتشرف على إدارة دفة الحكم وتحتل مقعده في مجلس قورينة . فلما سمعت بمقتله هربت إلى مصر مستعينة بأرياندس (Aryandes) ، حاكم مصر الفارسي من قبل قمبيز . واستندت في طلبها المساعدة من الحاكم الفارسي على ما كان ابنها قد قدمه لقمبيز من خدمات حينما أعلن ولاء قورينة له وعين الجزية التي كان على قورينة أن تقدمها لحاكم مصر الفارسي سنوياً .

ويسرد علينا هيرودوتس حكاية هذه الواقعة كما يلي :

« أعلن أرياندس عن حزنه العميق لما أصاب فريتيما ووضع كل قواته في

مصر من مشاة وبحارة تحت تصرفها . وقبل أن يصدر أمره لتلك القوات بالزحف أرسل رسولاً إلى أهل مدينة برقة ليستفسر عن اسم قاتل آركيسيلاوس ، ولكن أهل المدينة أجابوه بأنهم جميعاً يحملون مسؤولية قتله نظراً لما كان قد ألحقه بهم جميعاً من أضرار . ووجد أرياندس في هذا الرد حجة تبرر غزوه لليبيا [منطقة برقة] من أجل تحقيق مطامعه في إخضاعها ، خاصة وإن القبائل الليبية كانت كثيرة ولم يكن يخضع منها لداريوس ، ملك الفرس ، إلا عدد قليل بينما لم يكن معظمها يعير ذلك الملك لحظة واحدة من التفكير »[1] .

أمر أرياندس قواته بالسير في معية فيريتيما لمهاجمة مدينة برقة ، فكان المشاة تحت إمرة أمازيس (Amasis) والبحارة تحت إمرة بدريس (Badres) . ولما وصلت تلك القوات إلى برقة حاصرتها وطلبت من أهلها أن يسلموا قتلة آركيسيلاوس ولكن هؤلاء رفضوا أن يسلموا أحداً . واستمر الحصار تسعة أشهر كان الفرس خلالها يحاولون إحداث ثغرة في سور المدينة إما بالهجوم المباشر وإما بالحفر تحته ، ولكن محاولاتهم جميعها باءت بالفشل . ثم تمكن أحد عمال المعادن منهم من اكتشاف مواقع مجاري المدينة بالطريقة التالية : دار حول سور المدينة وهو يقرع على الأرض بدرقة برونزية فكانت تعطيه رنيناً جامداً في كل المواقع التي دق عليها ، فلما دق فوق المجاري كان لرنين درقته رجع أجوف ، فدل قومه على الموقع وحفروا مدخلاً يؤدي إلى داخل السور ليقتحموا منه المدينة ولكن أهلها كانوا متنبهين للحركة فقاموا بحفر خنادق مضادة من الداخل وقتلوا المتسللين من الفرس ، كما نجحوا في الوقت ذاته في صد الهجمات الفارسية المباشرة على السور . وطال أمد الحصار وتصاعدت خسائر الجانبين فقرر أمازيس ، قائد المشاة ، أن يغير تكتيكه الحربي بعد أن تحقق أنه كان من المستحيل الاستيلاء على مدينة برقة بالقوة . ولذلك فقد لجأ للخدعة فانتظر حتى حل الظلام وأمر رجاله

1 Herodotus, iv, p. 299.

فحفروا خندقاً عريضاً سقفوه بألواح خشبية ثم وضعوا عليه التراب حتى تساوى مع سطح الأرض . وفي صباح اليوم التالي دعا أمازيس أهل برقة إلى مؤتمر مشترك فلبوا الدعوة بارتياح وأسفر المؤتمر عن اتفاق على الشروط التالية :

١ ــ وقف ممثلو الفريقين فوق الخندق المدفون وأقسموا أن :

أ ــ يدفع أهالي برقة مبلغاً معقولاً من المال لملك الفرس ،

ب ــ ألا يلحق الفرس من جانبهم أي أذى بمدينة برقة .

٢ ــ وأن تبقى تلك الاتفاقية سارية المفعول ما دامت الأرض التي كانوا يقفون عليها ثابتة .

وبمجرد أن فرغ الطرفان من عقد اليمين خرج أهالي برقة من المدينة وتركوا أبواب السور مفتوحة ودعوا الفرس لدخولها حسب إرادتهم ، وإنما فعل أهل برقة ذلك لأنه لم يخطر في بالهم أن يكون الفرس قد بيتوا أية خدعة . وقبل الفرس الدعوة فدخلوا المدينة مسرعين بعد أن هدموا الخندق متحللين بذلك من القسم الذي كانوا قد قطعوه على أنفسهم .

وبعد دخول المدينة ألقى الفرس القبض على قتلة آركيسيلاوس وسلموهم لفيريتيما وقامت هي بدورها بصلبهم على سور المدينة وعلقت إلى جانب كل منهم ثديي زوجته . أما بقية أهل المدينة ، باستثناء من كانوا يمتون لأسرة باتوس بقرابة ولم يتورطوا في مقتل آركيسيلاوس ، فقد سلمتهم للفرس بينما سلمت مدينة برقة نفسها لمن أبقت عليهم من أقرباء باتوس . وعاد الفرس إلى مصر وهم يسوقون معهم معظم أهالي برقة عبيداً . ومن مصر سيق هؤلاء العبيد إلى بلاد فارس حيث قدموا للملك الفارسي داريوس فعين لهم قرية في مقاطعة بكتريا أسموها برقة باسم مدينتهم الأصلية وكانت لا تزال آهلة بهم وبنسلهم في أيام هيرودوتس[1] .

1 Herodotus, iv, p. 310,

ولما أطل الجيش الفارسي على قورينة قرّر أهلها وفاء لبعض النصائح الإلهية أن يتركوا مدينتهم مفتوحة وألا يعترضوا مسيرة القوات الفارسية . وعندما كانت القوات الفارسية تعبر بقورينة اقترح بدريس ، قائد البحرية ، الاستيلاء على المدينة ، ولكن أمازيس ، قائد المشاة ، رفض ذلك الاقتراح محتجاً بأن هدف الحملة كان مدينة برقة الإغريقية فقط . وبعد أن اجتاز الجيش قورينة ندم الفرس على عدم استيلائهم عليها وكروا عائدين ولكن أهلها تصدوا لهم هذه المرة ولم يسمحوا لهم بالدخول . والغريب في الأمر أنّه بالرغم من أن الجانبين لم يشتبكا إلا أن الفرس أصيبوا بذعر شديد وتراجعوا مسرعين ولم يتوقفوا إلا بعد أن ابتعدوا عن المدينة مسافة سبعة أميال ، وهناك أقاموا لهم معسكراً مكثوا فيه بعض الوقت حتى وردتهم رسالة من أرياندس يأمرهم فيها بالعودة إلى مصر . وآنذاك طلبوا من قورينة أن تمدهم بالماء والغذاء فزودتهم بحاجتهم وبدأوا مسيرة العودة لمصر . وتجدر الإشارة هنا إلى أن القبائل الليبية راحت تهاجمهم على طول الطريق حتى حدود مصر ، فكان أفراد القبائل ينقضون على من يتأخر من الجنود ويجهزون عليهم طمعاً في ملابسهم ومعداتهم[1] .

وكانت أقصى نقطة في ليبيا وصلتها هذه الحملة الفارسية هي مدينة يوسبيريدس (Euesperides) (= بنغازي) .

أما الملكة فيريتيما فقد عادت مع القوات الفارسية لمصر حيث لقيت جزاء ما اقترفته من فظائع في انتقامها من أهل برقة كما ورد سابقاً فلم تلبث أن ماتت ميتة منكرة بعد أن دبت الديدان في جسمها وظلت تنهشها حتى الموت . وكان موتها على تلك الصورة مثالاً وبرهاناً على أن من يفرط في القسوة إنما يستنزل على نفسه غضب الآلهة[1] .

عند هذا الحد لا يسعنا إلا أن نتساءل عن مصير مدينتي قورينة وبرقة . لقد لاحظنا أن الفرس خربوا مدينة برقة في أعقاب قتل أهلها لآركيسيلاوس

1 Idem.

الثالث وحميه في أواخر سنة ٥١٦ ق . م . أو أوائل سنة ٥١٥ ق . م . ولم يبق في هذه المدينة سوى جالية قليلة ممّن كانوا يمتون بصلة القربى للأسرة الملكية الحاكمة في قورينة ويؤيدونها . أما بالنسبة لقورينة فإن الملكة فيريتيما لم تعد إليها بعد فتك القوات الفارسية بأهالي مدينة برقة وإنما رافقت تلك القوات في عودتها إلى مصر مارة بقورينة . ولقد أخبرنا هيرودوتس أن قائد البحرية الفارسية بدريس اقترح أثناء عبور الحملة الفارسية بقورينة في طريق عودتها لمصر أن تقوم تلك الحملة بالاستيلاء على هذه المدينة ، فهل كان اقتراحه ذاك بإيعاز من الملكة فيريتيما؟ وبعد اجتياز الحملة لقورينة ندم قائداها على عدم استيلائهما على قورينة وحاولا أن يعيدا الكرة فتصدى لهما أهلها وأغلقوا أبواب المدينة في وجه القوة الفارسية . فهل كان هذا الموقف من جانب أهل قورينة ناتجاً عن كرههم للفرس الذين نصبوا أنفسهم حماة للنظام الملكي القوريني البغيض وحاولوا أن يفرضوه على برقة وقورينة بحد السيف ؟ وهل كان ذلك الكره سبباً في حمل أهل قورينة وبرقة على العدول مؤقتاً عن النظام الملكي وعلى إقامة نوع من الحكم الديموقراطي في كل من المدينتين ؟

إن النزاع بين الأسرة المالكة والشعب في قورينة بدأ منذ أن تضخم عدد سكان هذه المدينة في عهد باتوس الثاني السعيد (٥٧٥ — ٥٥٤ ق . م .) وبلغ ذروته في عهد باتوس الثالث الأعرج (٥٤٤ — ٥٢٩ ق . م .) الذي قبل بإصلاحات ديموناكس الدستورية التي أدت في واقعها إلى نقل سلطة الحكم من الأسرة المالكة إلى الشعب ، وتركت للملك بعض الامتيازات والمناصب الكهنوتية فقط . وعلى ضوء هذه الحقائق القليلة المعروفة عن هذه الفترة فأنا ميال للاعتقاد أن برقة وقورينة أجمعتا على كره النظام الملكي الموالي للفرس وأقامت كل منهما نوعاً من الحكم الديموقراطي خلال الخمس عشرة سنة الباقية من القرن السادس ق . م . (٥١٥ — ٥٠٠ ق . م .) ، فهل جربت قورينة من جديد أن تبعث الحياة في دستور ديموناكس ؟ وهل حذت برقة حذوها ؟

أما كيف أُعيد النظام الملكي إلى قورينة فإن مصادرنا لا تسعفنا بشيء يذكر في هذا الخصوص . ولعل أحسن ما يمكن أن نتكهن به هو أن نقول إن التجربة الديموقراطية الثانية في قورينة آلت إلى الفشل ممّا مهد السبيل أمام باتوس الرابع « الوسيم » لاستعادة عرش أسلافه في قورينة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد . أو مطلع القرن الخامس قبل الميلاد . ونحن نكاد لا نعرف عن باتوس الرابع هذا شيئاً سوى اسمه ولقبه وفوزه في الألعاب البيثية سنة ٤٦٦ ق . م .

ونحن كذلك لا نعرف عن خلفه آركيسيلاوس الرابع (حوالي ٤٦٢ – ٤٤٠ ق . م .) سوى أنّه كان منهمكاً في استنفار مزيد من المستوطنين الإغريق من مختلف أنحاء بلاد اليونان للقدوم إلى قورينة ، وأنّه أرسل جماعة من هؤلاء المستوطنين الجدد إلى يوسپيريدس تحت قيادة أخيه كارُوتاس (Carrhotas) ليجعل منها ملجأ آمناً يأوي إليه إن دعت الحاجة من مثل قيام ثورة في قورينة ضده مثلاً . ولقد وقع ما كان يخشاه فقد أثار قدوم المهاجرين الجدد نقمة المهاجرين القدماء فثار هؤلاء على الحكم الملكي ممّا حمل آركيسيلاوس الرابع على الفرار إلى يوسپيريدس للنجاة بنفسه ، ولكن المدينة الأخيرة خيبت آماله وأثبتت له أن إجراءاته الاحتياطية السابقة لم تكن فعالة فقد قتل على يد أحد أتباعه سنة ٤٤٠ ق . م . في المدينة التي كان يعتبرها ملجأه الأمين ؛ وبمقتله انتهى عهد النظام الملكي في قورينة وانتهى بذلك حكم أسرة باتوس التي تربعت على عرش قورينة ما يقرب من مائتي سنة .

وقبل أن نمضي في محاولتنا لتتبع تاريخ قورينة يجدر بنا أن نلتفت إلى الوراء قليلاً لنلقي نظرة عامة على بقية ساحل برقة وما أُقيم فيه من مستوطنات إغريقية أخرى .

منذ أن أسست قورينة أصبحت رأس جسر للإغريق فكانوا يأتون إليها ثم ينطلقون منها إلى مواقع أُخرى على ساحل برقة حيث يقيمون مستوطنات إغريقية جديدة . وقد تكون هنالك مستوطنات إغريقية أقامها إغريق قادمون مباشرة من

بلاد اليونان إلا أن الغالب هو أن يأتوا إلى قورينة أولاً ثم ينطلقون منها لإقامة المستوطنة الجديدة . ولقد سبقت الإشارة إلى مدينة برقة وكيف تم تأسيسها . والواقع أن الإغريق تابعوا أسلوبهم الاستيطاني ذاك حتّى انتشرت مستوطناتهم على طول ساحل برقة فأقاموا بالإضافة لقورينة وبرقة مدن توكرة ويوسپيريدس وطلميثة وأپولونيا ودرنس وأنتيپرجوس[1] (= طبرق) . وسنتحدث فيما يلي عن أهم هذه المدن بإيجاز آملين بذلك أن نوفق في تصوير حضارة هذه المنطقة وتاريخها .

١ – قورينة (= سيرين ، قرب شحات الحالية) :

سبق أن بينا كيف نشأت قورينة في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد وكيف راحت تتطور في ظل نظام ملكي من الطراز الإغريقي . ونضيف هنا أنّه ترتب على انقراض أسرة باتوس ونظامها الملكي أمران رئيسيان:

الأول : تقلص نفوذ المدن الإغريقية القائمة هنا وهناك على ساحل برقة وانحصارها داخل أسوارها ، واستمرار كل منها في حكم نفسها بنفسها وفق نوع من الحكم الإغريقي الديموقراطي مع قيام اتحاد إغريقي ينظم العلاقات فيما بين تلك المدن ذاتها من ناحية وفيما بينها وبين غيرها من الناحية الأخرى .

والثاني : ابتعاد القبائل الليبية عن الساحل وانفرادها بتصريف شؤونها .

وأدى هذا الوضع الجديد إلى قيام نوع من التفاهم والتعاون بين الليبيين والإغريق اقتضته المصلحة الاقتصادية المشتركة فقد كانت المدن الإغريقية في حاجة لما تنتجه القبائل الليبية وما يأتي عن طريقها من داخل ليبيا وأواسط إفريقيا خاصة السودان ، كما إن القبائل الليبية لم تكن تستطيع أن تستغني عن الساحل ومدنه الإغريقية وما يأتي عن طريقها من وراء البحر . وعلى مثل هذه الحالة ظلت

١ سميت كذلك لأنها تقابل جزيرة پرجوس اليونانية « Anti - Pyrgos » .

منطقة برقة بأكملها تخضع إسمياً للنفوذ الفارسي في مصر وتصرف شؤونها بذاتها عملياً خلال ما يزيد عن قرن من الزمن (٤٤٠ – ٣٣٣ ق . م .) أي ما بين انقراض أسرة باتوس في قورينة وظهور الاسكندر الكبير ، ملك مقدونيا ، الذي اكتسح الإمبراطورية الفارسية ودخل مصر سنة ٣٣٣ ق . م . حيث قام بزيارة معبد آمون في سيوة وأضفى على نفسه صبغة الألوهية بإعلان أنّه هو ابن الإله زيوس – آمون . وفي ذلك الحين قدمت له القبائل الليبية والمدن الإغريقية في منطقة برقة فروض الولاء والطاعة مشفوعة بما أمكنها من هدايا . وأصبحت منطقة برقة جزءاً من إمبراطورية الاسكندر الكبير . وبعد وفاته قسمت إمبراطوريته بين خلفائه الثلاثة فكانت مصر من نصيب البطالمة وظلت منطقة برقة تابعة لها وخاضعة لنفوذ البطالمة الإغريق ، ملوك مصر .

ونحن إذا بحثنا عن عصر ذهبي لقورينة نستطيع أن نقول إن عصرها الذهبي هو الفترة التي بدأت قبيل انتهاء الملكية أي في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت مع انتهاء القرن الرابع قبل الميلاد أي بعيد بداية العصر البطلمي بقليل . ففي هذه الفترة أقامت قورينة نظام حكم ديموقراطي وتخلت عن سياسة التوسع على حساب جيرانها الليبيين وهي السياسة التي رافقت تاريخها الملكي . وفي هذه الفترة كذلك بلغت ذروة ازدهارها الاقتصادي وتقدمها التجاري والزراعي إلى حد أنها استطاعت وقت المجاعة الكبرى في بلاد اليونان (٣٢٩ – ٣٢٥ ق . م .) أن تنقذ تلك البلاد من براثن الموت جوعاً عندما أمدت أكثر من أربعين مدينة فيها ، بينها أثينا نفسها ، بما يزيد عن مليون بوشل من القمح [1] .

وأثرى أهل قورينة نتيجة للاستقرار النسبي والازدهار الاقتصادي فالتفتوا إلى ترقية عقولهم وأجسامهم مما أدى إلى قيام نهضة فكرية في المدينة حولتها إلى

١ تدل على ذلك لوحة اثرية ترجع إلى سنة ٣٢٠ ق.م. انظر أيضاً :
Le Vêque, Pierre, *The Greek Adventure*, (English Translation), Weidenfeld & Nicolson, London, W1, England, 1968, p. 341.

مركز للتعليم والثقافة والحياة الناعمة . ففيها نشأت مدرسة فلسفية كان قد أسسها أرستبّوس (Aristeppus) ، تلميذ سقراط وأستاذ أبي قورش ، صاحب الفلسفة الأبيقورية ، وبعد وفاة سقراط سافر أرستبوس الظريف إلى مدن مختلفة ، وقضى بعض الوقت في مدينة اسكليّوس (Scillus) بصحبة صديقه اجزينيفون (Xenephon) ، ووقتاً أطول من هذا في مدينة كورنث بصحبة صديقه لايس (Lais) ، ثم ألقى عصا الترحال في مسقط رأسه في قورينة . وكان ثراء الطبقة العليا في هذه المدينة نصف الشرقية قد كون عادات أرستبوس ، ولذلك فقد كان أكثر ما يتفق فيه مع مبادىء أستاذه هو قوله إن السعادة أعظم فضيلة . وكان أرستبوس وسيم الطلعة ، دمث الأخلاق ، بارعاً في الحديث ممّا ساعده على أن يشق طريقه أينما كان ؛ من هذا القبيل أنّه عندما تحطمت السفينة التي كان بها قرب جزيرة رودس ووجد نفسه في ضائقة شديدة على تلك الجزيرة ، ذهب إلى مدرسة للتدريب الرياضي هناك وأخذ يخطب فيها ، فافتتن به رجالها وقدموا له ولأصحابه جميع وسائل الراحة . وعندما فعلوا ذلك قال لهم : إن الآباء يجب أن يسلحوا أبناءهم بثروة يستطيعون أن يحملوها معهم إلى البر إذا تحطمت بهم السفن .

وكانت فلسفته بسيطة وصريحة ؛ فقد كان يقول : إن كل ما نفعله إنّما نفعله طمعاً في اللذة أو خوفاً من الألم حتّى إذا أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا أو ضحينا بحياتنا من أجل قادتنا . وعلى هذا الأساس فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي ما بعده خير ، وأن كل ما عداها ، حتّى الفضيلة والفلسفة ، يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة . وعلمنا بالأشياء ، غير مؤكد ، وكل ما نعرفه معرفة مباشرة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المجردة بل في اللذات الحسية . وليست أعظم اللذات هي العقلية أو الأخلاقية ، بل هي اللذات الجسمية أو الحسية ؛ ولهذا فإن الرجل العاقل هو الذي يسعى وراءها أكثر من سعيه وراء أي شيء آخر ، والذي لا يضحي بخير عاجل في سبيل خير آجل غير مؤكد . والحاضر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنّه لا يقل من حيث

الخير عن المستقبل إن لم يتفوق عليه . وفن الحياة هو انتهاب اللذائذ وهي عابرة والاستمتاع بكل ما نستطيع الحصول عليه في الساعة التي نحن فيها . وليست فائدة الفلسفة في أنها قد تبعدنا عن اللذة ، بل فائدتها في أنها تهدينا إلى أن نختار : أحسن اللذات وننتفع بها . وليس صاحب السلطان على اللذات هو الزاهد المتقشف الممتنع عنها ، بل هو الذي يستمتع بها دون أن يكون عبداً لها ، والذي يستطيع بعقله أن يقارن بين اللذائذ التي تعرضه للخطر والتي لا تعرضه له .

وإذن فقد كان محور فلسفة أرستيبوس هو دعوة الناس إلى الثقة بمشاعرهم وأحاسيسهم مع ضبطها بالحكمة القائلة : إن الإنسان السعيد حقاً هو الذي تعلم الحقيقة وانتصر على مشاعره فأصبح سيداً للمتعة وليس عبداً لها . ويقول أرستيبوس نفسه في تلخيص فلسفته هذه :

« إن الحكمة ليست في السعي وراء الكمالات الخيالية ، التي ليس لها وجود إلاّ في رؤوس الفلاسفة ، كما إن الحكمة لا تكون بالجري وراء الشهوات واللذات الحسية التي تورث صاحبها المرض والندم ووخز الضمير ، ولكن الحكمة في أن نحيا حياة معتدلة فلا نشغل أفكارنا بالجري وراء حلم خادع من المثل العليا الزائفة ، أو في الجري وراء لذّات حسية تعرضنا للخطر ، إذ إننا نكون في الأولى سذجاً مخدوعين ، بينما نصير في الثانية أسرى لهذه اللذات أو عبيداً لها . والرجل الحكيم هو الذي يظهر الاحترام المقرون بالحكمة والدهاء تجاه الرأي العام والشرائع والعادات ولكنه يعمل بقدر المستطاع على ألاّ يكون سيداً لأي إنسان أو عبداً له » .

وفي مجال الأدب نبغ في قورينة عدد من فحول الشعراء كان من أوائلهم أجاممنون (Agamemnon) في القرن السادس قبل الميلاد ، وكلّيماخوس (٣١٠ — ٢٤٥ ق . م .) والجغرافي العظيم « أراتسثنيس » في القرن الثالث قبل الميلاد .

وإلى جانب الفلسفة والأدب ازدهرت في قورينة فنون الرقص والموسيقى ، وزاد عدد سكانها حتى تجاوز المائة ألف نسمة ، وترقت فيها الألعاب الرياضية

حتى إن ... [illegible]
دورة الألعاب الأولمبية التي عقدت بعد هذا التاريخ بسنة .

أما في المجال الاقتصادي المزدهر فقد كانت قورينة ومعها أبولونيا (= سوسة) همزة الوصل بين الدواخل الليبية وأواسط إفريقيا من ناحية وعالم ما وراء البحر من الناحية الثانية . فكانت تصدر إلى جانب القمح حبوب الأصيلة ونبات السلفيوم (Silphium) البري الذي تظهر صورته على النقود القورينية خلال عدة قرون والذي كانت أسرة باتوس المالكة تحتكر التجارة به نظراً لأهميته كعلف مسمن للمواشي من ناحية وكعقار مطهر وتابل لذيذ من الناحية الأخرى . ويبدو أن هذا النبات قد انقرض في أواخر العهد الروماني نظراً لانتشار رقعة الأراضي المزروعة ولعدم رغبة الليبيين في الإبقاء على نبات بري لا يستفيد منه غير الطبقة الحاكمة البغيضة . وإلى جانب هذه السلع كانت تروج سلع أخرى أهمها العبيد والذهب والعاج والتمور والخمور وزيت الزيتون والذرة والأغنام والمواشي وريش النعام .

هذا بالنسبة للتجارة ، أمّا الزراعة فلا شك أن سكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية قد تحولوا إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي . ولندع هيرودوتس يحدثنا عن هذا الموضوع . يقول هيرودوتس :

« لا أظن أنّنا نستطيع أن نقارن من حيث خصوبة التربة بين ليبيا وكل من آسيا وأوروبا باستثناء منطقة واحدة تسمى منطقة الكنبس [وادي كعام] . وقد سميت كذلك نسبة للنهر الذي ترتوي منه . ولكن هذه المنطقة على أي حال تختلف كثيراً عن بقية ليبيا ولا تقل جودة عن أي بلد في العالم بالنسبة لإنتاج الحبوب . فالتربة هنا ، بعكس ما هي عليه الحال في أي مكان آخر ، سوداء وترويها الينابيع فهي لا يخشى عليها من الجفاف من ناحية ولا من التلف بسبب الفيضانات من الناحية الأخرى (ويذكر بهذا الصدد أن المطر يسقط في هذه المنطقة من ليبيا) . ويعادل إنتاج المحاصيل في هذه المنطقة إنتاج نظيرتها في بابل وهناك تربة جيدة أيضاً

حول يوسبيريدس ، فهي في المواسم الممتازة تعطي من الغلة مائة ضعف ما بذر فيها ، ومع ذلك فإن منطقة الكنبس تعطي ثلاثة أضعاف معدل إنتاج منطقة يوسبيريدس . أمّا أراضي قورينة الواقعة في أعلى قسم من المنطقة الليبية التي يقطنها البدو الرحل فتنفرد بميزة خاصة بها تتلخص في أنها تتمتع بثلاثة مواسم غلة في السنة الواحدة : ويتمثل الموسم الأول في الأراضي القريبة من الشاطئ ، فمحاصيلها تنضج مبكرة ، وما إن يفرغ أهلها من جنيها حتى تكون محاصيل التلال — المنطقة المتوسطة الواقعة فوق الحزام الساحلي — صالحة للجني . وعندما يفرغ الأهلون من جني هذا المحصول الثاني تكون محاصيل القسم الجبلي المرتفع قد نضجت وصارت صالحة للقطاف . وهكذا فإنّه في الوقت الذي يكون الأهلون قد أكلوا أو شربوا محصولات الموسم الأول يجدون أن محصولات الموسم الأخير قد بدأت ، مما يعطي أهل قورينة السعداء فصل خريف مستمر لمدة ثمانية أشهر متتالية »[1] .

ومن الواضح من أقوال هيرودوتس أن أهل قورينة كانوا يكثرون من زراعة الحبوب خاصة القمح والشعير ثم زراعة أشجار الفواكه وخاصة شجيرة العنب وأشجار النخيل ، وهما صنفان كانوا يصنعون مشروباتهم من ثمارهما . وبالإضافة لذلك فقد اشتهرت برقة بالذرة وزيت الزيتون والتفاح والعصفر وروح الزهر وتربية الأغنام والمواشي والخيول السريعة وبإنتاج الأصواف ونبات السلفيوم (الأنجدان) الذي كان علفاً ممتازاً للحيوانات وكانت عصارته عقاراً مفيداً في علاج الأمراض البشرية والحيوانية والنباتية ، وكان إذا أضيف القليل منه للطعام ، وخاصة إلى أطباق السمك ، أضفى عليه نكهة خاصة مشهية . ولكن هذه الثروة الزراعية المزدهرة التي كانت بحق عماد ثروة قورينة كثيراً ما كانت تتعرض لغزو الجراد ، وفي مثل تلك الحال كان على جميع السكان أن يخرجوا للإسهام في مكافحته والقضاء عليه ، والذين كانوا يتهربون منهم من ذلك الواجب كانوا يتلقون نفس العقاب

١ انظر الملحق « ب » ص ٦٨٧ — ٦٨٨ أو آخر الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتس

الذي كان يتلقاه الفارون من الخدمة العسكرية[1] .

ومع نهاية القرن السادس قبل الميلاد كانت مدن برقة قد أصبحت مراكز تجارية هامة وإن لم تبلغ مبلغ قرطاجة ، فقد كانت قورينة تتاجر مع المدن الإغريقية في جزر البحر الأبيض المتوسط وساحله الشمالي . وكانت تجارتها في الوقت ذاته تسير نشيطة مع إفريقيا الوسطى عن طريق واحة أوجلة (الواقعة على بعد مائة وخمسين ميلاً إلى الجنوب من أجدابية) ومنها إلى الجنوب الغربي عبر الصحراء إلى مرزق أو إلى الجنوب الشرقي إلى واحة سيوة . ونتيجة لهذا الاقتصاد المزدهر في مجالي الزراعة والتجارة صارت قورينة في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد تعتبر إحدى العواصم المهمة في العالم الإغريقي .

نظام الحكم الإغريقي في قورينة في العصر الملكي :

لقد ألمحنا سابقاً بالشكل العام لنظام الحكم الملكي الوراثي الذي كان سائداً في قورينة خلال أول قرنين من حياتها . وبالرغم من قلة مصادرنا عن العصر الملكي في قورينة فإنّه لا بد لنا أن نتذكر حقيقة أساسية عامة تكاد تصدق على المجتمعات البشرية في كل مكان وزمان ألا وهي أن الإنسان حريص دائماً على أن ينقل معه تراثه وعاداته وتقاليده . إن هذا القول يصدق إلى حد كبير على حركة التوسع الإغريقية ، فالمعروف بشكل عام أن المستوطنة الإغريقية خارج بلاد اليونان كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمدينة الأم وتتأثر بها وتؤثر فيها إلى حد كبير . ولما كانت قورينة مستوطنة دورية فلا نعتقد أننا نجافي الحقيقة إذا افترضنا أن تنظيمها السياسي كان إلى حد كبير صورة عن التنظيم السياسي في البلد الأم وهي جزيرة ثيرا الدورية ، وقوام ذلك التنظيم هو أن يوزع المواطنون في المدينة إلى ثلاث قبائل . ولقد سبق أن علمنا من هيرودوتس أن المهاجرين الأول من

1 Wright, John, *Libya*, The Nations of the Modern World series. London, Ernest Benn Limited, 1st Edition, 1969, p. 43.

ثيرا كانوا يمثلون الأقسام السبعة لسكانها ؛ وإذن فلا بد أنهم نظموا أنفسهم على شكل قبائل ثلاث تضم الأقسام السبعة – على غرار التنظيم الذي كان سائداً في ثيرا – منذ أن استقروا في قورينة بزعامة ملكهم باتوس . ومما يؤيد هذا الرأي أن المشرع ديموناكس قسم مواطني قورينة إلى ثلاث قبائل عندما استدعي لإصلاح دستورها في عهد باتوس الثالث الأعرج . ولعل ديموناكس إنما كان يضفي الصبغة الشرعية على وضع كان قائماً . ومنذ نشوء قورينة قسمت أراضيها بين القبائل الثلاث فتكونت بذلك أول طبقة من الأرستوقراطيين المؤسسين ، ملاكي الأراضي . ولكن لما كان عدد هذه الطبقة قليلاً[1] فإن قورينة سارت بين الحين والآخر على سياسة توزيع هبات من الأراضي لمن يرغب في الهجرة إليها من الإغريق ، وذلك لكي تدعم مركزها وتقوي وجودها في منطقة ساحل برقة . وخير مثال على هذا هو ما ذكره هيرودوتس من تحريض موحى دلفي للإغريق على الهجرة إلى قورينة في مطلع عهد باتوس « السعيد »[2] وهنالك مثال آخر هو ما فعله آركيسيلاوس الثالث الذي أقطع الأراضي في قورينة لكل من التفّ حوله من الإغريق وآزره في استرجاع عرشه[3] . ولما كنا نعرف أن ملكية الأرض هي الأساس الذي ارتكزت اليه الأرستوقراطية الأولى في قورينة فإنا نعتقد أن كل مهاجر إغريقي جديد قدم لقورينة بعد أن حصل سلفاً على ملكية للأرض فيها كان ينضم لإحدى قبائلها الثلاث ويسهم بذلك في تقوية أرستوقراطيتها الأولى وتوسيعها . وبهذا فنحن نعارض ما ذهب إليه البعض من قصر الطبقة الأرستوقراطية على الملاكين الأول ونسلهم ، وتقرير أن كل المهاجرين الذين قدموا لقورينة بعد قيامها وجدوا أنفسهم في

١ انظر ص ٢٣٩ أعلاه حيث يذكر هيرودوتس أن عدد المهاجرين المؤسسين كان عبارة عن حمولة سفينتين من ذوات الخمسين مجدافاً أي مائتي مهاجر .
٢ انظر ص ٢٤٤ أعلاه .
٣ انظر ص ٢٤٧ أعلاه .

وضع التابع بالنسبة لطبقة المستوطنين الأوائل[1]. ولما كان لا بد من وجود الأتباع فالتفسير المعقول هو أن نقول إن المهاجرين الجدد الذين أجبرتهم ظروفهم الجديدة في قورينة على أن يكونوا أتباعاً للأرستوقراطيين الأوائل هم أولئك الإغريق الذين قدموا إلى قورينة دون أن يؤمنوا لأنفسهم ملكية مسبقة ، وهم أيضاً صغار الملاكين الذين رأوا بالتجربة أنهم لا يستطيعون البقاء دون الالتجاء إلى غيرهم من كبار الملاكين ، وهم أيضاً العمال الفنيون والصناعيون إن صح التعبير . ويضاف إلى هؤلاء جميعاً بعض الليبيين الذين تأغرقوا وربما أيضاً بعض الإغريق ممن كانوا من أمهات ليبية .

عند هذا الحد تتبلور في ذهننا صورة واضحة لمجتمع قورينة ، فهو مجتمع طبقي هرمي تنقصه الطبقة المتوسطة بينما تتكون قاعدته من الأتباع وتتربع قرب قمته طبقة أرستوقراطية من الملاكين ويقوم فوق الجميع ملك مطلق جمع في يديه مقاليد السلطات الدينية والعسكرية والمدنية .

وإزاء النقص في مصادر هذا العصر لا بد لنا أن نلجأ ثانية إلى القياس على ما كان يجري في المدن الإغريقية في بلاد اليونان ذاتها . وعلى هذا فإن الملكية في قورينة كانت شبيهة بملكية المدن الإغريقية في اليونان . ولا بد أنه كان لقورينة منذ مرحلة مبكرة في تاريخها مجلس شيوخ Gerousia[2] ، وهي كمستوطنة دورية لا بد أيضاً أنها كانت بها هيئة الإيفور الخمسة Ephors[3] الذين ربما كان الملك يعينهم ويعهد إليهم ببعض سلطاته القضائية . وسنلاحظ أنه بالإضافة إلى هذين المجلسين كان في يوسبيريدس مجلس ثالث هو مجلس

١ انظر عبد العليم ، مصطفى كمال ، دراسات في تاريخ ليبيا القديم ، منشورات الجامعة الليبية ، المطبعة الأهلية ، بنغازي ، ١٩٦٦ ، ص ١٢٥ – ١٢٨ .
٢ و ٣ تشير مصادر العصر البطلمي إلى وجود هذين المجلسين في قورينة في عصر البطالمة . وربما كان الأول منهما هو الذي قصده هيرودوتس عندما ذكر أن الملكة فيريتيما كانت تأخذ مقعدها في مجلس قورينة نيابة عن ابنها آركيسيلاوس الثالث الذي كان لاجئاً في برقة . انظر أيضاً ص ٢٤٧ أعلاه .

الشورى Boule . ولما كان من المرجح أن الذين أقاموا مستوطنة يوسپيريدس هم إغريق من قورينة فإن وجود مجلس شورى في يوسپيريدس يشجع الافتراض أن قورينة كان لها مثل ذلك المجلس .

وإذا سلمنا بوجود هذه المجالس من وقت مبكر في تاريخ قورينة فإننا لا بد أن نستنتج أن النزاع الذي كان يقع داخل أسرة باتوس المالكة كالذي حصل بين آركيسيلاوس الثاني وإخوته إنما هو نزاع بين الملكية والأرستوقراطية . وإذن فإن إصلاحات ديموناكس الدستورية التي نقلت الحكم من الملك إلى الشعب كانت في الواقع انتصاراً للأقلية الأرستوقراطية على الملكية وليس ثورة ديموقراطية في دستور المدينة . ويذكر بهذا الصدد أن التطور نحو الديموقراطية في بلاد الإغريق الأم سار على نمط مشابه فانتقلت السلطات من يد الملك إلى يد طبقة النبلاء أو إلى يد طاغية تولى مقاليد الأمور عن طريق غير شرعية ثم انتقلت بعد ذلك للشعب فصار يحكم نفسه بنفسه وهو ما نعنيه بالحكم الديموقراطي . ولا بد أن قورينة أقامت نوعاً من الديموقراطية فيها في الفترة التي انقضت بين نهاية أسرة باتوس الحاكمة سنة ٤٤٠ ق . م . ودخول برقة في حوزة البطالمة بعد سنة ٣٢٢ ق . م .

٢ – أپولّونيا (= سوسة) :

بعد تأسيس قورينة بقليل بدأ أهلها بتأسيس ميناء لمدينتهم في مكان مناسب وقريب فوقع اختيارهم على المكان الذي لا تزال آثاره قائمة إلى الآن وسموا المستوطنة الجديدة أپولّونيا نسبة لأپولّو إلههم وإله مدينتهم قورينة . ولقد ظلت أپولّونيا تعتمد كلية على قورينة حتى العهد البطلمي عندما بدأت أهميتها كميناء تنمو وتزداد خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد . وطيلة العصر الذي كانت تعتمد فيه على قورينة كان ينظر إليها باعتبارها ميناء قورينة وكأنها جزء من قورينة وليس مستوطنة مستقلة . وعلى ذلك الأساس فإن الحياة فيها كانت خاضعة

لما تمليه قورينة . أما النشاطات التي كانت تجري في هذا الميناء فكانت تصدير واستيراد ما تقرر قورينة تصديره أو استيراده بالإضافة إلى تقديم الخدمات للمسافرين من قورينة والقادمين إليها . ومن المؤسف أن البحر ابتلع ما يزيد عن ثلث هذه المدينة فجعل من الصعب تحديد الميناء الإغريقي وأرصفته وإن كان من المحتمل أنه أقيم إلى الشرق من النتوء الصخري البارز في البحر وأنه كان يضم بركة كليوپتره .

٣ – برقة (= المرج) Barce, Barka :

لقد مرّ بنا كيف قامت جماعة من إغريق قورينة بتأسيس هذه المدينة بمساعدة قبيلة الأوسخيزي الليبية سنة ٥٥٠ ق . م . وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف عن هذه المدينة سوى أنها كانت دون شك تستغل السهل الخصيب المحيط بها بالزراعة وبتربية الخيول البرقية المشهورة بأصالتها وسرعتها وبإحرازها قصب السبق في المباريات اليونانية كما حدث في عهد الملك باتوس الرابع عندما فازت قورينة فوزاً باهراً في الألعاب البيثية سنة ٤٦٦ وفي سباق العربات سنة ٤٦٢ ق . م . بفضل الخيل البرقية . وقد حمل فوز قورينة في الألعاب البيثية الشاعر الإغريقي الكبير پندار على تخليد هذه المناسبة في قصيدتين رائعتين من قصائده .

٤ – طلميثة :

تقع طلميثة على الساحل مقابل مدينة برقة من الشمال وقد استخدمت كميناء لمدينة برقة . وكانت هذه المستوطنة في الأصل تقوم محل المدينة الخالية إلى جانب المرفأ . ويدل ما اكتشف من آثارها على أنها كانت قد خططت بعناية ولكن الآثار التي تم كشفها فيها حتى الآن ترجع إلى عصور لاحقة وسنعرض لها في حينه . وتدل أقدم الخزفيات التي اكتشفت في طلميثة وأپولّونيا على أن هاتين المدينتين أسستا بعد تأسيس قورينة سنة ٦٣١ ق . م . بقليل . وعلى هذا الأساس فإن طلميثة لا يمكن أن يكون أسسها أناس من برقة كميناء للمدينة الأخيرة لأن

طلميثة أقدم من برقة وإن كانت صارت تؤدي غرض الميناء بالنسبة لبرقة وتسمى « ميناء برقة » .

٥ – توكرة :

نستدل من أقوال پندار على أن مهاجرين من قورينة هم الذين قاموا بتأسيس توكرة وأپولّونيا . وقد أيد هذا القول ما اكتشف من حفريات يرجع تاريخها إلى ما بعد تأسيس قورينة سنة ٦٣١ ق . م . وكان المتعارف عليه عامة أن توكرة أسسها قادمون من برقة ولكن الأخيرة لم تؤسس إلا في وقت متأخر في عهد آركيسيلاوس الثاني . وعلى ذلك فليس هنالك ما يبرر ما ذهب إليه البعض من أن توكرة كانت تشاطر برقة كراهيتها لقورينة ، في القرن الذي تلا تأسيس برقة ، وأنها لذلك تأثرت بالغزوة الفارسية لبرقة سنة ٥١٥ ق . م . وإن كان الفرس قد مروا بها لا محالة أثناء تلك الغزوة وهم في طريقهم إلى يوسپيريدس . وليس هنالك في الآداب الكلاسيكية ولا في الحفريات التي أجريت حتى الآن ما يدل على أصل السكان الذين استوطنوا توكرة ولكن يكاد يكون من المؤكد أنهم قدموا من قورينة وإن كان هنالك احتمال أنهم كانوا إغريقاً جاؤوا مباشرة إلى توكرة من بلاد اليونان دون المرور في أپولّونيا ميناء قورينة . ويقول اصطفانوس (Stephanus) إن هذه المستوطنة سميت باسم تويكيرا (Taucheira) ابنة أوتاندروس (Autandros) ، وهما اسمان لا يذكرهما أي كاتب آخر [1] .

٦ – يوسپيريدس (= بنغازي) :

يؤكد جودتشايلد [2] أن مستوطنين من قورينة أو برقة قاموا قبل سنة ٥١٥ ق . م .

١ Broadman, John, and Hayes, John, *Excavations at Tocra* 1963 — 1965, *The Archaic Deposits* I, (The British School of Archaeology at Athens, Thames and Hudson, the Alden Press, Oxford, England, 1966), pp 3 — 13.

٢ Goodchild, R.G., *Benghazi the Story of a City*, Department of Antiquities, Cyrene (Shahat), Cyrenaica, Libya, 2nd edition, Lamin Hasni's Press, P. 1

بتأسيس مستوطنة يوسپيريدس الأولى على الطرف الشمالي من سبخة السلماني الحالية حيث توجد الآن مقبرة سيدي عبيد الفيتوري [1] . أما لماذا اختاروا ذلك الموقع على طرف السبخة فتعليله أن السبخة كانت آنذاك عبارة عن بحيرة ضحلة متصلة بالبحر وصالحة لملاحة القوارب والسفن الصغيرة التي كانت دون شك تصلها بالميناء القديم الذي ربما كان يقع إلى الغرب قليلاً من المنارة الحالية .

وأقدم إشارة ليوسپيريدس هي تلك التي أوردها هيرودوتس في حديثه عن الحملة الفارسية على مدينة برقة سنة ٥١٥ ق . م . [2] ، وإذن فلا بد أن هذه المدينة كانت قائمة قبل ذلك التاريخ . وأقدم عملة وجدت لها حتى الآن ترجع لسنة ٤٨٠ ق . م . ويظهر على أحد وجهيها نبات السلفيوم بينما تظهر سمكة دُلفين على الوجه الآخر [3] .

ولا بد أن يوسپيريدس كانت معرضة أكثر من غيرها لغارات القبائل الليبية المقيمة حول خليج سرت الكبير لأنّه كان من السهل على تلك القبائل أن تتقدم عبر السهول إلى يوسپيريدس . ولعل البحيرة هي التي كانت توفر بعض الحماية لهذه المستوطنة . من هذا القبيل ما نسمعه من ثوسديديس (Thucydides) عن قبائل ليبية تضرب حصاراً على يوسپيريدس سنة ٤١٤ ق . م . فلا يرفعه عنها إلا وصول أسطول إغريقي كان في طريقه إلى سيراقوسة بقيادة رجل اسمه جيليپّوس (Gylippus) فساقته الرياح إلى يوسپيريدس . إنّنا لا نشك في أن هذا الوضع القلق دعا إلى استقدام جماعة جديدة من المستوطنين الإغريق ولكنهم لم يمكثوا إلا قليلاً ثم عادوا إلى مدينتهم مسينا سنة ٣٦٩ ق . م . وآخر مرة ظهرت فيها يوسپيريدس على المسرح السياسي كانت سنة ٣٢٢ ق . م . عندما ضلعت مع برقة في تأييد مغامر اسمه ثبرون (Thibron) كان يطمع في اقتطاع

١ أحد أبناء زليطن ورئيس نظام العروسية في برقة .

٢ انظر الصفحة ٢٥٠ أعلاه .

٣ ربما كانت صورة الدلفين رمزاً لپوزايدن إله البحر .

جزء من برقة يقيم فيه ملكاً لنفسه . ولكن قورينة وحلفاءها من الليبيين تصدوا لذلك المغامر وتمكن أحد الليبيين من أسره في النهاية حيث قام أهل توكرة بشنقه . ولا شك أن يوسبيريدس قاست نتيجة تورطها في ذلك النزاع وضلوعها مع الطرف الخاسر .

أما ما نعرفه عن التنظيم السياسي لهذه المدينة فهو قليل وينحصر في نقش مهم عثر عليه في موقع يوسبيريدس ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٥٠ ق . م . وهو يبين أن هذه المستوطنة كان لها مجلس قضاة (Ephors) ومجلس شيوخ (Gerousia) وفي النقش يقترح الشيوخ على مجلس الشورى (Boule) تكريم اثنين من أبناء مدينة سيراقوسة لقاء خدمات معينة كانا قدماها ليوسبيريدس . ولعل وجود هذه المجالس دليل على أن التنظيم السياسي ليوسبيريدس ، وربما لمعظم المستوطنات الإغريقية في برقة ، إن لم نقل كلها ، كان بصفة عامة مشابهاً للتنظيم السياسي في قورينة .

وبالنسبة لاسم هذه المستوطنة فقد قطع جودتشايلد بأن يوسبيريدس (Euesperides) هو أصح وأقدم اسم لها[1] . وقد ألبس هذا الاسم أكثر من ثوب من ثياب الأساطير الإغريقية القديمة نظراً للشبه بينه وبين الأسماء الواردة في أساطير هي أقدم من المدينة ذاتها ، فقد ذهب عدد من الكتاب القدامى إلى أنها سميت هسبيريدس (Hesperides) نسبة للأخوات الأسطوريات الأربع[2] ، بنات هسبيروس ، اللواتي كن يحرسن البستان المسمى باسمهن والذي كانت الإلهة هيرا « Hera » قد تلقته كهدية بمناسبة زواجها من الإله زيوس (Zeus) . وتقول الأسطورة إن هذا البستان كان مليئاً بشجر التفاح الذي يثمر الذهب ولذلك فقد وكل الأخوات الأربع بحراسته نظراً لما كن يتحلين به من قدرة عجيبة على الغناء

١ Goodchild, R.G., *Benghazi, The Story of a City*, Department of Antiquities, Cyrene (Shahat), Cyrenaica, Libya, 2nd edition, Lamin Hasni's Press, 1962.

٢ Their names were : Aegle, Erytheia, Hestia and Arethusa.

الساحر . ووضع الأفعوان المخيف لادُن (Ladon) تحت تصرفهن لكي يساعدهن في حراسة البستان . وإمعاناً في هذا الاتجاه فإنهم تعرفوا على بحيرة تريتونس (Tritonis Lacus)[1] وقالوا إنها هي البحيرة الواقعة إلى الجنوب من المدينة القديمة ، كما تعرفوا على البستان نفسه في أحد المنخفضات في موقع سواني بن عصمان على بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الشرق من بنغازي وإلى الشمال من الطريق إلى مطار بنينا . وقريباً من موقع البستان وجدوا كهفاً به بحيرة جوفية فاعتبروه نهر ليث ، الذي هو نهر النسيان في العالم السفلي في الأساطير الإغريقية . وكان إلى الشمال الغربي من المدينة نهر سماه الفينيقيون نهر لاثن وهي تسمية تلفت النظر لما فيها من توافق عجيب مع التسمية الإغريقية للأفعوان لادن الذي سبق ذكره .

ويعارض سي . جي . سي هايسلوب (C. G. C. Hyslop) في كتابه (Cyrene and Ancient Gyrenaica) الصادر في طرابلس سنة ١٩٤٥ م . هذه الآراء ويقول إن المؤسسين الإغريق أسموا المدينة يوهسبيريدس ومعناها بالإغريقية « مدينة الغرب السعيدة » نظراً لخصوبة الأرض التي كانت تجاورها من الغرب ، وإن تسميتها هسبيريدس ناتجة عن التباس هذه التسمية على الكتّاب القدامى تحت تأثير ما يعرفونه من الأساطير الإغريقية .

وبالإضافة إلى هذه المستوطنات المشهورة فلا شك أنّه كانت هنالك مواقع أخرى كثيرة على ساحل برقة لا يمكن أن يكون قد فات الإغريق أن يستفيدوا منها ويستغلوها من مثل درنة (Dernis) وطبرق (Antipyrgos) وربما وعين غزالة والبردية . ولكن الحفريات لم تنشط في هذه المواقع لتوقفنا على أحوالها الماضية .

١ After Triton, Son of Poseidon, God of the Sea.

جمهوريات برقة في ظلال الفرس والبطالمة

(٤٤٠-٩٦ ق.م.)

استولى الفرس على مصر سنة ٥٢٥ ق.م ولم يلبثوا حتى بسطوا نفوذهم على برقة خاصة القسم الساحلي منها أي المنطقة الإغريقية[1]. ويبدو أن الفرس لم يركزوا قوات فارسية في برقة بل اكتفوا بإرسال الحملات العسكرية كلما دعت الضرورة، وقنعوا من هذه المنطقة بأن تعلن خضوعها لهم وتدفع لهم الجزية، وتركوا لها مهمة تصريف شؤونها كما تشاء. وقد سبق أن لمحنا في الحديث عن قورينة أن آركيسيلاوس الرابع (حوالي ٤٦٥ــ٤٤٠ ق.م.) كان قد أعلن تبعية قورينة، وهي أهم مدينة إغريقية في برقة، لحاكم مصر الفارسي وحدد الجزية السنوية التي صارت تلك المدينة تدفعها للفرس. ولا بد أن بعض القبائل الليبية في برقة، وخاصة القريبة منها من الساحل، قد خضعت للفرس كذلك[2]. ومما يؤيد هذا القول أننا نسمع عن وجود فرقة ليبية في جيش الملك الفارسي كزركسيس عند زحفه على بلاد اليونان. وتجدر الإشارة هنا إلى أننا لا نسمع شيئاً عن موقف المدن الإغريقية في برقة من الحرب بين الأغريق والفرس طيلة النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد. ولعل الذي حدث هو أن تلك المدن كانت خاضعة للحكم الذي أقامه الفرس في مصر مما حال بينها وبين مدّ يد المساعدة لبلاد الإغريق. هذه ناحية أما الناحية الأخرى

١ كان باتوس الرابع، ملك قورينة، قد اعترف بالتبعية للملك الفارسي قمبيز بعيد استيلاء الأخير على مصر سنة ٥٢٥ ق.م.

٢ انظر ص ٢٤٨ أعلاه.

فتتلخص في بُعد تلك المدن عن بلاد اليونان وعدم التزامها بالارتباط بها مائة بالمائة.

وبعد أن انقرضت أسرة باتوس حوالي سنة ٤٤٠ ق.م. سادت منطقة برقة حالة من الفوضى وعدم الاستقرار مما شجع بعض القبائل الليبية على مهاجمة المدن الإغريقية كما حدث لمدينة يوسبيريدس سنة ٤١٤ ق.م[1]. وفي الوقت ذاته كانت المدن الإغريقية ترزح تحت وطأة صراع داخلي احتدم بين الطبقة الأرستوقراطية، التي نصبت نفسها في مراكز القوة والحكم بعد زوال الملكية، وبين البقية الباقية من سكان تلك المدن. واستمرت برقة تقاسي من الفوضى والصراع الداخلي إلى أن حل عهد الاسكندر الكبير الذي اكتسح الإمبراطورية الفارسية ودخل مصر سنة ٣٣٣ ق.م. فبادرت المدن الإغريقية في برقة وفي مقدمتها قورينة بإعلان تبعيتها له لدى سماعها عن بلوغه پاريتونيوم «Paraetonium» (= مرسى مطروح). وقد أعربت قورينة بالذات عن ولائها له وترحيبها به بتقديم هدايا كان من جملتها ثلاثمائة جواد وخمس عربات حربية من ذوات الخيول الأربعة. وعندما زار الاسكندر الكبير معبد آمون في سيوة بادر عدد من القبائل الليبية بتقديم ولائهم له. والمعروف أن الاسكندر الكبير «عين – قبل مغادرته مصر إلى الشرق – أبولّونيوس بن خارينوس (Apollonios Charinos) حاكماً على ليبيا [منطقة برقة]»[2]. وإثر وفاة الاسكندر الكبير سنة ٣٢٣ ق.م. تقاسم خلفاؤه الثلاثة إمبراطوريته فيما بينهم فوقعت مصر من نصيب حاكمها بطليموس بن لاجوس الذي صار فيما بعد الملك بطليموس الأول الملقب سوتر (Soter) أي المنقذ. وفي أواخر سنة ٣٢٣ ق.م. اندلعت ثورة في قورينة

١ انظر ص ٢٦٥ أعلاه.

٢ نصحي، إبراهيم، تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء)، القاهرة، ١٩٦٦، ج ١، ص ٣٢.

وانتشر لهبها إلى بقية المدن الخمس التي كانت كغيرها من الجمهوريات الإغريقية فريسة للتطاحن الحزبي فاغتنم المغامر الاسبارطي ثبرون (Thibron) والمغامر الكريتي ماناسكليس (Manasicles) تلك الفرصة فتزعم كل منهما فريقاً من الثوار . وتمكن ثبرون من دخول قورينة إلا أن الحزب الديموقراطي فيها لم يلبث أن استولى على السلطة وطرد ثبرون كما طرد عدداً من أغنياء المدينة الأرستوقراطيين . ولكن ثبرون عاد فحاصر قورينة بينما التفّ حوله عدد من الأثرياء المطرودين ولجأ عدد آخر منهم إلى مصر يستنجدون ببطليموس الأول . واغتنم بطليموس تلك الفرصة فأرسل رفيقه أوفلاّس الأولنثي على رأس قوّة برية وبحرية لوضع حد للصراع في المنطقة . واتحد المغامران لمجابهة أوفلاّس ولكنه هزمهما وأسر ثبرون وصلبه . وبمناسبة هذا الانتصار قدم بطليموس نفسه إلى منطقة برقة ونصب أوفلاّس حاكماً عليها . ولكن مدنها ظلت تحتفظ بنظمها الجمهورية في ظل العهد البطلمي الذي كانت منطقة برقة خلاله ملكاً للبطالمة باستثناء فترة استقلالها الوجيزة من ٢٨٣–٢٧٣ ق . م . ولم يكن من السهل على أوفلاّس أن يخضع منطقة برقة فقد ثارت عليه سنة ٣١٣ ق . م . وكادت تطيح به لولا أن بطليموس الأول سارع بإرسال حملة أخمدت الثورة وأعادت أوفلاّس لكرسي الحكم من جديد . وفي سنة ٣١١ ق . م . استقل أوفلاّس ببرقة بتشجيع من أنتيجونس ، قائد عام قوات آسيا الذي كانت علاقاته مع بطليموس الأول قد ساءت . وتحالف أوفلاّس مع أجاثوكليس السراقوسي ضد قرطاجة ولكنهما اختلفا في النهاية فقضى الأخير على أوفلاّس سنة ٣٠٨ ق. م . وكان ذلك من حسن حظ بطليموس الأول . وفي هذه الأثناء وبينما كان بطليموس الأول يترأس حملة ضد بلاد اليونان سنحت له الفرصة ، بمقتل أوفلاّس ، لكي يستعيد برقة فكر عائداً لمصر من أجل تلك الغاية وأرسل ماجاس ، ابن زوجته برنتشي ، على رأس حملة نجحت في استعادة منطقة برقة ، فكافأ بطليموس الأول ماجاس على ذلك النجاح بتعيينه سنة ٣٠٠ ق . م . نائباً عنه في حكمها . ويدل كل هذا

الاهتمام الذي أحاط به بطليموس الأول منطقة برقة على أن « قوريناية [منطقة برقة] كانت تعني مصر مباشرة . . . وقد أثبتت الأيام أن ضم قوريناية لم يزد في قوة بطليموس بل أصبح بمثابة شوكة في جانب البطالمة ، فمن ناحية لم يمتثل أهلها للخضوع لسلطة أجنبية لأنهم اعتادوا على الحرية والاستقلال ، ومن ناحية أخرى كانت الأطماع الشخصية تغري حكامها بالخروج على طاعة الملك »[1] .

الحرب بين قورينة وقرطاجة :

نتيجة للازدهار الذي أصابته قورينة في المجالات المختلفة فإنها أصبحت ، إلى جانب كونها مركز إشعاع ثقافي ، مركزاً للقوة الإغريقية على ساحل برقة . وكان يقابلها بعيداً إلى الغرب على الساحل التونسي مركز ثقافة وقوة فينيقي هو قرطاجة . وبالرغم من أن قرطاجة كانت أعظم شأناً وقوّة من قورينة إلاّ أنّه كان لا بد أن تتعارض مصلحتهما باعتبار أن كلاً منهما كانت تمثل حضارة أصيلة تغاير حضارة الأخرى كما ان كلاً منهما كانت تنتمي إلى قارة مغايرة لقارة الأخرى فهما وإن قامتا على ساحل الشمال الإفريقي إلا أن قرطاجة كانت آسيوية بينما كانت قورينة أوروبية ، وإذن فنحن لا نبالغ إن رأينا في اصطدامهما حلقة صغيرة في سلسلة التصادم بين أوروبا وآسيا . وبالإضافة لذلك كله فإن التنافس بين الفينيقيين القرطاجيين والمستوطنين الإغريق في جزر البحر الأبيض المتوسط كان لا بد أن يؤدي إلى الاصطدام بين أولئك الإغريق والقرطاجيين وبالتالي بين القرطاجيين والقورينيين . ولم يطل الوقت بالمدينتين حتى تنازعتا على تعيين الحدود بينهما في منطقة طرابلس في أعقاب قصة الأخوين فيليني التي سنفصل القول فيها في موضع آخر . وفي هذه المرة توصلتا إلى اتفاقية على الحدود فيما بينهما إلا أن تلك الاتفاقية حسمت النزاع مؤقتاً ولم تحسم العداء الذي ظل قائماً

[1] المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٠

في مكامنه في انتظار ظروف مناسبة تسمح له بالتعبير عن ذاته . وجاءت الفرصة المنشودة في عهد بطليموس الأول ، خليفة الاسكندر الكبير ، عندما استجاب أوفلاّس (Ophellas) حاكم قورينة الذي كان قد استقل بها ، لدعوة تلقاها من أجاثوكليس (Agathocles) ملك سيراقوسة الإغريقي ، الذي كان قد فاجأ قرطاجة ونزل بقواته على البر التونسي ، يحثه فيها على مشاركته في مهاجمة قرطاجة ويؤكد له أنّه سيؤيده ، في حالة الانتصار على قرطاجة ، في أن تكون له ، أي لأوفلاّس ، اليد المطلقة في برقة . وصادفت هذه الدعوة هوًى وطموحاً في نفس أوفلاّس فسار سنة ٣٠٨ ق . م . بجيش يشبه مستوطنة متحركة برجالها ونسائها وأطفالها ، وانضم إليه عدد كبير من أعوانه الليبيين ، وتجشم الجميع مشقة السير المضني حول خليج سرت الكبير في منتصف الصيف القاسي . ولا يعرف ما فعله هذا الجيش بالمستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس وإن كنا نظن أنها فتحت أبوابها أمام القادمين تجنباً للصراع وإراقة الدماء . والمعروف ، على أي حال ، أن عدداً قليلاً جداً من رجال أوفلاّس تمكنوا من العودة سالمين من تلك الحملة ، أما هو نفسه فقد لقي مصرعه على يد حليفه في تونس إثر خلاف نشب بينهما مما أتاح الفرصة لقرطاجة فأجهزت على البقية الباقية من القوات المتحالفة ، وانتهى بذلك التحدي الإغريقي الرئيسي لقرطاجة ولسلطانها في شمال إفريقيا ، ذلك التحدي الذي ورثته روما بعد نصف قرن من الزمن كجزء من التركة الإغريقية فسارت به حتى نهاية الشوط ونهاية قرطاجة في موجة عدوان جديد لأوروبا على إفريقيا وآسيا ممثلتين في قرطاجة . وبمقتل أوفلاّس خضعت برقة للبطالمة من جديد . ولما كان البطالمة ورثاء الاسكندر وخليفته أو نائبه أنتيباتر فإنهم لم يرثوا عنهما جزءاً من الإمبراطورية فقط بل ورثوا أيضاً نظام الحكم والنظام العسكري ونظماً أخرى وعادات وتقاليد تشكل في مجموعها طريقة حياة كاملة . ولتوضيح هذه النقطة نقول إن الإسكندر الكبير كان يعامل المدن الإغريقية أينما وجدت كحليفات حرة ، ولكن خليفته أنتيباتر رغب في معاملتها كرعايا

وكدول مغلوبة تابعة له يضع الحاميات فيما يشاء منها وينصّب في دست الحكم بها أوليجركيات (أقليات) تناصره ، أو طغاة يمالئونه . وقد حذا البطالمة حذو أنتيباتر في هذه السياسة فصاروا يعينون حكاماً أو مندوبين للملك في المدن التابعة لهم ، وفي بعض الأحيان كان الملك البطلمي يتولى بنفسه تعيين واحد أو أكثر من الحكام الرئيسيين الأول كما فعل بطليموس الأول بالنسبة لمنطقة برقة[1] عندما عين ماجاس حاكما لها كما أسلفنا ، وكما فعل بطليموس الثاني فيلادلفوس — وكان ماجاس المذكور إبناً لزوجة أبيه برنيتشي — عندما أقر ماجاس المذكور في منصبه حاكماً لقورينة[2] نيابة عن الملك .

وفي مناسبة التعيين الأولى باشر ماجاس سلطات منصبه كحاكم لقورينة ابتداء من سنة ٣٠٠ ق . م . وبعد سنة ٢٨٣ ق . م . (أي بعد وفاة بطليموس الأول) انتحل ماجاس لنفسه لقب ملك ، ذلك اللقب الذي كان قد سقط من الاستعمال في قورينة منذ انتهاء أسرة باتوس . ولم يكتف ماجاس بكل ذلك بل أعلن استقلاله ببرقة وزحف على مصر سنة ٢٧٤ ق . م . وأشرف على الاسكندرية ولكن الملكة آرسينوي ، زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس الذي أصبح ملكاً لمصر ، نجحت بدهائها في إثارة قبائل المارماريدي الليبية ضده ووراء ظهره في مارماريكا مما جعل حملته تبوء بالفشل ودفعه إلى التوصل لاتفاق مع بطليموس فيلادلفوس وذلك بعقد قران ابن بطليموس فيلادلفوس

١ تارن ، وليم ، **الحضارة الهلينستية** ، الطبعة الثالثة ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٧٣ — ٧٥ .

٢ نصحي ، إبراهيم ، **تاريخ مصر في عصر البطالمة** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء) ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، حيث يقول : « إن المشكلة الرئيسية التي واجهت البطالمة في قورينايئة قد واجهتهم كذلك في كل ممتلكاتهم التي كانت المدن الإغريقية تقوم بالدور الرئيسي في حياتها . وإذا استبحنا لأنفسنا أن نستند إلى الوثائق القليلة التي لدينا في الحكم على موقف البطالمة من رعاياهم الإغريق بوجه عام ، فإننا نرى البطالمة لم يعبأوا كثيراً باستقلال المدن الخاضعة لهم لأن سيطرتهم على هذه المدن تبدو بجلاء في وثائقها الرسمية ، فديباجة هذه الوثائق لا تستهل عادة باسم المدينة وشعبها ومجلسها وحكامها بل باسم الملك » .

وخليفته على برنتشي ابنة ماجاس . وتخليداً لهذه المناسبة قام البطالمة بتغيير أسماء مدن برقة وسموها بأسماء ملكية كما سنبينه فيما بعد . وسقط اللقب الملكي من جديد وعاشت برقة طيلة المائة سنة التالية تحت حكم مصري لم تحدد معالمه [1] .

وإذا نحن ألقينا نظرة على دستور المدينة الإغريقية المتمتعة بالحكم الذاتي من مثل المدن الإغريقية على ساحل برقة ، فإنّنا سنلاحظ لأول وهلة أن ذلك الدستور يبدو وكأنّه ظل على صورته الأولى دون أن تمسه يد التغيير [2] ؛ فقد كان بكل مدينة جمعية تضم شمل أحرارها كما كان لها مجلسها وحكامها وسلطاتها التشريعية ، وماليتها غير المستقرة ، وخلافاتها الداخلية . . . حتى إذا حل الربع الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد كانت الأوليجركية والديموقراطية كنظريتين سياسيتين قد لفظتا آخر أنفاسهما وأخذ الأساس الذي يقوم عليه تكتل الناس يتجه اتجاهات جديدة كالتشيع للبطالمة ، أو للأحزاب الوطنية والروح القومية ، أو للانضواء لطبقة الأغنياء أو الفقراء ، وربما صارت السلطة تنتقل إلى مجلس الشورى أو يتولاها الحكام بعد أن يندمجوا في لجنة واحدة .

على ضوء ما تقدم يمكننا القول إن المدن الإغريقية الواقعة في ممتلكات البطالمة الأجنبية — أي خارج مصر — ومنها مدن برقة كانت خاضعة لهم خضوعاً لا شك فيه ؛ وكانت الضرائب تفرض عليها على أساس تلك الصفة ، كما ان شكل نظام

---

1 Wood, Roger & Wheeler, Mortimer, *Roman Africa in Colour*, Thames & Hudson, London, 1966, p. 16.

٢ حافظ البطالمة على جوهر دستور منطقة برقة واكتفوا بإدخال بعض التعديلات التي كانت تكفل لهم خضوع المنطقة فاحتفظوا لأنفسهم بالامتيازات التالية : ١) الحق في أن يدمجوا في القبائل بعض المواطنين الجدد الذين ربما كانوا من أرباب الإقطاعيات العسكريين في الجيش البطلمي ، ٢) الحق في أن يبدوا إلى المنفيين من أنصارهم بعض حقوقهم ، ٣) الحق في اختيار أعضاء مجلس الشيوخ ، ٤) الحق في تولي منصب الحاكم العسكري « Strategos » ، ٥) التدخل في قضايا المنفيين ، ٦) الحق في منح حقوق المواطنة . انظر أيضاً : نصحي ، إبراهيم ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الثاني ، ص ٣٣٣ .

الحكم كان مرتبطاً بأنموذجه المصري بحيث تخضع المدن في الممتلكات الخارجية لقواد إغريق أو مقدونيين مع جعل الرئاسة في المدن بيد حكام مدنيين ، وربط الشؤون المالية بالديوكيتس (Dioiketes) أي وزير المالية البطلمي الذي كان مقره في الاسكندرية بمصر .

وقد تجلت نظرة البطالمة بصدد اعتبارهم لبرقة ملكاً شخصياً لهم فيما أدخلوه من تغيير على أسماء مدنها الإغريقية وما سموها به من أسماء ملكية :

١ — فقد غيروا اسم توكرة وسموها آرسينوي (Arsinoe) باسم زوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس .

٢ — وغيروا اسم طلميثة الحالية وأسموها بطليموسة (Ptolemais) باسم بطليموس الثاني فيلادلفوس .

٣ — وغيروا اسم يوسبيريدس وسموها برنتشي (برنيقة) باسم ابنة ماجاس زوجة بطليموس الثالث .

ومع كل ذلك فإن برقة ظلت دون شك تحتل مكانة خاصة بين ممتلكات البطالمة خارج مصر ؛ فقد كانت عبارة عن ملحق لمصر يندب لحكمها أحد أعضاء الأسرة البطلمية . ومن الوجهة الاقتصادية كانت برقة ذات أهمية بالغة لأنها منطقة زراعية شديدة الخصوبة إلى حد أنها كانت تعتبر أحد أهراء العالم القديم ، أضف إلى ذلك أنها كانت موطن نوع من أفضل الخيول التي كان البطالمة في أمس الحاجة إليها ، كما ان قورينة كانت منذ تاريخ تأسيسها مركزاً مهماً للتجارة الخارجية . ونحن وإن كنا لا نعرف غير القليل عن التنظيم الاقتصادي في قورينة وبرقة إلا إنّه ممّا يلفت النظر ذلك الشبه القوي في التركيب الاجتماعي بين قورينة وبرقة من ناحية — كما وصفه استرابو — وبين الاسكندرية ومصر من الناحية الأخرى . فقد كان في قورينة عدد كبير من السكان غير الإغريق ، وكان معظمهم من اليهود ، إلى جانب مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة وآخرين

يتمتعون ببعض حقوق المواطنة فقط ، وآخرين من الغرباء الذين لم تكن لهم حقوق مواطنة على الإطلاق . وربما كان بعض هؤلاء الأخيرين من السكان الليبيين الأصليين . أما سكان الريف فقد كانوا عبارة عن مزارعين يستغلون أراضي تابعة إما لقورينة وإما للملك ، وربما كانت هذه الطبقة من المزارعين تشمل بين صفوفها الجنود المتقاعدين المستوطنين .

وإذا ما تذكرنا أن من أهم منجزات العصر البطلمي في مصر في مجال الزراعة إدخال عصر الحديد إلى البلاد على نطاق واسع يسمح للناس باستعمال الأدوات الحديدية استعمالاً شاملاً في حياتهم اليومية ، فإننا لا بد أن نستنتج من ذلك أن البطالمة شجعوا انتشار الأدوات الحديدية الزراعية في برقة كذلك[1] .

أما القبائل الليبية في هذا العصر فإن سكايلاكس (Skylax) الذي تناول هذا الموضوع حوالي سنة ٣٢٠ ق . م . ، أي مع بدء العصر البطلمي في برقة ، يخبرنا أنها كانت موزعة على النحو التالي :

١ — الأدرماخيدي : وكانت ديارهم تمتد فيما يلي مصر غرباً حتى مدينة أبيس (زاوية الرخم إلى الشرق من السلوم) .

٢ — الماورماريدي : وكانوا يعيشون إلى الغرب من الأدرماخيدي وينتشرون في داخل برقة حتى مشارف خليج سرت الكبير .

٣ — الناسامونيون : وكانوا يستوطنون المنطقة إلى الشرق من خليج سرت الكبير في الجنوب الغربي من برقة وينتشرون حتى نصب الأخوين فيليني حيث يقوم الآن القوس الرخامي التذكاري .

---

١ كان الحديد نادر الاستعمال في مصر الفرعونية وكان البطالمة أول من أمد مصر على نطاق واسع بالأدوات الحديدية التي كان معظمها مستورداً . انظر أيضاً :

Rostovtzeff, M., *The Social and Economic History of the Hellenistic World*, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, reprinted 1954, Three Vols., Vol. I, P. 362.

خارطة رقم (٣)

٤ ـ المكاي : وكانت ديارهم تقع بين ديار الناسامونيين في الشرق ونهر كينبس في الغرب .

٥ ـ اللوتوفاجيون أو أكلة اللوتس : وكانوا ينتشرون في المنطقة ، من نهر كينبس إلى جيثس (Giethis) مقابل جزيرة جربة بتونس .

أمّا علاقة الليبيين بالإغريق في هذا العصر فقد كانت علاقة عداء مع المدن الإغريقية في برقة وكانت تتمثل في سلسلة الغارات التي ظلت القبائل الليبية تشنها على تلك المدن بين الحين والآخر ، ليس في العصر البطلمي وحده بل أيضاً في العصور التالية حتى الفتح الإسلامي . وقد اكتشف في قورينة نقش مؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد سجل عليه أن خمسة من قواد تلك المدينة أهدوا أبولّو عشر الغنائم التي استولوا عليها في أعقاب انتصارهم على قبيلتي المكاي والناسامونيين ، كما أنهم شيدوا الستراتيجيوم في قورينة تخليداً لذلك الانتصار . ولكن علاقة الليبيين بالبطالمة كانت تتسم بالتبعية والخضوع رغم استمرارهم في تصريف شؤونهم الذاتية بأنفسهم ، فنحن نسمع عن وجود ثلاثة آلاف مقاتل ليبي في جيش بطليموس الرابع فيلوباتر ، ونسمع عن إسهامهم إسهاماً فعالاً في ترجيح الكفة لصالح بطليموس الرابع في معركة رفح التي خاضها سنة ٢١٧ ق . م . ضد قوات أنطيوخس الثالث ملك سوريا السلوقي . وبالرغم من ضآلة ما نعرفه عن النظم الإدارية والاقتصادية لبرقة في ظل البطالمة فإننا نستطيع أن نتصور ، بالقياس على ما كان جارياً في مصر ، وجود طبقة من الليبيين العاملين في المزارع والمراعي والاحتكارات الملكية الأخرى ، إلى جانب الليبيين المشتغلين بالزراعة والرعي والتجارة في ريف برقة وباديتها وفي ظل النظام الليبي القبلي المتين [1] .

يتضح لنا ممّا تقدم أن القبائل الليبية في برقة ظلت مخلصة لنظامها القبلي

[1] انظر أيضاً : عبد العليم ، مصطفى كمال ، دراسات في تاريخ ليبيا القديم ، منشورات الجامعة الليبية ، المطبعة الأهلية ، بنغازي ، يناير ١٩٦٦ ، ص ٧٧ .

الذي كان ينظم لها طريقة حياتها ، وأنها كانت على علاقة متأرجحة بالمدن الإغريقية في برقة ، تتحسن حيناً فيسود التعاون والتبادل التجاري ، وتسوء أحياناً فيسود العداء والقتال والغارات ، كما ان علاقتها بالبطالمة اتسمت بالتبعية الإسمية من ناحية وبالاستقلال الفعلي بشؤونها الداخلية من ناحية أخرى . أما المدن الإغريقية في برقة فقد لاحظنا أنها جميعاً ، وعلى الخصوص قورينة ، كانت تخضع لنظام حكم ملكي مطلق حتى انقراض أسرة باتوس سنة ٤٤٠ ق . م . وتلت هذا التاريخ فترة صراع عنيف بين الأوليجيركية الأرستوقراطية والقوى الديموقراطية في مدينة قورينة ؛ فقد روى كل من ديودورس الصقلي وأرسطو أن ثورة ديموقراطية انفجرت في قورينة حوالي سنة ٤٠١ ق . م . قتل فيها أكثر من خمسمائة من الأغنياء وفرّ الكثيرون منهم طلباً للنجاة . وقد ذكر أرسطو أن السبب الرئيسي في قيام تلك الثورة هو نقمة الطبقات الفقيرة على الحكومة الأوليجركية المستبدة بها . وفي أعقاب هذه الثورة آلت السلطة للحزب الديموقراطي في قورينة فبدأ بإعداد برنامج إصلاح شامل يستند إلى الأسس الديموقراطية التي كان كليسثينس (Cleisthenes) قد سنها في إصلاحه للأوضاع في مدينة أثينا . أما ديودورس فقد ذكر أن الأوليجركيين لم يستسلموا للهزيمة بل أعادوا الكرة في محاولة لاسترداد السلطة فتمكنوا في بداية الأمر من إقصاء الديموقراطيين عن مراكز السلطة في قورينة حوالي الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ولكن الديموقراطيين كروا عليهم من جديد فهرب فريق من هؤلاء إلى مصر واستغاثوا بحاكمها بطليموس ابن لاجوس فاستغل هذا فرصة النزاع بين الحزبين وتدخل عسكرياً فاحتل قورينة سنة ٣٢٢ ق . م . وبسط نفوذه على منطقة برقة . وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم العثور على لوح رخامي محفوظ في متحف شحات نقش عليه دستور لقورينة يعتقد أنه وضع لبطليموس الأول في السنة التالية لاستيلائه على قورينة . ويتكون هذا الدستور من خمس عشرة مادة وتغلب عليه النزعة الأوليجركية فهو لا يسمح للمدينة بالعودة إلى رحاب الديموقراطية خاصة وأن بطليموس إنما تدخل لصالح

فريق من الأوليجركيين الهاربين ولكنه في الوقت ذاته لم يطلق يد هؤلاء الأوليجركيين ليعودوا أسياداً محتكرين كما كانوا قبل خروجهم[1] .

وفي سنة ٣١٣ ق . م . ثارت قورينة على الحكم البطلمي ولكن بطليموس أرسل إليها حملة ساعدت أوفلاس على إخماد تلك الثورة وأعادته إلى كرسي الحكم في المنطقة . وفي سنة ٣١١ ق . م . حفزت أوفلاس مطامعه الشخصية وما لقيه من تشجيع أنتيجونس على الاستقلال بمنطقة برقة . ولم يكتف بذلك بل تحالف مع أجاثوكليس ، ملك سيراقوسة في حملة ضد قرطاجة وانتهت تلك الحملة بمصرعه على يد حليفه سنة ٣٠٨ ق . م .[2] واغتنم بطليموس الأول هذه الفرصة وكلف ماجاس ، ابن زوجته برنتشي ، باستعادة منطقة برقة فنجح في ذلك وكافأه بطليموس الأول بتعيينه سنة ٣٠٠ ق . م . نائباً عنه في حكمها . وقبل ذلك بقليل نسمع عن قيام بطليموس الأول بغزوة مجددة لمنطقة برقة سنة ٣٠١ ق . م . مما يرجح قيام ثورة في قورينة قبيل ذلك التاريخ . ولكن بطليموس الأول لم يلبث بعد القضاء على تلك الثورة إلا قليلاً ثم توفي سنة ٢٨٢ ق . م . فانتهز ماجاس فرصة موته واستقل بمنطقة برقة وأعلن نفسه ملكاً عليها . وقد حفزه موقفه هذا إلى التقرب من ملوك سوريا السلوقيين فتحالف معهم ضد البطالمة وتزوج من أباما ابنة أنطيوخس الأول تعزيزاً لعرى الصداقة بينه وبينهم ؛ وقبل وفاته بقليل مال إلى الاعتدال فاتبع سياسة الموادعة تجاه بطليموس الثاني فيلادلفوس ، ملك مصر ، فعقد خطوبة ابنته برنتشي على ابن بطليموس الثاني وولي عهدهم . ولكن بعد وفاة ماجاس سنة ٢٥٨ ق . م . تبنت أرملته أباما سياسة مغايرة لسياسته ومناوئة للبطالمة فاختارت الأمير ديمتريوس الجميل ، أحد أمراء البيت المالك في مقدونيا ، زوجاً لابنتها بدلاً من ولي عهد مصر البطلمي ؛ وذلك لكي تبقى بعيدة عن البطالمة ومستقلة بمنطقة برقة . وقدم ديمتريوس إلى قورينة

١ راجع بشأن هذا الدستور المرجع السابق ص ١٣٨ — ١٥١ .
٢ انظر ص ٢٧٢ أعلاه .

حيث وقع في غرام أباما نفسها مما دفع الأميرة برنتشي إلى تدبير مؤامرة له أدت إلى مصرعه. وتمكنت برنتشي من السيطرة على الموقف في منطقة برقة حوالي سنة ٢٥٥ ق.م. ونفذت خطتها فتزوجت من ولي عهد البطالمة في مصر الذي أصبح الآن بطليموس الثالث، ملك مصر، مما أدى إلى تقارب جديد بين برقة ومصر لم يلبث أن انتهى بعد قليل بتبعية الأولى للثانية[1].

وتعتبر الفترة التي تلت وفاة ماجاس سنة ٢٥٨ ق.م. فترة غامضة في تاريخ برقة ولعلها هي الفترة التي نشأ فيها اتحاد البنطابولس أو المدن الخمس، وقد كان اتحاداً فدرالياً لم يلبث أن شمل جميع مدن برقة وفقاً لدستور وضعه له الفيلسوفان أكديموس وديموفانيس سنة ٢٥٠ ق.م.[2] ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا

١ انظر أيضاً: إيمار، أندريه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر ورفيقه، ثلاثة مجلدات، المجلد الثالث، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٤، ص ٣٠٣ – ٣٢٤.

٢ لم يصل إلينا دستور هذا الاتحاد، ولعلنا لا نخطىء إذا افترضنا أنه كان على نمط دساتير الاتحادات الإغريقية التي جربتها بلاد اليونان في الفترة ما بين وفاة الإسكندر الكبير وظهور روما؛ وكان أهمها:

أ – الاتحاد الإيتولي (٣٢٢ – ٢٦٥ ق.م.): وكان على رأسه قائد «Strategos» ينتخب كل عام وكانت السيادة فيه للجمعية الشعبية التي كانت تعقد مرة كل خريف أو عند الطلب كلما دعت الحاجة وكانت تفصل في المسائل الهامة كإعلان الحرب وإقرار السلم وعقد المعاهدات، وفي وقت الحرب كان الجيش الإيتولي يقوم مقام هذه الجمعية التي كان لكل إيتولي الحق في الاشتراك فيها، وإن كان من الطبيعي أن يقتصر الاشتراك فيها على الأثرياء حتى لا تتعرض الجمعية لاحتمال تسلط الغوغاء عليها. ومن المرجح أن التصويت لم يكن مقصوراً على الحاضرين من أعضائها بل كان لكل مدينة نسبة معينة من الأصوات تتناسب مع أهميتها. وكان للحلف مجلس اسمه السنهدريون «Synhedrion» يتكون من حوالي ألف مندوب يمثلون المدن المختلفة، وكان هذا المجلس يجتمع أكثر من اجتماعات الجمعية الشعبية ويفصل في مسائل أقل أهمية من المسائل التي تفصل فيها تلك الجمعية. وكانت له لجنة يسمى أعضاؤها أبوكليتوي «Apokletoy» ويساعدون الستراتيجوس في تصريف أعماله العادية، وكان عددهم أكثر من ثلاثين عضواً. وكان الستراتيجوس في الواقع هو السلطة التنفيذية الرئيسية؛ فقد كان يعبىء القوات أو يسرحها، ويرأس الجمعية الشعبية ويتولى المفاوضات مع الدول الأخرى، ولم يكن يحق لأي فرد أن يشغل وظيفة الستراتيجوس هذه سنتين متعاقبتين وإن كان يحق للفرد الواحد أن ينتخب مرة كل سنتين دون=

الاتحاد انتهى سنة ٢٤٦ ق.م. بينما يذهب البعض الآخر إلى أن الاتحاد استمر قائماً كتنظيم داخلي محلي رغم تبعية برقة للبطالمة. أما المدن الأعضاء في الاتحاد فقد كانت قورينة وبرقة وتوكرة ويوسبيريدس. وقد فصل المشرعان أبولّونيا، ميناء قورينة، عن قورينة ذاتها واعتبراها مدينة مستقلة هي العضو الخامس في الاتحاد. وقد ظل اسم المدن الخمس شائعاً في الاستعمال حتى العصر البيزنطي. أمّا عاصمة الاتحاد فكانت قورينة وفيها كانت تصدر العملة الخاصة به. وبعد هذا الحد لا نجد ما يوضح لنا علاقة برقة بالبطالمة، ولكنا نعلم أن البطالمة كانوا أصدقاء للرومان في هذه المرحلة فنحن نقرأ في وصية بطليموس يوريجتس الثاني مناشدته للرومان باسم جميع الآلهة، وباسم الشرف أن يقدموا كل ما في وسعهم من مساعدة ضد أي معتد على مدن مملكته أو أراضيها، وفقاً لمقتضيات العدالة ومعاهدة الصداقة والتحالف المبرمة بينه وبينهم؛ ولما كانت برقة جزءاً من ممتلكات البطالمة فإنها كانت دون شك تتمتع كغيرها من ممتلكات البطالمة بما كانت تنطوي عليه معاهدة الصداقة والتحالف بين البطالمة والرومان. ولهذا فإنّا نجد بطليموس أبيون يوصي بمنطقة برقة إرثاً لروما قبيل وفاته سنة ٩٦ ق.م. كما نلاحظ أن الرومان قبلوا الوصية واكتفى مجلس شيوخهم «السناتو Senato» بوضع يده على الممتلكات الملكية في برقة وترك للمدن حرية التصرف في شؤونها

= قيد. وكان الستراتيجوس يتولى القيادة العليا لقوات الحلف الإيتولي في الميدان. وكان يليه مباشرة رئيس الفرسان «Hipparchos» ثم الوزير «Demosios Grammateus».

ب – اتحاد البلوبونيز: ضم شتات سكان البلوبونيز الدوريين القدماء وكان دستوره يشبه دستور الاتحاد الإيتولي، فكان على رأسه حاكم عام «Strategos»، إلا أن الرئاسة السنوية كان يعهد بها لاثنين من هذا النوع من الحكام قبل سنة ٢٥٥ ق.م. وكانت له جمعية شعبية «Synkletos» يشترك فيها كل المواطنين الذين تزيد سنهم عن ثلاثين سنة، وكان حق التصويت للمدن وليس للأفراد. وكان لهذا الحلف مجلس نواب «Syndos» يجتمع مرتين في العام على الأقل ويقرر في الأشياء الأقل أهمية. وكانت له لجنة من عشرة أعضاء تبقى على اتصال دائم بالحاكم العام وتسمى ديمورجوي «Damiorgoi»، ثم رئيس للفرسان ووزير. وكانت الرئاسة العامة في هذا الاتحاد على غرار الرئاسة العامة في الاتحاد الإيتولي.

احتراماً لمعاهدة التحالف والصداقة التي كانت قائمة بينهم وبين البطالمة ، واحتراماً للاستقلال الذاتي للمدن الإغريقية في برقة وللتقاليد التي كانت سائدة فيها .

وإلى جانب العنصرين: البربري الليبي – وهو العنصر الوطني – والإغريقي – وهو عنصر طارىء مستوطن – كان في برقة عنصر ثالث مهم هو العنصر اليهودي الطارىء . وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف (Eusebius) أن « بطليموس بعث بفريق من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها ، ذلك لأنّه كان مهتماً بتشديد قبضته على هذه المدينة ومدن ليبيا (= برقة) الأخرى » . ومعنى هذا أن اليهود بدأوا يتسللون إلى برقة بعد سنة ٣٢٢ ق . م . بتشجيع من بطليموس حاكم مصر الذي أصبح فيما بعد ملكاً لمصر وتسمى بطليموس الأول . وغاية بطليموس من تشجيع اليهود على الاستقرار في قورينة ثم في بقية برقة واضحة فقد أرادهم مخلب قط له يستخدمهم في تحقيق أغراضه في السيطرة على برقة . وإذن فإن أصل الجالية اليهودية في برقة هم يهود مصر [1] . ويبدو أن الجالية اليهودية في كل من مصر وبرقة قد وجدت قبل عصر البطالمة وازدادت خلاله نظراً لمن كان يجلبهم بطليموس الأول إلى مصر من اليهود الذين كان يأسرهم في فلسطين في غزواته المتعاقبة لها ، ونظراً لهجرة عدد من يهود فلسطين المتدينين الذين هربوا بدينهم لمصر وبرقة خلال المحنة التي تعرضوا لها في فلسطين عندما أراد الملك السلوقي أنطيوخس الرابع (١٧٥ – ١٦٤ ق . م .) أن يحملهم على التأغرق .

ولقد أثبتت المكتشفات الأثرية ما ذكره استرابو (Strabo) من أن البطالمة شجعوا اليهود على الانتشار في مدن برقة وقراها . أما المدن التي استقروا بها فهي ، بالإضافة إلى قورينة ، طلميثة وآرسنوي (= توكرة) وبرنيتشي (= بنغازي) .

[1] تواجد اليهود في مصر منذ أن دخلوها مع النبي إبراهيم قادمين من أور في جنوب العراق في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وتزايدوا بعد ذلك في أيام النبي يوسف بن يعقوب في القرن الثامن عشر ق. م.

ويلاحظ أن الجالية اليهودية في هذه المدن ظهرت قوية منظمة في أوائل العصر الروماني مما يشير إلى أنها كانت قد استقرت فيها قبل ذلك العصر بأمد كاف أي خلال العصر البطلمي . ولا شك أن البطالمة أقطعوا جندهم المرتزقة الأراضي في ريف برقة ، كما كانوا يفعلون في مصر ، مما يعني وجود جنود يهود بين أصحاب تلك الإقطاعيات . وإذا جاز لنا أن نقيس سلوك يهود برقة على نمط السلوك اليهودي العام في العصور التاريخية المختلفة فلا بدّ لنا أن نرجح أنهم كونوا في برقة جاليات (Diaspora) أو تجمعات تكاد تكون مغلقة في وجه غير اليهود ، وتتغلغل في الوقت ذاته في كافة ميادين النشاط الحيوية من عسكرية وزراعية وتجارية ومالية بالإضافة إلى التغلغل في الجهاز الحكومي خاصة ما كان يتصل منه بالاحتكارات الحكومية وجباية الضرائب وإدارة الأراضي الملكية . ولا شكّ أن يهود برقة احترفوا المراباة في المدن التجارية كما فعلوا وما زالوا يفعلون في كل مكان يستقرون فيه . ولعل الذي ساعدهم في ذلك المضمار هو إتقانهم للغة الإغريقية واستعمالهم للزي الإغريقي وللأسماء الإغريقية [1] ، محاولين بذلك كما هي عادتهم ، ألاّ يظهروا كعنصر غريب في مجتمعات المدن التي استقروا بها .

ونحن نعلم أن البطالمة في مصر منحوا الجاليات الأجنبية الحرية التامة في مباشرة حياتها الخاصة كما اعترفوا لها بشخصيتها القانونية وبحقها في التملك وفي إدارة أملاكها ، ونعرف كذلك أن هذه الحقوق ذاتها كانت تتمتع بها جالية يهود الاسكندرية . وعلى ضوء ذلك فنحن نستطيع القول إن البطالمة عاملوا الجاليات اليهودية في برقة بمثل تلك المعاملة فسمحوا لها بالاستقلال القضائي الخاص بتطبيق الشريعة اليهودية على الأحوال الشخصية كالزواج والميراث ، كما سمحوا لها بجباية الضرائب من أفرادها وفقاً لتعاليم التوراة ، وبإرسال ما يتجمع منها في خزينة الجالية إلى

[1] لم يعثر على أسماء إغريقية ليهود في برقة من العصر البطلمي ولكن هذه الظاهرة تتجلى في الأسماء الإغريقية التي تسمى بها يهود قورينة وأبولونيا وتوكرة وبرنتشي في العصر الروماني .

هيكل أورشليم (= القدس) ، وبإقامة الكنس أو البيع [1] . ويؤيد ما ذهبنا إليه نقشان اكتشفا في مدينة برنتشي يرجع تاريخهما إلى أوائل العصر الروماني ويتحدثان عن جالية يهودية في المدينة لها أراخنة يصدرون القرارات ويعممونها باسم جاليتهم ، مما يرجح أن وجود هذه الجالية لم يكن طارئاً وإنّما كان استمراراً لوجودها في العصر البطلمي من ناحية ، وأن الرومان إنّما أبقوا على امتيازات دينية طائفية كانت لليهود في العصر البطلمي من الناحية الأخرى .

أمّا عن سلوك اليهود في برقة خلال العصر البطلمي فإنّنا لا نسمع عن مشاركتهم في أي من الاضطرابات الكثيرة في ذلك العصر مما يشير إلى أنهم عاشوا عيشة هادئة مطمئنة في ظل أصدقائهم البطالمة . وفي الوقت ذاته ليس لدينا أي دليل على تعرضهم لأي اضطهاد أو على اصطدامهم بأي من العنصرين السكانيين الآخرين : الليبيين والإغريق . وليس لدينا كذلك ما يكشف عن الموقف الحقيقي الذي وقفه يهود برقة من الفتنة التي نشبت بسبب النزاع على عرش البطالمة في مصر في أعقاب مقتل الملك المصري بطليموس السادس فيلومتر سنة ١٤٥ ق . م . وزحف أخيه بطليموس الصغير ، حاكم برقة ، على الاسكندرية حيث تصدت له أخته وأرملة أخيه كليوپترة الثانية ، يؤيدها في ذلك أرستوقراطية الإسكندرية ويهودها ويقود قواتها قائدان يهوديان . وقد استطاع بطليموس الصغير أن يخرج منتصراً في هذه المجابهة فارتقى عرش مصر باسم بطليموس يوريجتيس الثاني (١٤٥ — ١١٦ ق . م .) وقام بحملة انتقام على أعدائه ومن بينهم اليهود . وقد ذكر المؤرخ اليهودي يوسف أنهم ، أي اليهود ، قد تعرضوا لمحنة قاسية لم ينقذهم منها ، على ما يبدو ، إلا عفو الملك عن خصومه بمناسبة زواجه من كليوپترة المذكورة ، ولكن ليس لدينا ما يكشف عن موقف يهود برقة في هذه الفترة من الصراع على

١ انظر أيضاً : نصحي ، إبراهيم ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ثلاثة أجزاء ، ج ٢ ، ص ١٥٢ — ١٦٨ (سياسة البطالمة الدينية إزاء اليهود) .

السلطة بين أعضاء الأسرة البطلمية الحاكمة .

ولقد اكتشف في قورينة مؤخراً نقش غير كامل يحتوي نسخاً لأربع وثائق مختلفة على الأقل وهو مؤرخ بالسنة التاسعة من عهد بطليموس سوتر وزوجته وشريكته في الحكم كليوپترة ، وربما كان المقصود بهما سوتر الثاني وكليوپترة سيلينة (Selene) (١٠٩ — ١٠٨ ق . م) . ومهما يكن من أمر فإن تاريخ النقش غير متفق عليه وربما كان يرجع إلى فترة أقدم من المذكورة أي إلى عهد بطليموس السادس فيلومتر . أمّا الوثائق الأربع المشار إليها فهي :

١ — مرسوم قوريني يقرر بالتفصيل إقامة احتفال ديني تكريماً للحكام وأسرهم وأسلافهم ، وذلك اعترافاً من قورينة بما أسداه لها أولئك الحكام من جميل ،

٢ — الجزء الأخير من مرسوم صادر عن قورينة ، أو قرار من الحكام ، بخصوص جماعة بارزة من مواطني قورينة الذين وجهت لهم تهم خطيرة . وتنص هذه الوثيقة على أن الأوامر والقوانين الملكية سوف تأخذ مجراها بالنسبة لتلك الجماعة شريطة ألاّ تصادر ممتلكاتهم بل يسمح بانتقالها لورثتهم .

أما الوثيقتان الثالثة والرابعة فهما في حالة جيدة وهما :

٣ — كتاب من الحكام إلى أهالي قورينة أرفقت به رسائل معنونة للمسؤولين في برقة وأمرٌ من الحكام ،

٤ — مقدمة الوثيقة الثانية السالفة الذكر : وربما كانت هي والرسائل (المفقودة) التي كانت معنونة لحكام مدن برقة من قبل البطالمة وتتعلق بالأراضي التي أعلن رسمياً أنها لا مالك لها ، وبناء على ذلك الإعلان جرى ضمها لأملاك التاج ؛ أو إنها ظلت معلقة ، بمعنى أن مُلاكها كانوا ما زالوا متهمين وعلى ذلك فهي عرضة لأن تصادر أو تعلن لا مالك لها [1] .

1 Rostovtzeff, M., *The Social & Economic History of the Hellenistic World*, Three volumes, Vol. II, Oxford, Clarendon Press, 1st edition 1941, Reprinted 1953, pp 915 — 916.

ويبدو أن قطعاً من هاتين الفئتين من الأراضي كانت لا تزال ، إلى حد ما في أيدي مُلاكها السابقين . ويقرر الملوك أن أرضاً مثل هذه لن « توضع تحت الخاتم » أي لن تصادر ، ولن يجري اعتقال أصحابها وعبيدهم بموجب إجراء إداري قبل أن تأخذ الإجراءات القانونية مجراها .

ومن الواضح أن الأحوال التي حملت ملوك البطالمة على اتخاذ تلك الإجراءات كانت أحوالاً غير عادية أي إن برقة كانت في حالة من الاضطراب ، فهنالك كثير من المواطنين البارزين في مدنها قد وجهت إليهم التهم وهم ينتظرون المحاكمة ، وهنالك أشخاص آخرون غير مواطني المدن قد خسروا ، بسبب خرقهم للقوانين على ما يبدو ، ملكية أراضيهم التي أعلنت لا مالك لها (Adespota) ، وهنالك جماعة أخرى لما يخسروا ملكية أراضيهم بعد ؛ ولكنهم متهمون وقد يخسرونها بعد قليل . ويبدو أن الجماعتين الأخيرتين لم تكونا من المزارعين الوطنيين وإنّما على الأرجح من المستوطنين العسكريين الذين عاملهم موظفو الملك تلك المعاملة القاسية .

إن هذا النقش ، بغض النظر عن الفترة التي يرجع إليها تاريخه من القرن الثاني قبل الميلاد ، يعكس اضطراب الأحوال في برقة ويتضمن وقوع أعمال الشغب وربما الحرب الأهلية . ولكن معرفتنا بتاريخ برقة في هذا العصر محدودة إلى درجة أنها لا تسمح لنا بأن نربط وثائق هذا النقش بحوادث معينة . وعلى أي حال فإن من الواضح أن الحكام المذكورين في هذه الوثائق قد خرجوا منتصرين من كفاحهم الذي ربما كان حرباً أسرية أو أهلية . ويبدو أنهم راحوا يحاولون إعادة السلام والنظام دون إصدار عفو عام شامل ؛ فهم ينوون معاقبة خصومهم لكن دون عنف وإنّما عن طريق المحاكم النظامية . ومن المعروف أن كثيراً من أمثال هذا الموقف حدثت في مصر في عهد فيلومتر ، يورجيتس الثاني وسوتر الثاني ، ومن المؤكد أن برقة كانت متورطة في مشاكل مصر .

إن هذا النقش القوريني يكشف عن الحالة التعيسة وغير المستقرة التي تحولت

إليها برقة الغنية المزدهرة نتيجة للحروب الأهلية ولسوء الإدارة تماماً كما حدث في قبرص ومصر ذاتها ؛ فإن الأحوال السيئة التي سادت مصر في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وخلال القرن الأول قبل الميلاد أدت إلى تدمير اقتصادها وتجميد تقدمها ، كما أنها أفقرت الطبقة العاملة فيها وخفضت عائدات الدولة من الموارد الداخلية .

النهضة الثقافية في برقة في عهد البطالمة :

سبق أن أشرنا للنهضة الشاملة لقورينة في عصرها الذهبي . ولا بد أن نشير هنا إلى أن النهضات الثقافية تستمر مزدهرة بعد الهبوط السياسي بأجل غير قصير . والنهضة الثقافية في برقة تتجلى في هذا العصر في ظهور أُدباء وعلماء من أبنائها كانوا في الصف الأول مع أقرانهم في العالم الهلينستي . وكان من أشهرهم كلّيماخوس (Callimachus) القوريني (٣١٠ – ٢٤٥ ق . م) وكان أحد تلاميذ فليتاس وقد اختير فيما بعد أميناً لمكتبة الاسكندرية ثم شاعراً لبلاط بطليموس الثاني . ولقد أثبت كلّيماخوس أنّه أستاذ اللون الشعري الذي اشتهر باسم « أُنشودة الرعاة » فقد كان الشاعر المبرز في هذا اللون في أعين معاصريه ، والشاعر الإسكندري الطراز إلى أقصى حد . ولقد كانت أُنشودة الرعاة الأسلوب الشعري الذي امتازت به الاسكندرية في هذا العصر ، وهذه الأُنشودة كانت عبارة عن صورة صغيرة كاملة في حد ذاتها ؛ وربما اتخذت أشكالاً كثيرة ، وكان المقصود منها أحياناً هو مجرد الإلقاء . وكلّيماخوس هو الذي جعل شعر المراثي الأداة الشائعة الطراز على الصورة التي قدر لها أن تظل عليها . ولدينا الآن بعض أناشيده وأجزاء من قصيدته المسماة « ضفائر برنيقة Coma Berenices » وأجزاء من ملحمته الصغيرة هيكالي (Hecale) ومن قصيدة حول موت آرسينوي ، وفقرات من قصيدة هي أهم أعماله جميعاً وهي قصيدة الأسباب (Aitia) أي أسباب مختلف أنواع العادات والعبادات . ولولا ما خلفه لنا من

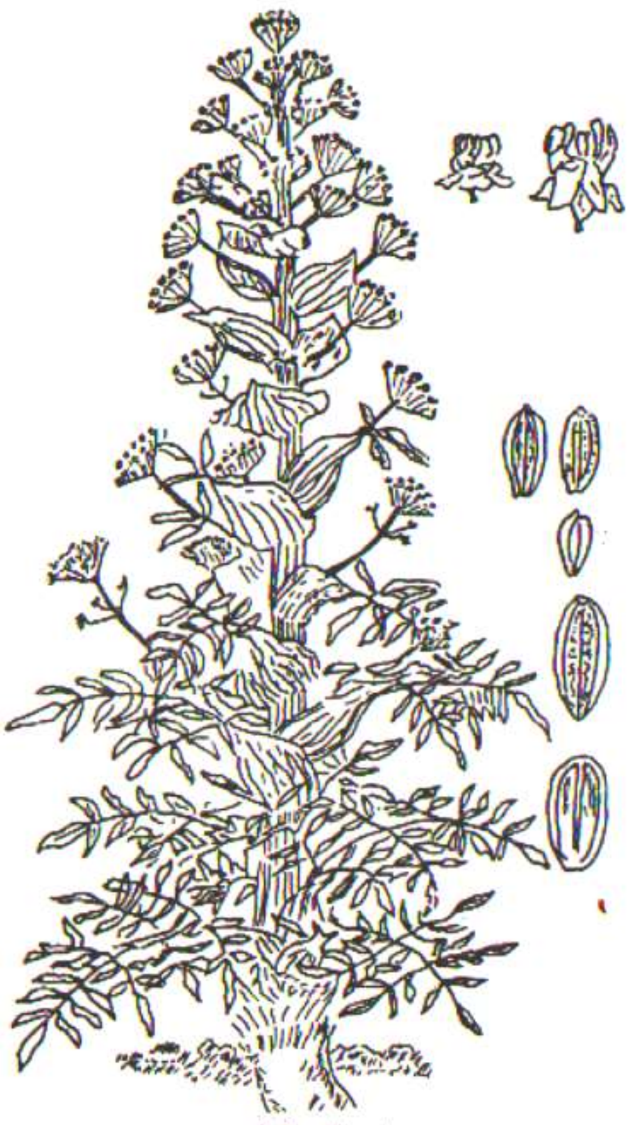

(٥١) نبات السلفيوم

عن : علي فهمي خشيم

مقطوعات شعر الحكمة لأوشكنا أن نقول إنّه لم يكن شاعراً بل عالماً تصدى لصياغة الشعر . وقد وصفه ناقد حديث « بالمبرإ من الخطإ » . وكان كلّيماخوس من علماء فقه اللغة كما انّه كان الحكم وصاحب القول الفصل في زمانه فيما يتعلق بميادين علمه وأدبه .

ونبغ من أبناء برقة كذلك في القرن الثالث قبل الميلاد الجغرافي العظيم أراتوسثنيس (٢٧٥ — ٢٠٠ ق . م .) الذي تقول الرواية المأثورة إنّه تلقى العلم على أيدي معلمين أفذاذ هم أرسنون (= زينون) الرواقي وآرسسلوس المتشكك وكلّيماخوس الشاعر وليسنياس النحوي . وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شهرته في كثير من فروع العلم المختلفة ممّا جعل بطليموس الثالث يعينه أميناً لمكتبة الاسكندرية . ولقد ألف أراتوسثنيس ديوان شعر وكتباً في التاريخ ، وحاول في كتابه الكونوغرافيا (Conographia) أن يحدد أوقات الحوادث الكبرى في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط . وكتب كذلك رسائل في الرياضيات ، واخترع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطى متناسبة تناسباً مطرداً بين خطين مستقيمين . وقد قاس ميل مستوى الفلك وحدده بـ (٢٣٥١°) فلم يخطىء إلا بنصف في المائة . لكن أعظم أعماله هو تقدير طول محيط الأرض بـ (٢٤٦٦٢) ميلاً ، وذلك قريب من التقدير الحالي (٢٤٨٤٧) ميلاً .

وقد توصل إلى تلك النتيجة بأن لاحظ في ظهر يوم الانقلاب الصيفي أن أشعة الشمس عند مدينة سييني (قرب مدينة أسوان) كانت تقع عمودية على سطح جدار ضيق ، وعرف في الوقت ذاته أن ظل مسلة في الإسكندرية — وتبعد عن سييني إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل — يدل على أن أشعة الشمس كانت تقع مائلة عن سمت الرأس بنحو ٧½° إذا قيست وقت الزوال على خط الطول الذي يصل بين البلدين ، فاستنتج من ذلك أن القوس الذي يبلغ ٧½° على محيط الأرض يساوي خمسمائة ميل وأن محيط الأرض بهذه النسبة يساوي ٣٦٠ ÷ ٧½ × ٥٠٠ أي ٢٤٠٠٠ ميل أضاف لها (٦٦٢) ميلاً فرق حساب . وبعد أن قاس محيط

الأرض بدأ بوصفها فجمع في كتابه جيوغرافيكا (Geographica) تقارير جميع علماء المساحة في الإسكندرية والرحالة البريين والبحريين [1] .

وأخيراً يجدر بنا أن نشير إلى أن حديثنا كان مركزاً حتى الآن على منجزات العنصر الإغريقي في برقة . أما عدم تعرضنا للعنصر البربري الليبي بمزيد من التفصيل فهو راجع إلى قلة معلوماتنا عنه . ولقد سبق أن نوهنا بالقبائل الليبية في هذا العصر في بداية هذه المقالة وعلينا أن نضيف الآن أن تلك القبائل ظلت تعيش طراز الحياة الذي عالجناه في عصر هيرودوتس ؛ أي إنها بقيت تعيش عيشة البدو الرحل بشكل عام وإن كانت قد بدأت تستقر في أقاليمها في هذا العصر وتتجه للزراعة والتجارة بالإضافة للرعي .

١ ديورانت ، ول ، **قصة الحضارة** ، ج ٣ مجلد ٢ ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ثبت ببعض التواريخ المصرية الهامة

الأسرتان الأولى والثانية		٣١٩٧ — ٢٧٧٨ ق . م .
عصر الدولة القديمة	حوالي	٢٧٧٨ — ٢٤٢٣ ق . م .
الأسرة الثالثة		٢٧٧٨ — ٢٧٢٣ ق . م .
الأسرة الرابعة		٢٧٢٣ — ٢٥٦٣ ق . م .
الأسرة الخامسة		٢٥٦٣ — ٢٤٢٣ ق . م .
نهاية الدولة القديمة		٢٤٢٣ — ٢٢٤٢ ق . م .
الأسرة السادسة		٢٤٢٣ — ؟
الأسرة السابعة		(وهمية)
الأسرة الثامنة		٢٢٤٢ — ؟

الأسرات الإهناسية

الأسرة التاسعة	٢٢٤٢ — ٢١٥٠ ق . م .
الأسرة العاشرة	٢١٥٠ — ٢٠٦٠ ق . م .
عصر الدولة الوسطى	٢١٦٠ ؟ — ١٥٨٠ ق . م .
الأسرة الحادية عشرة	٢١٦٠ ؟ — ٢٠٠٠ ق . م .
ملوكها : انتف الأول	٢١٦٠ — ٢١٥٠ ق . م .
انتف الثاني	٢١٥٠ — ٢٠٩٠ ق . م .
انتف الثالث	٢٠٩٠ — ٢٠٨٥ ق . م .
منتوحتب الأول	٢٠٨٥ — ٢٠٦٥ ق . م .
» الثاني	٢٠٦٥ — ٢٠٦٠ ق . م .
» الثالث	٢٠٦٠ — ٢٠١٠ ق . م .

منتوحتب الرابع	٢٠١٠ — ٢٠٠٨ ق . م .
» الخامس	٢٠٠٨ — ٢٠٠٠ ق . م .
الأسرة الثانية عشرة	٢٠٠٠ — ١٧٨٥ ق . م .
ملوكها : أمن م حات الأول	٢٠٠٠ — ١٩٧٠ ق . م .
س ن وسرت الأول	١٩٧٠ — ١٩٣٦ ق . م .
أمن م حات الثاني	١٩٣٨ — ١٩٠٤ ق . م .
س ن وسرت الثاني	١٩٠٦ — ١٨٨٨ ق . م .
س ن وسرت الثالث	١٨٨٧ — ١٨٥٠ ق . م .
أمن م حات الثالث	١٨٥٠ — ١٨٠٠ ق . م .
أمن م حات الرابع	١٨٠٠ — ١٧٩٢ ق . م .
سبك نفرو رع	١٧٩٢ — ١٧٨٥ ق . م .
الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة	١٧٨٥ — ١٦٨٠ ق . م .
الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة (هكسوس)	١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق . م .
الأسرة السابعة عشرة	١٦٨٠ ؟ — ١٥٨٠ ق . م .
عصر الدولة الحديثة	١٥٨٠ — ١٠٩٠ ق . م .
الأسرة الثامنة عشرة	١٥٨٠ — ١٣٢٠ ق . م .
ملوكها : أحمس	١٥٨٠ — ١٥٥٨ ق . م .
أمن حتب الأول	١٥٥٧ — ١٥٣٠ ق . م .
تحتمس الأول	١٥٣٠ — ١٥٢٠ ق . م .
تحتمس الثاني + حتشبسوت	١٥٢٠ — ١٤٨٤ ق . م .
تحتمس الثالث	١٥٠٤ — ١٤٥٠ ق . م .
أمن حتب الثاني	١٤٥٠ — ١٤٢٥ ق . م .
تحتمس الرابع	١٤٢٥ ؟ — ١٤٠٥ ق . م .
أمن حتب الثالث	١٤٠٥ — ١٣٧٠ ق . م .
أمن حتب الرابع (أخناتون)	١٣٧٠ — ١٣٢٥ ق . م .
الأسرة التاسعة عشرة	١٣٢٠ — ١٢٠٠ ق . م .

ملوكها : رمسيس الأول	١٣٢٠ – ١٣١٨ ق . م .
ستي الأول	١٣١٨ – ١٢٩٨ ق . م .
رمسيس الثاني	١٢٩٨ – ١٢٣٢ ق . م .
ستي الثاني	؟ – ١٢٠٠ ق . م .
الأسرة العشرون	١٢٠٠ – ١٠٨٥ ق . م .
ملوكها : رمسيس الثالث	١١٩٨ – ١١٦٦ ق . م .
رمسيس الرابع إلى الحادي عشر	١١٦٦ – ١٠٨٥ ق . م .
المدة المتأخرة	١٠٨٥ – ٣٢٣ ق . م .
الأسرة الحادية والعشرون	١٠٨٥ – ٩٥٠ ق . م .
« الثانية والعشرون (ليبية)	٩٥٠ – ٧٣٠ ق . م .
« الثالثة والعشرون (ليبية)	٨١٧ ؟ – ٧٣٠ ق . م .
« الرابعة والعشرون (نوبية)	٧٣٠ – ٧١٥ ق . م .
« الخامسة والعشرون	٧١٥ – ٦٥٦ ق . م .
« السادسة والعشرون	٦٦٣ – ٥٢٥ ق . م .
« السابعة والعشرون (فارسية)	٥٢٥ – ٤٠٤ ق . م .
« الثامنة والعشرون	٤٠٤ – ٣٩٨ ق . م .
« التاسعة والعشرون	٣٩٨ – ٣٧٨ ق . م .
« الثلاثون	٣٧٨ – ٣٤١ ق . م .
فترة السيادة الفارسية الثانية	٣٤١ – ٣٣٣ ق . م .
استيلاء الإسكندر الكبير على مصر	– ٣٣٢ ق . م .[1]

١ دريوتون ، إيتين ، وفانديه ، جاك ، مصر ، ترجمة عباس بيومي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

حكم البطالمة في مصر[1]

١ – بطليموس الأول الملقب سوتر الأول (= المنقذ) ٣٠٥ (حينما اتخذ لقب ملك) – ٢٨٣ ق . م .

٢ – بطليموس الثاني فيلادلفوس ٢٨٣ – ٢٤٦ ق . م .

٣ – بطليموس الثالث « يورجيتس الأول » (= الخيِّر) ٢٤٦ – ٢٢١ ق . م .

٤ – بطليموس الرابع فيلوباتر « Philopator » (= المحب لأبيه) ٢٢١ – حوالي ٢٠٥ ق . م .

٥ – بطليموس الخامس ايبفينس « Epiphanes » (= المتجلي) حوالي ٢٠٥ – ١٨١ أو ١٨٠ ق . م . مات مسموماً

٦ – بطليموس السادس فيلوميتر « Philometor » (= المحب لأمه) ١٨١ أو ١٨٠ – ١٤٥ ق . م .

٧ – بطليموس السابع يورجيتس الثاني الطاغية شارك أخاه ابتداء من ١٦٣ – ١٤٥ ق . م . وحكم بمفرده من ١٤٥ – ١١٦ ق . م .

٨ – كليوبترة الثالثة (أرملة يورجيتس الثاني)
بطليموس الثامن الشاحب الملقب لاثيروس « Lathyros » سوتر الثاني
بطليموس التاسع « الاسكندر » ١١٦ – ٨٠ ق . م .

نهاية الأسرة الشرعية

بطليموس أبيون « Apion » الابن غير الشرعي ليورجيتس الثاني يرث عنه

١ تارن وليم ، الحضارة الهلينستية . الطبعة الثالثة ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٠ – ٦٥ .

منطقة برقة ويحكمها ١١٦ – ٩٦ ق . م . عندما أوصى بها لروما .

٩ – بطليموس الحادي عشر (ابن غير شرعي للاثيروس (وقد نصبه أهل الاسكندرية ولقب ديونيسوس الجديد « Neos Dionysos » وكني بالزمار « أوليتس « Auletes » ٨٠ – ٥١ ق . م .

١٠ – بطليموس الثاني عشر وكليوبترة السابعة (ابنا الزمار) ٥١ – ٣١ ق . م .

انتهى حكمهما بانتصار أوغسطس على أنطونيس في معركة أكتيوم وتبعية مصر لروما .

طرابلس في العهد الفينيقي

خلاصة تاريخ الفينيقيين في الشرق والغرب :

الفينيقيون قوم ساميون أصلاً إلى حد أن عدداً غير قليل من المؤرخين العرب يعتبرونهم عرباً . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن شبه جزيرة العرب كانت أشبه بحوض ماء كلما زاد الماء فيه طفح الفائض على جوانبه . وهم يقدرون أن أول موجة سكانية طفحت بها شبه جزيرة العرب كانت حوالي سنة ٣٥٠٠ ق . م . نتيجة لازدياد عدد سكانها وقلة مواردها . وكان اتجاه تلك الموجة البشرية إلى مصر عبر البحر الأحمر ، وإلى فينيقية على الساحل اللبناني حيث استقر القادمون على طول الساحل وتغلبوا على جنس البحر الأبيض المتوسط الذي كان يقطن تلك المنطقة . وحدثت بعد هذه الهجرة السامية الأولى هجرات أخرى صغيرة بعضها سامي وبعضها غير سامي كالأرمن والحثيين فاجتاحت منطقة الهلال الخصيب بأسره . ولكن الموجة السامية الكبرى التي غمرت منطقة الهلال الخصيب وتحكمت في مصيرها طيلة ألف سنة هي هجرة العموريين بين سنة ٢٣٠٠ ق . م . وسنة ٢١٠٠ ق . م . والمعتقد أن هذه الهجرة غمرت فينيقية وسوريا وفلسطين ووصلت فيما بعد إلى منطقة الجزيرة في ما بين النهرين بالعراق ، وهي هي التي طبعت بلدان الشرق الأدنى نهائياً بالطابع السامي . وبمضي الزمن انقسم هؤلاء المهاجرون إلى جماعتين متميزتين : الأولى ظلت تُعرف بالعموريين واستقرت في المناطق الداخلية ، والثانية صارت تُعرف باسم الكنعانيين ، أي سكان المناطق المنخفضة ، أو الأقوام الحمر ، أي الفينيقيين ، واستقرت على طول الساحلين

اللبناني والفلسطيني . وحوالي سنة ١١٩٤ ق . م . اجتاح الدوريون بلاد اليونان فدفعوا الإيجيين ، أي شعوب البحر ، إلى الهجرة منها فغزوا آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين وليبيا ومصر . ولكن رمسيس الثالث ، ملك مصر ، تمكن من هزيمتهم في معركة بلوزيوم (Pelusium) إلا أنه لم يتمكن من إلقائهم في البحر ، فتركهم يستقرون في فلسطين التي راحوا ينتشرون منها شمالاً إلى فينيقية . وجرى امتزاج هذه العناصر المختلفة تدريجياً على أرض فينيقية فما إن حانت سنة ١١٠٠ ق . م . حتى كان العنصران الكنعاني السامي وهو الفينيقي ، والهندو أوروبي وهو الإيجي قد امتزجا امتزاجاً كاملاً ونتج عنهما جيل جديد يجمع بين صفات العنصرين هو الذي صار يُعرف باسم الفينيقيين الذين كانت دماء رجال البحر الإيجيين تجري حارة في عروقهم فلم يلبثوا حتى فرضوا سيطرتهم المطلقة على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط طيلة ما يقرب من أربعمائة وخمسين سنة بحيث كانت لا تدخل إليه سفينة غريبة إلا أغرقوها أو أسروها وباعوا ركابها عبيداً . ومع مطلع القرن العاشر قبل الميلاد امتد نفوذ الفينيقيين البحري غرباً حتى شمل الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط فكانت سفنهم تأتي بالسلع الشرقية المنقولة إليهم من أواسط آسيا والهلال الخصيب عن طريق أبناء عمومتهم العموريين ، سكان دواخل سوريا ، لتبيعها في إسبانيا مقابل المعادن الإسبانية — خاصة الفضة — التي كانت لا غنى عنها . ومنذ حوالي سنة ١١١٠ ق . م . بدأت ذراع الأشوريين الآخذة في القوة تصل إلى فينيقية ، فقد استولى تغلات بلاسر (Tiglath Pileser) الأول في تلك السنة على أرواد وعلى بعض المدن الفينيقية الأخرى على ساحل فينيقية الشمالي ، كما ان أشور — ناصر — بعل الثاني (Ashur - Nasirpal II) استولى على عدد من المدن الفينيقية سنة ٨٨٣ ق . م . وحصل الجزية من صور وصيدا وبيلوس وأرواد ، وتلاه في الحكم وفي تنفيذ هذه السياسة العدوانية التوسعية خليفته شلمانصّر الثالث

(Shalmaneser III) (٨٥٩ — ٨٢٤ ق . م .) فهاجم الفينيقيين والعموريين على السواء . واستمر الأشوريون بعد ذلك في سياستهم العدوانية الاستبدادية حتى استولوا على جميع المدن الفينيقية باستثناء صور فقد فشلوا في الاستيلاء عليها رغم تكرار حصارهم لها . ونتج عن تلك الأحوال هجرة فريق كبير من أبناء صور إلى الشمال الإفريقي حيث نزلوا بالقرب من تونس وأقاموا مستوطنة جديدة أسموها « القرية الحديثة » (Karat Hadashah) [1] وهي التي عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، والتاريخ التقليدي المتفق عليه لتأسيسها هو سنة ٨١٤ ق . م . ومنذ ذلك الحين بدأت قوة قرطاجة تنمو وتزدهر في الوقت الذي كانت فيه صور وبقية المدن الفينيقية في الشرق تضعف وتنحدر مما ألقى على عاتق قرطاجة عبء المسئولية في الدفاع عن المصالح والمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، ولم تكن قرطاجة أول مستوطنة يقيمها الفينيقيون على سواحل هذا الحوض فقد سبق لهم أن اجتازوا أعمدة هرقل (= مضيق جبل طارق) وأسسوا في الجنوب الغربي من شبه جزيرة إيبيريا (= إسبانيا) مدينة قادس سنة ١١١٠ ق . م . لاجتلاب الفضة ، كما إنهم أسسوا مراكز ومحطات تجارية كثيرة على طول معظم ساحل الشمال الإفريقي الواقع على طريقهم التجاري بين صور في فينيقية وقادس في إسبانيا .

وكما هي الحال بالنسبة لتأسيس العديد من المدن في العالم القديم فإن تأسيس قرطاجة ارتبط بأسطورة الأميرة علّيسة (Elissa) وأخيها بجماليون (Pygmalion) الذي خلف أباه على عرش صور حوالي سنة ٨٣٠ ق . م . وحكم في بداية الأمر تحت إشراف أخته علّيسة أو « ديدو » التي تزوجت من خالها الثري ، كبير كهنة

1 Baramki, Dimitri, *Phænicia and the Phænicians*, Khayats, Beirut, Lebanon, first edition, 1961 , pp 6 — 28.

الإله ملكارت . وطمع بجماليون في ثروة خاله فدبر مصرعه ولكن عليسة حالت دون استيلاء أخيها على الكنوز التي كان زوجها قد دفنها في معبد ملكارت وذلك بأن أوهمته أنها كانت مسرورة بما فعل وأنها ستنتقل إلى منزله لتعيش معه ، ثم غافلته وشحنت الكنوز في سفينة أبحرت بها إلى قبرص ومعها ثمانون رجلاً ممن كان بجماليون قد أمرهم بمساعدتها . ومن قبرص حملت معها ثمانين عذراء ليكن زوجات لرجالها وأبحرت إلى الموقع الذي أسست فيه قرطاجة .

ولقد خلفت قرطاجة أمها صور [1] في رعاية المصالح الفينيقية وزعامة الفينيقيين فبدأت ببسط نفوذها على المستوطنات والمحطات التجارية الفينيقية ثم راحت توسع نطاق نفوذها فسيطرت حوالي سنة ٦٥٠ ق . م . على جزيرة يابة ، إحدى جزر البليار الثلاث القريبة من إسبانيا ، وأحلّت محل الإغريق الذين أجلتهم عن جزيرة كورسيكا حلفاءها الأتروريين ، ووطّدت أقدامها في جزيرة سردينيا وفي إسبانيا . وحتى تكمل سيطرتهـــا على غرب البحر الأبيض المتوسط وتحتكر التجارة فيه ، عقدت أول محالفة صداقة مع القوة الرومانية الناشئة سنة ٥٠٩ ق . م . وجـــددتها سنة ٣٤٨ ق . م . ، وقد نصت تلك المعاهدة المعقودة بين الرومانيين وحلفائهم من جهة والقرطاجيين وحلفائهم من جهة أخرى على الشروط التالية :

« لا يجوز للرومان ولا لحلفائهم أن يتجاوزوا في إبحارهم الرأس الجميل [رأس سيدي علي المكي بتونس] إلا لأسباب قاهرة كالعواصف ، أو مطاردة الأعداء ، فعند ذلك يكونون مدفوعين غصباً عنهم ورغم أنوفهم ، ولا يرخص لهم باشتراء أو اقتناء أي شيء إلا ما كان ضرورياً لترميم سفنهم وتقليفها أو

---

١ كان نبوخذنصر « Nabukhodonosor » ، ملك بابل ، قد استولى على صور سنة ٥٧٤ ق.م. كما إن الفرس استولوا عليها سنة ٥٣٩ ق. م. وأخيراً اجتاحها الاسكندر الكبير سنة ٣٣٢ ق.م. وهدمها مما أدى إلى هجرة من نجوا منها إلى قرطاجة .

لإقامة شعائرهم الدينية . . . ويجب عليهم أن يرتحلوا بعد خمسة أيام . . . » [1]

وأنشأت قرطاجة نظاماً سياسياً لها تطور مع الزمن إلا أنه كان إجمالاً نظاماً أوليجركيا يقوم على سلطات ثلاث هي :

١ – السلطة العليا وتتمثل في ملكين أو سبطين ينتخبان لعام واحد .

٢ – السلطة الأرستوقراطية الممثلة في مجلس الشيوخ الذي كان يتألف من ثلاثمائة عضو ينوبون عن الأسر الغنية وكبار التجار والأعيان والمحاربين .

٣ – الشعب ، ولم يقو نفوذه إلا في أيام آل برقة ، أي في فترة الحروب البونيقية .

وجدير بالملاحظة أن المال كان يلعب أهم الأدوار بالنسبة لهذا الدستور ، فكان الأثرياء من التجار وغيرهم يجدون الباب مفتوحاً أمامهم إلى المراكز الحساسة في جهاز الحكم في المدينة وذلك عن طريق دخولهم في عضوية مجلس الشيوخ المذكور . وكانت للدين مكانة ممتازة في نفوس الفينيقيين تنعكس في أسماء الأعلام التي كانوا يطلقونها على أبنائهم وبناتهم من مثل معطبعل (أي عطية بعل) وباركبعل (أي باركه بعل) وبتبعل (أي ابنة بعل) وعريسة بعل (أي خطيبة بعل) وأمة بعل (أي خادمة بعل) [2] ، وكانت أشهر الآلهة الفينيقية بقرطاجة هي الإلهة تانيت بنتبعل وكانت تماثل عشتار ، إلهة القمر عند فينيقي مدينة صور ، ثم الإله بعل حامون ويماثل الإله بعل في فينيقية ، وكان القرطاجيون يمثلونه على شكل إله أقرن ، له قرنان كقرني الكبش مما يشير إلى صلته بالإله آمون الليبي في سيوة . ويأتي بعد ذلك الإله ملكارت (ملك – كارت) أي ملك المدينة ، والمقصود بها في هذه التسمية هي مدينة صور التي ينتسب إليها هذا الإله . وقد كان له هيكل في قرطاجة ، كما إن القرطاجيين كانوا يبعثون إلى هيكله في صور القرابين والهدايا الثمينة في كل سنة . ثم يأتي بعد ذلك الإله ميلكن أو مولك بعل ،

---

١ صفر ، أحمد ، مدنية المغرب في التاريخ ، ج ١ ، الناشر – بوسلامة ، تونس ، ص ٩٤ و ١١٣ .
٢ كلمة بعل الفينيقية تعادل كلمة رب العربية التي قد تعني الإله أو الصاحب .

وكانوا يمثلونه على صورة وثن قبيح الخلقة له رأس ثور فوق جسم إنسان . وكان القرطاجيون يمارسون أشد وأقسى عاداتهم الدينية على مذبح هذا الإله فيقدمون أطفالهم قرابين له بحرقهم أحياء ؛ وغايتهم من ذلك تهدئة غضبه وسخطه ودفع نقمته . ونحن نعلم من ديودورس الصقلي أن القرطاجيين حين حاصرهم القائد الإغريقي أجاثوكليس حرقوا على مذبح هذا الإله مائتين من أطفال أسرهم النبيلة بالإضافة إلى ثلاثمائة من خيرة رجالهم تطوعوا بحرق أنفسهم ليكونوا قرباناً لائقاً بقدر هذا الإله . وإلى جانب الآلهة الرئيسية المذكورة عبد الفينيقيون عامة والقرطاجيون خاصة آلهة أخرى كثيرة ولكنها كانت ثانوية إذا ما قيست بالآلهة السالفة الذكر .

أما في المجالات الاقتصادية المختلفة فقد كان القرطاجيون سادة التجارة البحرية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط دون منازع . وعلينا بهذا الخصوص أن نتذكر أنهم ، في سبيل التجارة ، داروا حول إفريقيا ووصلوا إلى إنجلترا وإرلندة ، وتغلغلوا في الصحراء الإفريقية . ويكفي أن نذكر أن الإغريق واليهود والرومان اعترفوا للفينيقيين في المجالات الاقتصادية المختلفة ، وخاصة في مجال التجارة ، بالحذق والدهاء ، والنشاط الذي لا يعرف الملل . وعلى هذا النحو فإن قرطاجة ظلت سيدة النصف الغربي من البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت روما أشدها وأدركت خطر قرطاجة عليها فدخلت معها في ثلاث حروب بونيقية انتهت سنة ١٤٦ ق . م . بتدمير قرطاجة وإزالتها من عالم الوجود في أبشع عدوان شنته أوروبا على آسيا وإفريقيا ممثلتين في قرطاجة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفينيقيين عامة والقرطاجيين خاصة لم يكونوا شعباً حربياً على نحو ما كان عليه الأشوريون وغيرهم من شعوب العالم القديم ، وإنما كانوا شعباً تجارياً بحرياً في الدرجة الأولى . وهذه الحقيقة توضح عدم إقامة قرطاجة لجيش وطني إذ إن من المعروف أن محاربيها كانوا جلهم ، إن لم نقل كلهم ، من

المرتزقة الليبيين وغيرهم ولكنها كانت تضع أولئك المرتزقة تحت تصرف قادة بارزين من أبنائها من مثل هنيبال .

الفينيقيون في طرابلس :

لا بد أن الفينيقيين أثناء رحلاتهم التجارية للمتاجرة مع بلدان حوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط قد اضطروا في مناسبات عديدة إلى اللجوء لنقاط مختلفة على الساحل الليبي احتماء من عاصفة أو طلباً للماء والغذاء أو من أجل الاستراحة . ويرجح هذا الرأي علمنا أن الفينيقيين كانوا يفضلون الإبحار قريبين من اليابسة نظراً لصغر سفنهم ذات المجاديف وخوفاً من التعرض للعواصف بعيدين عن اليابسة . وهم إن لم يكونوا قدموا للساحل الطرابلسي لغايات تجارية متعمدة منذ البداية فإنهم لم يلبثوا أن فتحوا أعينهم على أهمية هذا الساحل كمنفذ لسلع السودان وغيره من أقطار إفريقيا الداخلية ، تلك السلع التي كان من بينها الذهب والعقيق والحجارة الكريمة الأخرى والعاج والأبانوس والعبيد من الزنوج ، هذا بالإضافة لكثرة النعام في منطقة طرابلس نفسها ، وقد كان بيض النعام وريشه من السلع التجارية النادرة التي يشتد الأثرياء في طلبها .

ولقد دلت الحفريات التي أجريت في صبراتة على أن الفينيقيين كانوا قد أقاموا فيها خلال القرن السادس قبل الميلاد محطة تجارية (Emporium) يشغلونها في المواسم الملاحية عندما يكون البحر الأبيض المتوسط هادئاً نسبياً والملاحة مأمونة فيه وذلك ما بين شهري مارس / آذار ونوفمبر / تشرين الثاني من كل سنة . ومن المحتمل أنهم قاموا بإنشاء محطات تجارية أخرى حوالي ذلك التاريخ نفسه في لبدة الكبرى (Leptis Magna) وفي طرابلس (= أويا Oea) وكان اسمها الفينيقي فيعات (Ui'at) ، وفي شراكس (Charax) (= مدينة السلطان الحالية) ، وفي مكومادس — يوفرانتا (Macomades - Euphranta) (= مدينة سرت) . وقد سبق أن أشرنا إلى أن قرطاجة التي ربما كانت أقدم

محطة فينيقية كبرى على ساحل الشمال الإفريقي ، نصبت نفسها حامية للمستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ومنها مستوطنات الشمال الإفريقي ، ولذلك فإنها وقفت تدفع عنها التوسع الإغريقي بنجاح وإن كانت فيما بعد قد ذهبت ضحية محاولتها أن تضع حداً للتوسع الروماني . ويختلف قدماء الكتّاب في أي هذه المستوطنات الفينيقية أنشأته صور وأيها أنشأته صيدا ، فالشاعر اللاتيني سيليوس الإيطالي (Silius Italicus) يخبرنا أن مدينة صور أنشأت لبدة وصبراتة وأن مهاجرين من صقلية من أصل فينيقي قاموا بإنشاء أويا ، بينما يؤكد سالّوست (Sallust) أن لبدة أنشأها مهاجرون من صيدا رحلوا عن مدينتهم الأم نتيجة للاضطرابات التي كانت تسودها . وعلينا بهذا الصدد أن نتذكر أن المؤلفين والكتاب اللاتين كثيراً ما كانوا يستعملون النسبة لصور ولصيدا كمرادف لاسم الفينيقيين . وعلى أي حال ، وأياً كانت الجهة التي قدم منها الفينيقيون المؤسسون فإنا نستطيع أن نقول إن هذه المستوطنات أنشئت في فترة متأخرة نسبياً وبرعاية قرطاجة ، فهيرودوتس يفيدنا ضمنياً أن لبدة لم تكن قد تحولت إلى مستوطنة دائمة مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد عندما حاول مهاجرون إغريق من إسبارطة بزعامة دوريوس (Dorieus) ابن ملكها أن ينشؤوا مستوطنة إغريقية عند مصب نهر كنيبس سموها باسم ذلك الوادي حوالي سنة ٥١٧ ق . م . ؛ فقد تدخلت قرطاجة في الحال ونجحت بالتعاون مع قبيلة المكاي الليبية في إجبارهم على التوقف عند خليج سرت الكبير وعدم تجاوزه إلى الغرب . ومن الواضح أن عدم ذكر هيرودوتس لمدينة لبدة في سياق سرده للحادثة السابقة يدعونا إلى الاعتقاد أن لبدة لم تكن قد أنشئت بعد ؛ لأنها لو كانت موجودة لشاركت القرطاجيين وحلفاءهم المكاي في طرد القادمين من المستوطنين الإغريق ، ولا بد لهيرودوتس في مثل تلك الحالة أن يذكر مثل تلك المشاركة . ويؤيد هذا الرأي بعض الحفريات التي أجريت في لبدة إذ إن أقدم ما وجد في المقبرة الفينيقية تحت حلبة مسرح لبدة هي قطعة فخار كورنثية يعود تاريخها للقرن الخامس

قبل الميلاد . وربما كانت أويا قد أنشئت في فترة متأخرة عن تاريخ إنشاء لبدة . وحتى صبراتة التي سبق أن أشرنا إلى وجود محطة تجارية على موقعها في القرن السادس قبل الميلاد لم تصبح مستوطنة دائمة إلا بعد وقت متأخر في القرن الخامس قبل الميلاد .

ولا شك أن قرطاجة برهنت بطردها لدوريوس ومن كانوا معه من الإغريق عندما حاولوا إقامة مستوطنة نهر كنيبس سنة ٥١٧ ق . م . أنها إنما كانت تعلن أو تؤكد سياستها في اعتبار منطقة طرابلس محمية لها فدخلت بسبب ذلك في نزاع مع مدينة قورينة الإغريقية القوية . ونجد إشارة إلى الكيفية التي تمت بها تسوية النزاع على الحدود بين قرطاجة وقورينة في قصة الأخوين فيليني (Philaeni) (أي محبي الشهرة) . تقول تلك القصة إن الجانبين الفينيقي القرطاجي والإغريقي القوريني بعد أن أبليا في سلسلة من المعارك غير الحاسمة لفرض سيطرتهما على الأرض الواسعة الممتدة بينهما ، والتي لم تكن تتبع لأية سلطة معترف بها ، سئما الحرب واتفقا على أن ينطلق من كل من مدينتيهما في وقت معين ممثلون لها سيراً على الأقدام وفي اتجاه المدينة الأخرى ، على أن تكون نقطة التقاء الفريقين هي الحد الفاصل بين الطرفين . وأجاد الأخوان فيليني السير فقطعا ثلثي المسافة بين قرطاجة وقورينة حتى التقيا بفريق قورينة . وحاول الإغريق التنصل من الاتفاق باتهام الأخوين فيليني بأنهما بدءا مسيرتهما قبل الوقت المعين وبأنهما كانا يجريان جرياً وليس مشياً ، ولكن الأخوين فيليني أعلنا استعدادهما لإعادة التجربة من جديد . وهنا أعلن الفريق القوريني أنه لن يقر الحدود عند تلك النقطة إلا إذا قبل الأخوان فيليني أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان وإلا فإن على قرطاجة أن تسمح لممثلي قورينة بالتقدم إلى المكان الذي ترضى به قورينة حداً بين المدينتين مقابل موافقة ممثليها على أن يدفنا حيين في ذلك المكان ليضمنا بذلك إقرار الحدود بين الطرفين . وأمام هذا التحدي أعلن الأخوان فيليني موافقتهما على أن يدفنا حيين حيث كانا يقفان ، وقد عرف المكان بعد ذلك باسم آري فيلينورم (Philaenorum Arae)

نسبة للنصب التذكارية التي أقامها القرطاجيون فوق قبري البطلين . وقد أقام الإيطاليون أثناء احتلالهم لليبيا القوس الرخامي الحالي عند ذلك الموقع .

وهذه القصة تبدو وكأنها مزيج من الحقيقة والأسطورة ؛ فقد ورد في مقالة جغرافية إغريقية أن الحدود بين قرطاجة وقورينة عينت في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد بطريقة سلمية وربما تم ذلك في أعقاب سلسلة من الحروب . وقبول قرطاجة بحل وسط ينطوي على شيء من المهادنة لقورينة الإغريقية يتفق مع سياسة قرطاجة في هذه المرحلة من تاريخها عندما كانت ترمي إلى التفرغ لفتح صقلية الإغريقية ولو أدى تفرغها ذاك إلى مهادنة الإغريق أنفسهم في أي مكان آخر . أمّا الأخوان فيليني نفساهما فهما أسطوريان وحتى اسمهما نفسه فهو إغريقي وليس فينيقياً ، وربما كانت الأسطورة كلها من وضع الإغريق .

معاملة قرطاجة لمحمياتها الفينيقيات على الساحل الطرابلسي :

منذ البداية اتضح لنا أن قرطاجة فرضت نفوذها على منطقة طرابلس والمحطات التجارية الفينيقية (Emporia) التي أنشئت على طول الساحل الطرابلسي والتي بلغ عددها العشر أو نحو ذلك . ولا بد أن هذه المحطات كانت بطيئة في نموها وتطورها فليست هنالك أية إشارة لها في الكتب الكلاسيكية السابقة للعهد الروماني باستثناء كتب الجغرافيا اليونانية . ومن ناحية أخرى فإن الحفريات الحديثة في صبراتة تدل على أن أول توسع ضخم لهذه المدينة إنّما حدث في القرن الثالث قبل الميلاد . ولعل سر هذا الركود يكمن في السياسة التي كانت قرطاجة تنتهجها تجاه المستوطنات الفينيقية في ليبيا ، تلك السياسة التي أعلنتها قرطاجة بوضوح في المعاهدة التي أبرمتها مع روما سنة ٥٠٩ ق . م . وجددت سنة ٣٤٨ ق . م . ، وهي سياسة كانت تحظر على السفن غير الفينيقية المتاجرة مع المراكز الفينيقية في الشمال الإفريقي وبذلك فقد أصبحت صادرات وواردات تلك المراكز أو المحطات احتكاراً لقرطاجة على حساب مصلحة تلك المراكز الذاتية . وفي

نفس الوقت فرضت قرطاجة على تلك المراكز ضرائب عالية ، فنحن نعلم من ليفي (Livy) أن لبدة ، التي كانت مركزاً مالياً إدارياً لمنطقة تشمل أويا وصبراتة ، كانت تدفع لقرطاجة ضريبة يومية مقدارها « تالنت » واحد أي ما يعادل (٢٢٤) جنيهاً استرلينياً ، وهو مبلغ كان يعادل ما يكسبه (٢٥٠٠) عامل في اليوم الواحد . وبالإضافة للضرائب النقدية كانت المحطات الفينيقية في ليبيا تدفع لقرطاجة ضرائب عينية ورسوماً جمركية على صادراتها ووارداتها ، كما كان عليها أن تقدم المحاربين والإمدادات لقرطاجة وقت الحرب . وزيادة على كل ما تقدم كان محظوراً على تلك المستوطنات أن تحتفظ بأية قوات عسكرية أو بحرية خاصة بها .

ومن الناحية الأخرى تركت قرطاجة تلك المستوطنات حرة في تصريف شؤونها الداخلية بما في ذلك التشريع والقضاء الذي كان ينحصر في أيدي أقلية من الأثرياء والأرستوقراطيين على غرار النمط المتبع في قرطاجة ذاتها . وكان اقتصاد المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي يعتمد على دعامتين أساسيتين هما :

١ – المتاجرة في السلع التي تحملها إليها القوافل من أواسط إفريقيا ،

٢ – الزراعة التي كان الفينيقيون من أبرع المزارعين القدماء فيها .

ولذلك فإنّا نجد هذه المستوطنات تتوسع في مجال الزراعة الكثيفة (زراعة الأرض بأكثر من محصول واحد في السنة الواحدة) وفي الزراعة الواحدة بمعنى زراعة النبات الواحد في المكان الواحد المناسب له . ومن الواضح أن أنسب شجرة لمناخ منطقة طرابلس المعرض للجفاف والرياح اللافحة هي شجرة الزيتون . ولذلك فإنّا نجد الفينيقيين يدخلون زراعة هذه الشجرة للمنطقة بأسلوب علمي . وقد أدخلوا كذلك أشجار فواكه أخرى كثيرة من مثل التين والرمان والخوخ واللوز والكرمة . وفي المجالات الزراعية الأخرى أدخل الفينيقيون للمنطقة أدوات زراعية معدنية وأساليب أحدث من الأساليب التقليدية التي كانت سائدة فيها .

وحول هذا الموضوع يقول رستوفتزف : « لقد كان زيت الزيتون والفواكه والنبيذ إلى حد ما ، هي المنتجات الرئيسية للمدن ، فكان ساحل إفريقية في العصور الفينيقية حديقة غناء فسيحة الأرجاء ، وهذه حقيقة لا تدعمها الأدلة الكثيرة المباشرة فحسب ، وإنّما أيضاً الأدلة غير المباشرة ؛ فنحن نعلم أن واحدة من أشهر الرسائل عن الفلاحة هي كتاب ماجو القرطاجني [القرطاجي] . .

. . . .

وكان كتاب ماجو يبحث في الزراعة العلمية والرأسمالية ، وقد وجه أكثر عنايته لا إلى زراعة الحبوب وإنّما إلى غرس الكروم والبساتين ، وعلى الأخص زراعة الزيتون . ومن المحتمل جداً أن اليد العاملة التي استخدمها مُلاك الأراضي من الفينيقيين في مزارعهم كانت على العموم من الأرقاء »[1] .

ولا بد كذلك أن الفينيقيين بدأوا بعض المشروعات الرامية إلى التحكم في مياه الأمطار وتجميعها واستغلالها ، وقد استكمل الرومان تلك المشروعات في مرحلة لاحقة . ودليلنا على ذلك هو ما ذكره استرابو (Strabo) عن وجود سد فينيقي على مصب وادي كعام .

أما فيما يتعلق بالفن والصناعة والدين فإن حفريات الآثار لم تصل إلى شيء يذكر بهذا الصدد حتى الآن وإن كان يؤمل أن تؤدي قريباً إلى الكشف عمّا كانت عليه الحال بالنسبة لهذه الموضوعات في المستوطنات الفينيقية في ليبيا ، إذ لا بد أن هذه المستوطنات كانت تحذو حذو المدن الفينيقية الأصلية وحذو قرطاجة في فنها وصناعاتها ، وفي عبادتها للآلهة الفينيقية المختلفة من مثل ملكارت وعشتار وبعل حامون وثانيث .

---

١ رستوفتزف ، م. « Rostovtzeff M. » ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٢٨١ .

مواقع المستوطنات الفينيقية :

لما كان الفينيقيون تجاراً في الدرجة الأولى ومزارعين في الدرجة الثانية فقد كان من المنطق أن يختاروا مواقع مستوطناتهم الساحلية على مصبات الأنهار والأودية لتكون بمثابة مرافىء تمكنهم من البقاء على اتصال دائم مع البحر الذي كانوا لا يستطيعون الحياة بعيدين عنه . أما الأودية فكانت في غير مواسم المطر تصبح طرقاً طبيعية للقوافل القادمة بالسلع التجارية بين أواسط إفريقيا ، كما إنها كانت في مواسم المطر تؤمن كميات الماء اللازمة للناس والحيوانات والمزروعات . ولهذا فنحن نجد أن الفينيقيين أقاموا لبدة على مصب وادي لبدة في بقعة من أخصب بقاع منطقة طرابلس ، وأقاموا أويا على مصب « وادي لمجينين » كما أقاموا صبراتة على رأس الطريق التجاري الهام الذي كان يحمل سلع أواسط إفريقيا إلى صبراتة ماراً بغدامس .

وإذا ما فكرنا في العمران فإنّا قد نتساءل في أيامنا هذه عن السر في أن الإغريق والرومان تركوا آثاراً ضخمة في الأماكن التي استوطنوها في ليبيا بينما لم يترك الفينيقيون شيئاً يذكر . والذي يبدو لنا هو أن الفينيقيين ، بالرغم من شهرتهم في هندسة البناء وبالرغم ممّا خلفوه من آثار في فينيقية وقرطاجة ، كانوا خارج هاتين المنطقتين تجاراً وزراعاً ولم يكونوا عشاق بناء ؛ بمعنى أنهم كانوا يكتفون بأبسط البنايات في المستوطنات التي أقاموها في ليبيا ما دامت تفي بأغراضهم ، بينما كان الإغريق والرومان يكرسون حياتهم وجهدهم للأماكن التي يستوطنونها ؛ لأنهم قد عقدوا النية مقدماً على البقاء فيها إلى الأبد ؛ وإذن فلا بد لهم من أن يؤمنوا فيها وجود كل المرافق الضرورية من حمامات ومسارح وساحات وطرق ومعابد على غرار ما تعودوا عليه في بلادهم الأم . هذه ناحية ، أمّا الناحية الثانية فهي أن الأبنية الفينيقية في ليبيا كانت بسيطة إلى حد جعل اندثارها وتلاشيها أمراً سهلاً . وبالإضافة لذلك الاعتبار فإن علينا أن نتذكر أنّه لم تجر في مواقع

المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي حفريات كافية لتقرير مدى ما وصل إليه العمران الفينيقي فيها .

بسبب هذا كله فإن المستوطنات الفينيقية على الساحل الطرابلسي تشتهر حالياً في مجال الآثار والسياحة بآثارها الرومانية والبيزنطية أكثر مما تشتهر بأصولها الفينيقية ولذلك فسوف نؤجل الحديث المفصل عن آثار المستوطنات الرئيسية الثلاث (لبدة وأويا وصبراتة) التي سمى الإغريق المنطقة كلها باسمها أي طرابلس (Tripolis) أو منطقة المدن الثلاث إلى ما بعد الحديث عن الرومان في ليبيا .

بعد تدمير قرطاجة :

دمر الرومان قرطاجة سنة ١٤٦ ق . م . ولكن المستوطنات الفينيقية في منطقة طرابلس لم تصبح تابعة لروما إلا بعد سنة ٤٦ ق . م . فماذا كان يجري في تلك المستوطنات خلال المائة سنة التي انقضت بين تدمير قرطاجة وتبعية تلك المستوطنات لروما ؟ إن مصادرنا لا تمدنا بالشيء الكثير للإجابة على هذا السؤال . والقليل القليل الذي نعرفه يتلخص في أن تلك المستوطنات استمرت تعيش حياتها الخاصة وتدبر شؤونها الذاتية كما كانت تفعل في ظل قرطاجة ، أي إن كلاً منها ظلت خاضعة لتنظيم حكومي على نحو التنظيم الذي عرفته في عهد قرطاجة والذي يعطي السلطة لأقلية أرستوقراطية في كل مستوطنة . وفي مجال الزراعة ظلت كل منها تقوم بنشاطها كالمعتاد . والجديد في الصورة هو أن تلك المستوطنات استراحت الآن من عبء الضرائب الثقيلة التي كانت تدفعها لقرطاجة ، واستراح أبناؤها من الخدمة العسكرية التي كانت تتطلبها قرطاجة بين الحين والآخر ، وفي الوقت ذاته انكسر سور الاحتكار الذي كانت قرطاجة تحيطها به فانفتحت على العالم الخارجي وأصبحت تسير تجارة نشطة خاصة بها مع روما ونوميديا وغيرهما من البلدان المجاورة . ولم يطل الأمر بالدولة النوميدية الناشئة حتى فرضت نفوذها

في الستينات من القرن الثاني قبل الميلاد على إقليم طرابلس والمستوطنات الفينيقية القائمة عليه ، ولكنها تركت لها حرية تصريف شؤونها كالمعتاد مما أدى إلى انتعاش اقتصادي نلحظه في التوسع العمراني الذي سجلته كل من صبراتة ولبدة لأول مرة . واستمرت الحال على ذلك النحو حتى تغلب يوليس قيصر على منافسه بومبي في معركة فرسالس وبدأ بتنظيم الأملاك الرومانية في الشمال الإفريقي ومنها الإقليم الطرابلسي ؛ وسنتعرض لذلك عند الحديث عن العصر الروماني .

هذا بالنسبة للمستوطنات الفينيقية ، أما القبائل الليبية التي كانت تعيش في إقليم طرابلس فقد استمرت هي الأخرى تعيش عيشتها البدوية كالمعتاد ؛ فكان بعض الليبيين القريبين من الساحل يحتكون بالفينيقيين ويتأثرون بهم فينقلون عنهم ما يستطيعون نقله في كافة المجالات من زراعية وتجارية وعمرانية وحتى في مجال اللغة والأدب والفنون . أما الليبيون البعيدون فقد ظل تأثرهم بالفينيقيين قليلاً وظلوا أكثر تعلقاً ببداوتهم وأشد إخلاصاً لها . وتبعاً لذلك فقد ظل محور حياتهم يدور على الزراعة والرعي وتربية المواشي ؛ وبالطبع فإنهم كانوا يتبادلون إنتاجهم مع المستوطنات الفينيقية فيأخذون منها ما يحتاجون إليه من السلع المستوردة من الخارج ويعطونها ما يفيض لديهم من سلع زراعية وحيوانية كالزيتون والجلود .

فزان منذ مقدم الجرامنتيين حتى بدء العصر الروماني

ليس من اليسير أن يحدد المرء المنطقة التي سكنها الجرامنتيون في دواخل ليبيا ولكن من المعروف أنهم استوطنوا عدداً كبيراً من الواحات التي كانت ولا تزال منتشرة هنا وهناك في إقليم فزان ، وتركزت تجمعاتهم بشكل خاص في سلسلة الواحات في وادي الآجال [1] ، وانتشرت قراهم شمالاً حتى المنحدرات الشمالية للحمادة الحمراء وهي سلسلة التلال القائمة إلى الجنوب من سهل الجفارة — وقد استقروا في المنطقة من غدامس — وغيرها من الواحات — في الغرب ، إلى الكفرة في الشرق . وكانت الصحراء إلى الجنوب من مساكنهم تقوم ، بالنسبة لهم ، بمثابة الساحل للفينيقيين والقرطاجيين ؛ فقد كانوا يقطعونها بعرباتهم ذات الخيول الأربعة ويقيمون الحصون على مصادر المياه التي كانوا يجدونها في أوديتها لحماية طرقهم التجارية ، ولتكون بمثابة استراحات لهم ولحيواناتهم . أما كيف كانوا يقيمون تلك الحصون في مناطق رملية تكاد تكون خالية تماماً من مواد البناء الأولية فنحن نعلم أنهم كانوا يحملون مواد البناء الضرورية معهم من مساكنهم وينقلونها على عرباتهم إلى مواقع المياه التي يريدون إقامة الحصون عليها [2] .

ولقد سبقت الإشارة إلى أننا نفهم من هيرودوتس وپلايني وميلا وغيرهم من الكتّاب الكلاسيكيين أنه كان يسكن منطقة فزان قبل قدوم الجرامنتيين

١ يقع وادي الآجال إلى الجنوب من سبها بفزان ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول يبلغ حوالي مائتي كيلومتر وعرض يتراوح بين اثنين إلى ثلاثين كيلومتراً .

٢ انظر الملحق « ب » وانظر أيضاً : Ayoub, *Excavations in Germa*, A Stencil pamphlet at the Library of Antiquities, The Museums, Tripoli, Libya, No : 3839, p. 3.

جنسان من الناس : أقزام من الزنوج أسماهم هيرودوتس « ترجلودايت » واكتشفت لهم قبور كثيرة غير عميقة بين تلال حمادة مرزق وقطع من فخارياتهم تشبه فخار عصر ما قبل الأسرات في مصر ، ويعتقد أنهم أسلاف الدوّادة الحاليين الذين يعيشون بين كثبان أُباري ، ورعاة من الزنوج الطوال الذين اكتشفت لهم رسوم صخرية في تدرات — أكاكوس إلى الشرق من غات وهؤلاء هم الجنس الإثيوبي [1] . أمّا من أين جاء الجرامنتيون البيض إلى فزان ومتى وكيف فهي أمورٌ ما زالت غامضة وتحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء . والنظرية الدارجة والتي تجيب على تلك الأسئلة هي أن الموجة الدورية التي غمرت بلاد اليونان حوالي سنة ١١٩٤ ق . م . أحدثت تدافعاً سكانياً عمت آثاره آسيا الصغرى ومنطقة الشرق الأوسط بما فيها مصر التي تمكنت أن توقف تيار تلك الهجرات . ولعل أقواماً من أولئك المهاجرين القادمين من وراء البحر ومعهم مهاجرون من صقلية وسردينيا وجزر أُخرى من جزر البحر الأبيض المتوسط نزلوا ساحل برقة وخليج سرت ، حيث لم تكن هنالك سلطة قوة مركزية تستطيع التصدي لهم ، بعد أن صدتهم مصر عن سواحلها . ولم يلبثوا أن امتزجوا بالليبيين ثم اضطروا في ظروف لا نعرفها — وربما كانت لا تعدو قدوم مهاجرين آخرين ضغطوا على الجرامنتيين — إلى التوغل في دواخل ليبيا . وفي هذا الوقت كانت تعيش في واحات فزان وأوديتها الخضراء وحوش وحيوانات برية كثيرة كالغزال والودان ، وكان الفزانيون المسالمون يربون مواشيهم ويعيشون عيشة إنسان العصر الحجري الحديث فيستعملون أسلحة بسيطة من الخشب والحجارة لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أسلحة البرونز أو الحديد وكانوا يجهلون الخيل والعربات مما شجع أقوام البحر الجرامنتيين على غزوهم واحتلال ديارهم قادمين من شواطىء برقة وخليج سرت الكبير . وبعد أن استقر الغزاة الجرامنتيون في المنطقة جعلوا من أنفسهم طبقة

١ انظر أيضاً : Ayoub, *The Expedition of Cornelius Bolbus*, 1968 pp 9 — 10.

عسكرية حاكمة واستعبدوا سكان المنطقة الأصليين ليسخروهم في مزارعهم وفي رعاية ماشيتهم وقضاء مصالحهم الأخرى ، وكان ذلك حوالي القرن الثامن قبل الميلاد .

وقد دلت الحفريات على أن أول مستوطنة أقامها الجرامنتيون كانت على قمة جبل زنككرا حيث وجدت ثلاثة من جدرانهم السايكلوبية (Cyclopic walls) وبقايا من أكواخهم . وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة زنككرا تعني « العسل » بلغة الطوارق ، فهل كانت التسمية ترجمة من الطوارق لأصل جرامنتي ؟ هذا الجبل يقوم في الحمّادة الحمراء ويمتد شمالاً في وادي الآجال وهو عبارة عن قمتين : الجنوبية وهي الأقدم ، والشمالية وهي التي استوطنها الجرامنتيون حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، فأقاموا عليها بيوتاً صغيرة وكونوا مزارع مدرجة على منحدراتها ، وأحاطوها بجدار طويل عملت فيه مصارف للتحكم في توزيع مياه المطر المتجمعة أمامه والإفادة منها في أعمال الري — وكانت بيوتهم تتكون من غرف صغيرة مبنية بآجر الطين أو بالآجر الأحمر ، وقد استعملوا روث البقر لطلاء جدرانها ومصاطبها وهي طريقة ما زالت مستعملة في كل من السودان والهند حتى اليوم [1] ولعل هذا المستوى من المساكن يمثل مرحلة متقدمة نسبياً لأن المعروف أن مساكن الجرامنتيين كانت في أول أمرها مساكن بسيطة لا تعدو كونها أكواخاً أو خياماً من جلود الحيوانات . وتأتي مرحلة النهضة الجرامنتية بعد قيام جرما القديمة فقد دلت آثارها على أنها كانت محاطة بسور وخندق وكان في داخلها بيوت كبيرة وحمامات ومعابد ، كما كانت بها أسواق يظهر فيها أثر الطراز الروماني ، ووجدت بها كذلك أعمدة تنتصب بتيجانها الكورنثية والدورية شواهد على التأثير الإغريقي [2] . وفي هذه الفترة صار البيت الجرامنتي

1 Ayoub, M.S., *Fezzan, a short History*, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1968, pp 42 — 46.

2 لم توجد في أعمق طبقة كشفتها الحفريات في جرما القديمة حتى الآن أدلة على أبنية أقدم من القرن —

يتكون من شقة أو أكثر ، وصارت جدرانه ومصاطبه تطلى بملاط من الجير أو الجبس الملون . وكشفت الحفريات كذلك عن أن جرما القديمة كانت تتمتع بإمدادات مياه جيدة وبنظام ممتاز للمجاري وبشوارع تظللها الأشجار وبكثير من البساتين التي كانت تحيط بالمدينة وتضفي عليها رداء جميلاً من الخضرة .

ونحن وإن كنا لا نزال نجهل حدود مملكة الجرامنتيين التي لا بد أن تكون قد شملت فزان ومنطقة واسعة حولها إلا أننا بدأنا ، بفضل علم الآثار ، نتعرف على تاريخ هذه القبيلة القوية ؛ فقد كشفت الحفريات عن وجود ما يزيد على أربعين ألف قبر بجوار عاصمتهم جرما ، التي كانت عبارة عن مدينة صغيرة تتألف من معابد حجرية وحصون ومنازل متباعدة وآبار رومانية حفرت فيها بعد دخول الرومان . وآثار جرما على غرابتها ، ليست أغرب من آثار جرامنتية أخرى هي عبارة عن حوالي مائة ضريح هرمية الشكل لا تزال قائمة في مقبرة الحاسيا المجاورة لجرما .

والجرامنتيون ، كمجتمع مستقر ، قطعوا شوطاً حضارياً لا بأس به . وتتجلى حضارتهم في العمران الذي أشرنا إليه وفي نظام الحكم والتجارة والزراعة — ولقد كان المجتمع الجرامنتي يتكون من الفئات التالية : الملك وحاشيته ثم الأمراء ثم الحكام ، وتأتي بعد ذلك طبقة العمال فطبقة السكان القدماء الإفريقيين الذين كان بينهم بعض البربر — ولم يتأثر النظام الجرامنتي القائم على الأرستوقراطية العسكرية بالنظام الملكي اليوناني ولا بالنظام الروماني ولا بالقرطاجي بل ظل مخلصاً للطبيعة البدوية التي اكتسبها في ليبيا ؛ فقد دلت آثار الأمراء والحكام المحليين على أنهم كانوا غير قابلين للتأثر بالنظم المجاورة ولذلك فقد كانوا مثلاً لا يترفعون عن ترؤس الغرف التجارية ولا عن العمل في التجارة . وهم لذلك

— الميلادي الأول . ومعظم أبنية هذه الطبقة ترجع إلى النصف الأول من القرن الميلادي الثاني ، وهي تدل على أن الجرامنتيين كانوا عند هذا الحد قد تأثروا في مجال العمران بالإغريق والرومان عن طريق احتكاكهم بالنوميديين وبلبدة وأويا وصبراتة .

كانوا أثرياء أقوياء إلى حد أنّه كان باستطاعتهم أن يقاوموا حتى ملوكهم . وكان الملك الجرامنتي رأس الدولة وقائد الجيش والكاهن الأعظم للبلاد فكان بذلك مصدر السلطة ، فالأمراء والحكام المحليون إنّما كانوا يتلقون سلطتهم منه مقابل تقديمهم الضرائب والمحاربين له . وكان الجيش الجرامنتي يتكون من المشاة ومن الفرسان الذين يمتطون العربات أو صهوات الخيول . ويبدو أنّه كان في جيشهم ذاك فرقة كوماندو تستخدم في الدرجة الأولى لقطع الطرق ولردم الآبار . أما الطبقة العاملة فكانت تتكون من العمال اليدويين وصغار التجار . وقد قال استرابو عن هذه الطبقة في وقت لاحق : « إن حياتهم لم تكن حياة فخفخة ورفاهية ولكنهم لم يكونوا فقراء فقراً مدقعاً وإنّما كانوا طبقة متوسطة عادية » . ويذكر استرابو وغيره من الكتّاب الكلاسيكيين أن الجرامنتي كان يتزوج عدة زوجات ممّا ينقض ما ذهب إليه بعض الكتاب المعاصرين من أن الجرامنتيين هم أجداد الطوارق ، لأنّنا نعرف أن الطوارق يجلون النساء إلى حد أنّهم يقيمون نظام الإرث على جهة عصبية الأم وينتسبون للأم بدلاً من الأب ولا يتزوج الواحد منهم أكثر من زوجة واحدة .

وفي مجال الزراعة والرعي يتحدث هيرودوتس[1] عن ديار الجرامنتيين على الصورة التالية : « على مسيرة عشرة أيام أخرى من أوجلة نحو الغرب تأتي إلى تلة ملح أخرى بها نبع كغيرها من هذه التلال ، وفيها أشجار نخل من النوع الذي يثمر كما هي الحال في الواحات الأخرى . وهنا يقطن الجرامنتيون ، تلك القبيلة العديدة ، التي يفرش أبناؤها طبقة من التراب فوق الملح ، ثم يزرعون بذورهم فيها[2] . وعندهم كذلك البقر التي تسير إلى الوراء أثناء رعيها . والسبب في هذه العادة الغريبة هو أن قرون هذا النوع من البقر تنمو منحنية إلى الأمام

---

١ انظر الملحق « ب » ص ٦٨٢ .

٢ لقد ذكر پلايني أن الجرامنتيين استعملوا روث البقر كسماد زراعي في القرن الأول قبل الميلاد حينما كانت لا تزال هنالك بعض الأنهار الموسمية التي كانت مياهها تستغل في ري الأراضي الزراعية.

ونحو الأرض ، ممّا يمنع البقر من التحرك إلى الأمام ، كما هي العادة ، لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض . وفيما عدا ذلك فإن بقر الجرامنتيين تشبه غيرها من البقر ، وإن كانت تمتاز عنها بسمك جلدها وصلابته . ويقوم الجرامنتيون بأسر رجال الكهوف الإثيوبيين أي الترجلودايت (Troglodytes) بمطاردتهم في عربات تجر الواحدة منها أربعة خيول ، لأن هؤلاء الترجلودايت سريعو العدو إلى حد يفوق التصور . فهم أسرع من أي شعب نعرفه ، وهم يأكلون الأفاعي والسحالي والزواحف الأخرى ، ويتكلمون لغة ليس لها شبيه في العالم فهي كزعيق الخفافيش » .

ولعل التجارة كانت أهم مرفق اقتصادي للجرامنتيين فقد دفعتهم إلى أن يصبحوا مهرة في الملاحة الصحراوية إن جاز التعبير ، فعرفوا كيف يهتدون فيها بالنجوم ، كما إنهم أقاموا الحصون والمحارس التي لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم على طول طرق قوافل الصحراء . والطرق التجارية عبر الصحراء الليبية ليست اكتشافاً من إنجاز الجرامنتيين أنفسهم فقد كانت فيها طرق ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، كما إن نصوص العصر التاريخي في مصر القديمة تذكر أن أحد تجار أسوان استخدم ليبيين ليقطع الصحراء بقافلة مكونة من ثلاثمائة حمار ، وقد استخدمت الحمير في القافلة نظراً لشدة قدرة الحمار على تحمل الظمإ ولأن الجمل لم يكن قد عرف بعد . وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن ماجو (Mago) القرطاجي استخدم الحمير في أيام الجرامنتيين لعبور الصحراء . ولا شك أن الجرامنتيين في بداية عهدهم بالصحراء استخدموا الثور للنقل والسفر ، ولذلك فقد ظهرت صورته مسرجاً في بعض رسوماتهم على الصخور . ولكن غلب على الجرامنتيين استخدام الحصان أكثر من غيره فاستخدموه لجر العربات إلى جانب ركوبه مباشرة ؛ وسنجد أنهم ظلوا يعتمدون على الخيل حتى في القرن الميلادي الرابع عندما شاع استخدام الجمل الذي أبوا أن يستخدموه رغم ما يتميز به عن الحصان في الأسفار الصحراوية .

وبالنظر لموقع جرما القديمة ومهارة الجرامنتيين في الملاحة الصحراوية وقدرتهم – بسبب قوتهم وكثرة عددهم – على حماية القوافل التي يهمهم أمرها فقد أصبحت جرما ، عاصمتهم ، مركزاً تلتقي فيه القوافل الذاهبة لأواسط إفريقيا من الساحل الليبي والقوافل القادمة من أواسط إفريقيا باتجاه ذلك الساحل . ولقد كانت الطريق العابرة بجرما من سرت إلى السودان أقصر تلك الطرق وبالتالي أكثرها استعمالاً . وكان قصرها ناتجاً عن تعمق النتوء البحري في القارة عند سرت حتى خط عرض ٣٠° شمالاً . أما بالنسبة للعبور من جرما إلى تشاد فإن الذي كان يجعل السفر ميسوراً هو وجود سلسلة من الواحات تنتشر من الشمال إلى الجنوب وعلى مسافات قصيرة ما بين فزان وتشاد . وأشهر طرق القوافل التي كانت تربط الساحل الليبي بجرما هي :

١ – طريق صبراتة – غدامس – إدري – صحراء أباري – جرما .

٢ – طريق أويا – غريان – إلى يرغن عبر الجبال – كثبان أباري – جرما ، وقد اشتهرت باسم طريق أكلة اللوتس .

٣ – طريق لبدة – غرزة – شوارف – براك – سبها – جرما .

٤ – طريق سرت – ودان – هون – عبر جبال السوداء إلى سبها – جرما .

وفي الوقت ذاته كانت أشهر الطرق التي تربط جرما بتشاد والسودان هي :

١ – جرما – زويلة – كفرة – إنيدي – إلى مورو في السودان .

٢ – جرما – قطرون – فايا – تشاد .

٣ – جرما – قصرمارا – شرابا – إلى كواز على نهر نيجر .

٤ – جرما – إمسك – نهر النيجر[1] .

---

١ Ayoub, M.S. *Fezzan, a Short History*, Controllery of Southern Governorates, Tripoli, 1968, pp 77 — 80.

وبالإضافة إلى تلك الطرق كان هنالك طريق آخر يربط جرما بالنيل شرقاً وبشاطىء المحيط الأطلسي غرباً مبتدئاً من ممفيس أو الأقصر عبر الواحات المصرية إلى سيوة فأوجلة فجرما ومنها إلى متخندوش ، ثم إلى أكاكوس ومنها يسير عبر الهجار فأواسط الصحراء إلى الساحل الموريتاني على المحيط الأطلسي .

وكانت القوافل الجرامنتية تحمل إلى أواسط إفريقيا بعض الإنتاج الجرامنتي مثل الملح ثم بضائع ما وراء البحر كالخزفيات والزجاجيات والملابس والأدوات الحديدية والحجارة الكريمة والحلي . وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نتذكر أن الجرامنتيين كانوا يحتكرون تجارة الملح المتوافر بكثرة في بلادهم والذي كانوا يستبدلونه بالذهب مع بلدان أواسط إفريقيا . أما السلع التي كانوا يعودون بها من أواسط إفريقيا فكانت الحيوانات المفترسة ، وجلود الحيوانات ، والعاج ، والأخشاب وخاصة الأبانوس ، والعبيد ، والذهب الذي كانوا يأتون به من النوبة أو النيجر ، والفضة من منطقة تمبكتو . وكان من إنتاجهم الياقوت أو حجر الأمازون الذي عُرف باسم الحجر القرطاجي لأن قرطاجة هي التي كانت تصدره إلى العالم الخارجي بعد استيراده من الجرامنتيين . وجدير بالذكر في هذا الصدد أن الفراعنة كانوا يسمون ذلك الحجر بالحجر التمحي من الواوات ، نسبة لقبيلة التمحو الليبية التي كانت تنتشر أو تتحرك في المنطقة بين شرق فزان وغرب النيل . ولقد أثبتت الحفريات صحة التسمية الفرعونية فقد اكتشف مونود (Monod) الفرنسي محجراً للأمازون على بعد قليل إلى الشرق من الواوات : واو الناموس ، وواو الكبير . وبالإضافة إلى تلك السلع تاجر الجرامنتيون أيضاً في الخيل والحمير والمواشي .

وبحكم هذه التجارة وأهميتها للاقتصاد الجرامنتي نشأت بين الجرامنتيين والإغريق وبينهم وبين القرطاجيين علاقات ودية سلمية ساعدتهم على الإثراء . وقد زاد في أهمية جرما أن القبائل الليبية التي كانت تنظر إلى نوميديا كمثال يحتذى صارت بعد سقوط نوميديا سنة ٤٠ م . تتطلع إلى جرما باعتبارها النموذج المثالي

الجديد الذي صارت تلك القبائل تحذو حذوه .

وفي مجال الصناعة دلت الآثار على أنه كانت تقوم في جرما صناعات على محدودة من مثل صناعة الحلي الذهبية والفضية ، وصناعة الأغواش والأساور والأقراط من حجر الأمازون الذي أسماه الرومان فيما بعد (Carbuncle) أي العقيق . وقد كان هذا الحجر في ذلك الوقت يعتبر كريماً كالجواهر في أيامنا هذه . ولا شك أنه كانت لدى الجرامنتيين صناعات أولية أخرى مما يتعلق بالحاجات الضرورية كالمأكل والملبس والمسكن وبعض الأسلحة وما شابه ذلك .

وإذا ألقينا نظرة على فن الرسم عند الجرامنتيين في هذه المرحلة فإننا سنلاحظ أن الرسوم الجرامنتية الأولى كانت بدائية للغاية إذا ما قورنت برسوم الرعاة الذين احتل الجرامنتيون ديارهم وسخروهم في خدمتهم . ولعل خير ممثل لهذه المرحلة من الفن الجرامنتي هو تلك النقوش الصخرية التي وجدت في زجزا (Zigza) بشمال فزان ، وبجبل غنيمة في جنوبها وفي جبل زنككرا في منطقة جرما . ويبرز بين النقوش المختلفة رسم عربة وخيلها ، وقد مثل الجسم فيه بزاويتين قائمتين بينما مثلت الأيدي والسيقان بخطوط مستقيمة ومثل الرأس بنقطة . وسنلاحظ أن هذا الفن الجرامنتي لم يلبث أن ترقى فيما بعد ووصل حداً معقولاً من التقدم . والمعتقد أن الجرامنتيين لم يكونوا نحاتين إذ لم يكتشف بين آثار جرما حتى الآن سوى تمثال نصفي من الحجر الرملي لرجل يلبس رداءاً .

ونحن وإن كنا لا نعرف الكثير عن حياة الجرامنتيين الدينية إلا أننا نعرف أنهم عبدوا الإلهة تانيت (Tanit) الليبية ، التي كانوا يرون فيها سيدة للصحراء ، وحبيبة القمر ، ومرشدة للقوافل ، وسراً للينابيع المتدفقة . وقد حافظت هذه الإلهة على ليبيتها لدى الجرامنتيين بالرغم من أن القرطاجيين عبدوها ورأوا فيها نظيراً لإلهتهم عشتار الفينيقية فزوجوها لإلههم بعل حامون . ولا شك في أن الجرامنتيين عبدوا كذلك الإله زيوس آمون الليبي الذي كان مقره في واحة سيوة بالإضافة إلى قوى مظاهر الطبيعة المتعددة ، كما أنهم أخذوا عن الليبيين

تقديس الأسلاف والنوم على قبورهم من أجل الاستخارة واستطلاع المستقبل . ولو كنا نعرف على وجه التحقيق أين كان الجرامنتيون يقيمون فيما وراء البحر قبل قدومهم إلى ليبيا لاستطعنا أن نحدد الآلهة التي لا بد وأنهم نقلوها معهم إلى فزان عند غزوهم لها واستقرارهم فيها . وإذا التفتنا إلى قبورهم وطريقتهم في الدفن وجدنا أن أقدم نوع اكتشف من قبورهم هو مجموعة من القبور المستديرة ذات اللحود الصغيرة وغير العميقة ؛ وكانوا يدفنون الميت فيها على وضع يشبه وضع الجنين في الرحم . ولم توجد في تلك القبور سوى فخاريات قليلة وبعض أدوات الزينة المصنوعة من الحجارة والعظام .

ليبيا في العصر البيزنطي

موجز تاريخ البيزنطيين :

نبتت فكرة تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور ديوقلتيان في أواخر القرن الميلادي الثالث وفي أعقاب نصف قرن من الفوضى العسكرية والحروب الأهلية . وكان ديوقلتيان نفسه يعتبر الإمبراطورية أضخم من أن يستطيع إمبراطور واحد أن يحكمها . وقد أحس القوم منذ أيام القياصرة الأول بضرورة وجود وزير لاتيني وآخر يوناني ، ومضى ديوقلتيان في تنفيذ هذا التقسيم الأساسي إلى أبعد من ذلك حينما أمر أن يكون للإمبراطورية إمبراطوران اثنان يقيم أحدهما في شطر من شطريها ويقيم الثاني في الشطر الآخر . ولكي يتجنب المشاكل التي كانت عادة ترافق انتقال العرش ، جعل لكل إمبراطور قيصراً يساعده ويكون وريثه بعد موته . وفي الوقت ذاته أعيد تقسيم الولايات وتنظيمها فقسمت الإمبراطورية إلى أربع إيالات كبرى هي : غالة (فرنسا) ، إيطاليا ، إلّيريا (البلقان) ، والشرق ؛ ووضعت كل إيالة تحت إمرة حاكم برايتوري (Prætorian Prefect) كان أعلى موظف في الدولة وكان بمثابة نائب للإمبراطور لكن مركزه في الإيالة ، وكانت بيده سلطات إدارية ومالية وقضائية مطلقة ولكن لم يكن له سلطان على الجيش . وكان هذا الحاكم العام يتولى تقسيم إيالته إلى دوقيات (Dioceses) ويعين دوقاً على رأس كل دوقية . وكانت الدوقية تقسم إلى أبرشية أو أكثر يترأس كلاً منها حاكم غلبت عليه الصفة المدنية . وقد ظل هذا التقسيم الإداري قائماً طيلة الفترة التي ندرسها أي حتى القرن الميلادي السابع عندما قسمت الإيالات الكبرى الأربع إلى تسعة وعشرين إقليماً (Theames) وصار السّترانيجوس (Strategos)

أي قائد الإقليم يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية في إقليمه . وبالإضافة للإيالات الأربع الكبرى السابقة كانت هنالك إيالتان أخريان هما إيالة آسيا وإيالة إفريقية وكان على رأس كل منهما حاكم عام يلقب بروقنصل وله حق الاتصال المباشر مع الإمبراطور .

وفصل ديوقلتيان السلطة المدنية عن العسكرية فأنشأ إلى جانب التنظيم المدني تنظيماً عسكرياً ضخماً وكون جيشاً إمبراطورياً سريع الحركة . ولكي يضمن استقراراً للمجتمع ، وضماناً لانتظام دخل خزينة الإمبراطورية من الضرائب فإنّه بعث من جديد فكرة الإمبراطور أوريليوس ووضعها موضع التنفيذ حينما أمر بأن يلتزم كل ابن حرفة أبيه ولا يتزحزح عنها أيما كانت . ولكي يتخلص من خطر النبلاء بدأ يشكل جيشه من أبناء الطبقة المتوسطة دون النبيلة . ثم إنّه حاول أن يثبت النقد على ما كان عليه أيام أوغسطس فأصدر عملة من ذات الوزن الكامل ولكن ذلك أدى إلى عكس ما كان ينتظر منه أي إلى ارتفاع الأسعار ، مما حمل ديوقلتيان على إصدار مرسومه الشهير سنة ٣٠١ م . والذي حددت بموجبه أسعار السلع كل على حدة .

أما فيما يختص بعلاقة الإمبراطور برعاياه فإن ديوقلتيان كان يرى أن من الأصلح للإمبراطور وللرعية أن يصبح الإمبراطور نصف إله وقد أدى به ذلك إلى الاصطدام مع أتباع الديانة المسيحية من رعاياه واضطهادهم .

بهذه التنظيمات بذر ديوقلتيان بذرتين لم تلبثا أن نمتا وشكلتا الاتجاهات الأساسية للإمبراطورية فقد أثمرت إحداهما تقسيم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية وأثمرت الأخرى إرساء قواعد الحكم الأوتوقراطي المطلق في الإمبراطورية البيزنطية ؛ إذ إن الحكم الدياركي (Dyarchy) أي الثنائي الذي أقامه الإمبراطور أوغسطس جاعلاً من مجلس الشيوخ الروماني شريكاً له في الحكم لم يدم طويلاً وإن كانت آخر آثاره لم تزل من الدولة إلا في نهاية القرن التاسع . وواقع الحال أن الإمبراطور صار منذ أيام ديوقلتيان يحكم البلاد بمفرده فكان هو السلطة العليا

في البلاد وأعلى مرجع فيها ، وكان يستطيع تعيين جميع الوزراء وعزلهم بمطلق إرادته كما كانت بيده مقاليد التصرف المطلق في الشؤون المالية ، وكان التشريع محصوراً فيه وحده ، وصار هو القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية في الإمبراطورية ، وهو فوق ذلك رئيس الكنيسة والقسيس الأعلى للإمبراطورية ، وكانت سياسته ونزواته هي التي تصوغ مصير الملايين من رعاياه .

وكان حق انتخاب الإمبراطور محصوراً في مجلس الشيوخ « السناتو » وفي الجيش ، وشعب القسطنطينية ؛ فكان لا بد من موافقة هذه الجهات الثلاث على تولي الإمبراطور للحكم ليكون نائباً لله شريطة أن يحكم وفقاً للقانون الروماني . ولكن متى تمت تلك الموافقة وتم تتويج الإمبراطور فإنّه يصبح حاكماً مطلقاً ما دام حائزاً رضا الناس . فإذا ظهر أنّه غير قادر على القيام بمهام منصبه جاز لأي واحدة من الجهات الناخبة الثلاث أن تعزله وتعلن بدلاً منه إمبراطوراً جديداً ، وكان الذي يقوم بذلك عادة هو الجيش أو فريق منه . وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه كان يحق للإمبراطور بعد انتخابه وتتويجه أن يضم إليه في الحكم أباطرة آخرين يختارهم هو .

أما مجلس الشيوخ فقد بلغ أوج ازدهاره في القسطنطينية في القرنين السادس والسابع للميلاد ، وهو وإن كانت القسطنطينية قد ورثته عن روما إلا أنّه لم يكن مماثلاً لسناتو روما القديم رغم أنّه منح امتيازات الأخير جميعها بما فيها حق الانتخاب سنة ٣٩٥ م ، ذلك أن السناتو البيزنطي كان يتألف من جميع أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين ممّن كانوا فوق مستوى معين ، ثم من ذرياتهم ؛ فكأنّه كان بذلك هيئة غير محددة الشكل تجمع بين ذوي النفوذ وأهل الثراء وأرباب المراكز المسؤولة في الإمبراطورية . وبذا فإن سلطانه في الواقع كان ينحصر في أنّه هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء أغنى عناصر الدولة وأقواها :

وجاء قسطنطين الكبير (توفي سنة ٣٣٧ م .) فواصل السير على خطة ديوقلتيان وأنشأ عاصمته الجديدة القسطنطينية على موقع قرية بيزنطة الإغريقية .

وقد أصبحت العاصمة الحديثة صورة جديدة لروما القديمة فحق لمؤسسها أن يسميها « روما الجديدة » وإن كانت تختلف عن القديمة في أنها أصبحت عاصمة مسيحية ليست لها الارتباطات الوثنية التي كانت لروما . ولقد تأكدت في العاصمة الجديدة منذ البداية المبادىء الأساسية الثلاثة للإمبراطورية البيزنطية : التقاليد الإمبراطورية ، الكنيسة الأرثوذكسية والثقافة الإغريقية ، وقد كانت هذه هي القوى الثلاث الدائمة التي ظلت توجه الحكم والدين والأدب في الإمبراطورية البيزنطية . وكانت الخطوة الكبيرة الأخرى التي اتخذها قسطنطين الكبير بعد بناء القسطنطينية هي الميل نحو الديانة المسيحية ، ذلك الميل الذي أدّى خلال القرون الثلاثة التالية إلى إقامة وحدة وثيقة بين الكنيسة والحكومة في ظل الإمبراطور ممّا أدى إلى خلق الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية على أسس مغايرة في مجموعها ومحصلتها لتلك التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية الغربية تحت زعامة روما . ولذلك فإن الفترة ما بين قسطنطين وهرقل (توفي ٦٤١ م) تعتبر مرحلة تكوينية راحت بيزنطة خلالها تبتعد تدريجياً عن روابطها بالغرب حتّى اتخذت ، بعد القرن الميلادي السابع في الشرق الأدنى وبعد التفاعلات الداخلية في بيزنطة نفسها ، الطابع التاريخي الذي تميزت به .

ويعتبر حكم ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥ م) نقطة تحول في هذه الفترة : فهو آخر حاكم مفرد امتد سلطانه على سائر الإمبراطورية الرومانية بحدودها الأصلية ، وبعد وفاته بجيل كانت القبائل المتبربرة قد استولت على بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وإفريقية . وفي عهد ابنيه أركاديوس وهنوريوس انفصل نصفا الإمبراطورية الشرقي والغربي عن بعضهما انفصالاً فعلياً لم يتّحدا بعده حقيقة وإن اتحدا اسمياً . وكان عهد قسطنطين واضح الأثر في تقرير نوع ومدى علاقة الكنيسة بالدولة فقد أصدر هو وشريكه الإمبراطور ليسينيوس بياناً هامّاً سنة ٣١٣ م . يدعو إلى التسامح تجاه العقيدة المسيحية وأصدر مجمع نيقية تحت تأثيره بياناً سنة ٣٢٥ م . ندّد فيه بآريوس ، أسقف الاسكندرية الذي كان ينادي

بوحدانية طبيعة المسيح . وكان ابنا قسطنطين قد ربيا تربية مسيحية ولذلك فإن قسطنطيوس الثاني (٣٣٧ – ٣٦١ م) تبنّى تفسيره الخاص للعقيدة المسيحية وإن كانت قوّة المعارضة قد ظهرت جلية في عهد يوليان المرتد (٣٦١ – ٣٦٣ م) . أظهر خلفاء يوليان المرتد حذراً وحكمة فيما يتعلّق بالمسائل الدينية . ولم تصبح الإمبراطورية الرومانية دولة مسيحية أرثوذكسية رسمياً إلا في عهد ثيودوسيوس الأول الكبير . ومنذ ذلك الحين انتهى عهد التسامح المشروع تجاه الوثنية والوثنيين ، وفي الوقت ذاته لم يسمح لأتباع آريوس[1] بنشر مذهبهم

١ الآريوسية نحلة جديدة ظهرت في الاسكندرية وكانت مرتبطة بطبيعة المسيح . فالمعروف أن الكنيسة المسيحية منذ نشأتها تعتقد بوجود ثلاثة أقانيم : الأب والابن والروح القدس ، وأن هؤلاء الثلاثة ليسوا إلا واحداً في الجوهر . غير أنه ظهر في الكنيسة من حين لآخر أناس يخالفون هذه العقيدة ، فكانت الكنيسة الكاثوليكية ، وهي كنيسة الدولة ، تحكم عليهم بالهرطقة . وكان من جملة هؤلاء سابيليوس (القرن الميلادي الثالث) أسقف ليبيا الذي قال إن اللوجوس (الكلمة) هو المسيح وأنه مظهر من مظاهر اللاهوت شأنه في ذلك شأن الأب والروح القدس ، منكراً بقوله ذاك التمييز بين الأب والابن والروح القدس . وكان منهم أيضاً آريوس الذي كان على رأس كنيسة صغيرة في الاسكندرية سنة ٣١٨ م . وكان آنذاك شيخاً معروفاً بالتصوف متمتعاً باحترام عدد كبير من الأتقياء والصالحين . كان آريوس قد تعلم في حداثة سنه في أنطاكية بسوريا المذهب العقلي الذي يقول إن « الكلمة التي اتحدت بالمسيح ليست من نفس جوهر الرب وإن المسيح ليس إلا مخلوقاً ، جاء من العدم ، لا من نفس المادة الإلهية ، وأنه مر عليه وقت لم يكن موجوداً ، وأنه تبعاً لذلك وبوصفه ابن الله لا يشارك الرب في شيء ولا يشبهه في شيء لأن الله ليس له شبيه » . كان آريوس بذلك يرمي إلى تأكيد وحدانية الله وقد فاته أنه إنما وضع المسيح في مرتبة ثانوية وجرده مما اتصف به من أنه منقذ للعالم فمحا فكرة المسيحية الأساسية وهي فكرة الخلاص .

واختلف آريوس عن سابيليوس في أن الأخير كان يعتقد بألوهية المسيح بينما كان آريوس يرى غير ذلك . وأدت دعوة آريوس هذه إلى انقسام كنيسة الاسكندرية بين مؤيد ومناهض ، فانعقد بها سنة ٣٢٠ م مجمع شهده نحو مائة قسيس وأسفر عن اتخاذ قرار بحرمان آريوس وعزله كما أمر بعزل جماعة من القسس والشمامسة الذين تمسكوا بآرائهم الآريوسية . إثر ذلك غادر آريوس مصر إلى فلسطين حيث راح يدعو لمبدئه مما أدى إلى اتساع الخلاف حتى شمل جميع الكنائس المسيحية . وعند هذا الحد تدخل الإمبراطور قسطنطين لتسوية النزاع فعقد مجمعاً مسكونياً في نيقية سنة ٣٢٥ م انتهى بإدانة آريوس وسجنه وبتحديد العقيدة الأرثوذكسية باعتبار المسيح الابن من نفس مادة الأب أي إنه يستمد صفة الألوهية من الرب . —

داخل الإمبراطورية ممّا جعلهم يتجهون بدعوتهم إلى القبائل المتبربرة الغازية . وفي عهد ثيودوسيوس الثاني أنزل هذا الإمبراطور بالوثنيين سنة ٤٣١ م . ضروباً شتّى من التعجيز السياسي والحرمان من الحقوق حتّى إذا وافت سنة ٤٣٨ وجدناه يدعي أنّه لم يبق منهم أحد في الإمبراطورية .

وتعددت البدع والدعوات خلال القرن الميلادي الخامس وتبلور الخصام الديني على شكل نزاع مثلث بين القسطنطينية وروما والإسكندرية ، وتمكنت روما والقسطنطينية في مجلس خلكيدون سنة ٤٥١ م . من هزيمة الاسكندرية والقضاء على خطر زعامتها الدينية ولكن مصر وسوريا ظلتا تؤيدان مذهب الاسكندرية في القول بوحدة طبيعة المسيح متخذتين الخلاف الديني ستاراً لمقاومة الحكومة المركزية . وظل الأباطرة البيزنطيون يحاولون عبثاً التوفيق بين رؤوس هذا الثالوث إلى أن قدم الفاتحون العرب فانتزعوا مصر وسوريا من البيزنطيين وأزالوا بذلك سبباً من أسباب النزاع بين القسطنطينية وروما ، ذلك النزاع الذي كان ناجماً عن محاولة القسطنطينية التوفيق بين الاسكندرية وروما . وهكذا نشأت في القسطنطينية وحدة وثيقة بين الكنيسة والدولة بينما راحت البابوية تقيم أساساً لاستقلالها عن السلطة الزمنية في روما . ومن هنا افترقت حظوظ الإمبراطوريتين فتعرضت الغربية منهما لغارات القبائل المتبربرة التي لم تلبث أن قضت عليها مع أواخر القرن الميلادي السادس بينما استمرت الشرقية قائمة حتّى سقطت على أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، وكان استمرارها ذلك يرجع إلى وحدة الكنيسة والدولة فيها وإلى مواردها الاقتصادية الجمة ولبعدها عن السبل التي سلكتها القبائل المتبربرة .

وفي سنة ٥١٨ م. أصبح أحد الفلاحين المقدونيين رئيساً للحرس الإمبراطوري

- ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد فقد اضطر الأمبراطور قسطنطين فيما بعد أن يفرج عن آريوس بل وبدأ يميل إليه فانبعث النزاع الديني من جديد وكان محوره مسألة « كيف تجتمع في شخص المسيح الطبيعتان الإلهية والبشرية » .

فتمكن بذلك من اعتلاء العرش البيزنطي باسم جستين الأول . وخلفه على العرش ابن عمه جستنيان الكبير (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) الذي غلب اسمه على التاريخ البيزنطي خلال القرن الميلادي السادس ؛ فهو آخر إمبراطور بيزنطي كان يتمتع بعقلية رومانية صرفة فقد كانت لغته اللاتينية وكانت أفكاره لاتينية كذلك ، وهو بسبب ذلك كلّه كان أقوى تعبير وأعنف تطبيق لفكرة السيادة الرومانية . وكان ذلك في نظره يعني استرداد مناطق الإمبراطورية من أيدي القبائل الجرمانية التي كانت قد استولت عليها ، ويعني كذلك تعميم المذهب الأرثوذكسي وانتصاره وتأكيد الإشراف المطلق للإمبراطور على الكنيسة . وتحقيقاً لهذه الأهداف فقد استرجع إفريقية من الوندال سنة ٥٣٤ م. وإيطاليا من القوط سنة ٥٣٧ م . واسترجع جنوب إسبانيا فأصبح البحر الأبيض المتوسط جميعه مفتوحاً أمام الملاحة البيزنطية . وأقام جستنيان نظام دفاع واسع على حدود إمبراطوريته وأعاد تنظيم قوات الحراسة على الحدود وشدد الأنظمة الإدارية في الولايات كما أقام الكثير من الأشغال والمباني العامة التي لا تزال آثارها ماثلة في القارات الثلاث : إفريقيا وآسيا وأوروبا . ولقد كانت أفكار جستنيان ذاتها الدافع الذي حفزه على القيام بعمليه العظيمين الآخرين : جمع وتبويب القوانين الرومانية ، وبناء كنيسة القديسة صوفيا .

ولكن حروب جستنيان وخلفائه من بعده في المناطق الغربية من الإمبراطورية أدت إلى إفلاس خزينة الدولة وزيادة الضرائب . ومما زاد الطين بلة أن القوات البيزنطية المحاربة ساءها أن تبقى في الشتاء على نهر الدانوب فأعلنت التمرد سنة ٦٠٢ م. ونصبت قائدها فوكاس إمبراطوراً ، فقام من فوره بإعدام سلفه موريس وأسرته ونشر الرعب في أنحاء الإمبراطورية في وقت كانت فيه الفوضى المستشرية في الداخل ، والخزينة الخاوية ، والغارات الفارسية تتهدد الكيان البيزنطي بالزوال .

وجاءت حركة الإنقاذ من ولاية إفريقية التي كانت أكثر ولايات الإمبراطورية

رومنة في هذه المرحلة ؛ ففي سنة ٦١٠ م. أبحر هرقل ابن حاكم قرطاجة إلى القسطنطينية ونجح في خلع فوكاس وارتقاء عرش الإمبراطورية . وبعد ذلك أعاد تنظيم الجيش وأعاد النظام للعاصمة وأصلح أمور الخزينة ثم تفرغ لمقاتلة الفرس الذين كانوا قد استولوا على أنطاكية سنة ٦١١ م . وعلى دمشق سنة ٦١٣ م . وعلى القدس سنة ٦١٤ م . وعلى الاسكندرية سنة ٦١٩ م . وتحرك هرقل فتوغل في الحدود الفارسية ابتداء من سنة ٦٢٦ م . وهزم الفرس في معركة قرب الموصل سنة ٦٢٧ م . ولم تلبث أن حدثت في فارس ثورة أودت بحياة ملك الفرس ممّا حمل خلفه على عقد صلح مع هرقل الذي دخل القسطنطينية محتفلاً سنة ٦٢٩ م . ولكن فرحة هرقل لم تدم طويلاً إذ لم تلبث الجيوش الإسلامية أن اجتاحت بلاد الشام (٦٣٥ — ٦٣٦ م) ومصر وليبيا (٦٤١ — ٦٤٣ م) .

الإدارة البيزنطية :

مع تطور النظام الإمبراطوري إلى النظام الإمبراطوري الأوتوقراطي البيزنطي جرى تعديل النظام الإداري للإمبراطورية من أجل إيجاد وسائل الدفاع عنها وإدارة شؤونها الداخلية ودمج عناصرها المختلفة في وحدة متماسكة . ومن أجل هذه الغايات هدف التعديل إلى إقامة بيروقراطية دقيقة منبعها إرادة الإمبراطور وغايتها التعبير عن تلك الإرادة بصورة فعالة . ولقد سبق أن أشرنا إلى أنّ أسس هذا النظام البيروقراطي كانت قد وضعت أيام ديوقلنيان وقسطنطين الكبير ، وقد ظلت قائمة بعد ذلك مع إدخال تعديلات وتفصيلات ضرورية اقتضتها ظروف الإمبراطورية وما تعرضت له من ضغوط خارجية . ولقد تسببت النفقات الكثيرة الناجمة عن الصرف على هذا الجهاز الإداري البيروقراطي ونفقات الدفاع عن الإمبراطورية والإنفاق على بلاط الإمبراطور الفخم في إلقاء عبء كبير على موازنة الدولة ومواردها ممّا استدعى إقامة سياسة مالية لا ترحم . ومن أجل حماية الإمبراطور من ظهور أي منافس له جرى فصل السلطة العسكرية عن

المدنية وجرى كذلك تقسيم الإيالات الكبرى إلى دوقيات تتألف الواحدة منها من أبرشية أو أكثر وفقاً لمساحتها . وكان أعلى موظف مدني على رأس الإيالة هو الحاكم البرايتوري (Prætorian Prefect) وكانت له السلطة العليا في الإيالة وعلى الشرطة وعلى ضرائب الأرض المعروفة باسم أنّونا (Annona) التي كان يدفع من ريعها رواتب الموظفين والجند ويغذي الجيش . وكان هذا الحاكم البرايتوري يتولى تقسيم إيالته إلى دوقيات (Dioceses) ويعين دوقاً على رأس كل واحدة منها ، وكانت الدوقية ذاتها تقسم إلى أبرشية أو أكثر يترأس كلاً منها حاكم غلبت عليه الصفة المدنية . ومع أن رئيس الأبرشية كان مسؤولاً مباشرة أمام الدوق فقد كان له الحق أيضاً أن يكتب للإمبراطور مباشرة كما كان يحق للأهالي أن يستأنفوا ضد أحكامه للبلاط الإمبراطوري . وكان للإمبراطور حق الاتصال المباشر مع الدوقات ورؤساء الأبرشيات كما إنّه كان يرسل نواباً عنه إن دعت الضرورة ليتفقدوا سير الإدارة . وهكذا فإن هذا التنظيم كان يتيح قيام إشراف متبادل بين الحكومة الإمبراطورية المركزية وحكومات الولايات وقد ظل هذا النظام قائماً حتى غُيّر في القرن الميلادي السابع في أيام هرقل الذي ربما كان قد اقتبس عن أعدائه الفرس نظام الأقضية العسكرية ممّا أدى إلى إعادة جمع السلطتين المدنية والعسكرية في يد الحاكم العسكري (Strategos) للقضاء أو الإقليم (Theames) .

الجيش :

نظم قسطنطين الكبير القوات المسلحة فأقرّ بقاء قوات حراسة الحدود (Limitanei) الذين كانوا عبارة عن ميليشيا من العسكريين الفلاحين الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية مقابل ما يقطعهم إياه الإمبراطور من أرض ، وأنشأ قوّة متحركة تحت قيادته الشخصية . وكان لهذه القوة عملياً رئيسا أركان (Magistri Militum) يترأس أحدهما الفرسان ويترأس الآخر المشاة . وكان

مركز الأول أعلى من مركز الثاني نظراً لتفوق قوّة الفرسان على قوّة المشاة ، وكانا يأتيان في المرتبة الثانية بعد الحاكم البرايتوري وإن كانا يساويانه في لقب الرتبة . وكان كل من هذين الرئيسين الفعليين للأركان هو المفتش العام لقوته . ولمّا كان الإمبراطور هو القائد الأعلى للقوات المسلحة فإن كلاً من هذين الرئيسين كان يترأس قوته تحت إمرة الإمبراطور في حالة تولي الأخير قيادة الجيش وقت الحرب . أمّا في حالة تكليف أي منهما بمأمورية خاصة فإنّه كان يحق له قيادة قوات مختلفة من الفرسان والمشاة . ومنذ أيام ثيودوسيوس الأول الكبير صار في النصف الشرقي من الإمبراطورية خمسة رؤساء أركان يتمتع كل منهم بالسلطة على المناطق التي عينها له الإمبراطور ، وكان كل منهم مستقلاً عن الآخرين وتابعاً مباشرة للإمبراطور . وكان اثنان منهم يقيمان في البلاط في القسطنطينية بينما كان الثلاثة الآخرون موزعين كما يلي : واحد لقيادة جيش إيالة الشرق ، والآخر لقيادة جيش ثراسيا والثالث لقيادة جيش إلّيريا . وقد أضاف جستنيان في أيامه رئيساً جديداً لقيادة جيش أرمينيا .

وكان التجنيد يتم من بين أبناء الجنود وأبناء المزارعين عن طريق الخدمة الإجبارية بينما كان الملاكون يستطيعون أن يدفعوا مبلغاً من المال بدلاً من المجندين الذين كان عليهم أن يرسلوهم للخدمة من بين المزارعين العاملين في أملاكهم . وهكذا فإن كثيراً من الجنود كانوا يتقدمون للخدمة طواعية مقابل المعاش ممّا أدى إلى كثرة وجود الجنود المرتزقة من البرابرة (= الأجانب) وخاصة الجرمان في صفوف الجيش البيزنطي . وفي القرن الميلادي السابع سمح الإمبراطور هرقل لجنوده بالاستقرار في المناطق التي كانت مهددة بالغزو الفارسي أكثر من غيرها . ويذكر بهذا الصدد أن عدد القوات البيزنطية بلغ في عهد جستنيان مائة وخمسين ألف جندي بينما انخفض هذا العدد إلى مائة وعشرين ألف جندي في القرن الميلادي التاسع .

المالية البيزنطية :

إن مؤرخ الدولة البيزنطية لا يشعر بضيق الحدود التي يحبسه فيها صمت مراجعه بقدر ما يشعر به عندما يحاول أن يبحث المسائل المالية ؛ فليست لدينا معلومات مفصلة أكيدة عمّا كان الثراء العريض في بيزنطة يتكون منه وإن كنا نعلم أن وظيفة القنصل ، عندما ألغاها جستنيان في القرن الميلادي السادس ، كانت تكلف شاغلها حوالي تسعين ألف جنيه في السنة ، وهذا مبلغ لا نظن فرداً عادياً كان يستطيع أن يتحمل أعباءه . وعلى الجملة كانت نفقات الدولة تصرف على أشياء أساسية ثلاثة :

١ – البلاط الإمبراطوري في القسطنطينية ،

٢ – القوات المسلحة ووسائل الدفاع ؛

٣ – الجهاز الإداري البيروقراطي والمباني العامة .

وليست هنالك وثائق قاطعة بتقديرات الموازنة السنوية وإن كان بعض المؤرخين قد ذكروا أنها بلغت ٦٤٠ مليون فرنك ذهبي بينما ذكر البعض الآخر أنها بلغت بين مائة ومائة وخمسة عشر مليون فرنك ذهبي فقط .

أما العائدات فكانت ترد الخزينة من الموارد التالية[١] :

أ – عائدات أملاك الدولة من صناعية وزراعية ومدنية (كرسوم الجمارك بنسبة ١٠٪ ، وضرائب السلع الاستهلاكية وبازارات الدولة والمناجم والملاّحات).

ب – الضرائب غير المباشرة : وكانت هذه تثير كثيراً من الاحتجاج الشديد . الذي يستدعي إجراء تعديلات مالية ، وبالتالي فإن السجلات البيزنطية الرسمية نادراً ما كانت تشير إلى هذا النوع من الضرائب .

---

١ *Byzantium, an Introduction to East Roman Civilization*, edited by Norman H. Baynes & H. St. L.B. Moss. Oxford University Press, Paperback, 1969.

جـ ـ الضرائب المباشرة : وكانت أوضح ما تكون في المناطق الريفية ، وهي أنواع منها :

١ ـ ضريبة الأراضي : وكان من ضمنها ضريبة تفرض على الأرض ذاتها وتقدر على أساس مساحة الأرض وقيمتها وطبيعة استغلالها الزراعي طبقاً لتقويمات المقدرين التي كانت تجري مرة كل خمس عشرة سنة . ثم ضريبة المحاصيل وهي ترجع في أصولها إلى الضريبة الرومانية التي كانت تعرف باسم أنّونا (Annona) ويختلف مقدارها تبعاً لاختلاف عدد الحيوانات المستخدمة في حراثة أرض محصول معين . وكانت القرية تعتبر وحدة ضرائبية متكاملة ؛ فإذا اختفى أحد الملاكين فرض على أقرب جار له في الأرض أن يدفع الضريبة المقررة على المالك الغائب .

٢ ـ ضريبة المراعي : وكانت تفرض على المراعي وعلى الحيوانات ما عدا المستخدم منها في الحراثة .

٣ ـ الضريبة الشخصية ؛ وكانت تجبى على كل أسرة من أسر أرقاء الأرض بينما كانت ضريبة مشابهة تحصل في حالات الحروب من الأسر الحرة وضريبة ثالثة مشابهة تجبى من غير المسيحيين خاصة اليهود .

وكانت الضرائب الآنفة الذكر تجبى من الأرياف فقط . أما المدن فكانت تجبى منها الضرائب التالية :

١ ـ ضريبة الأرباح التجارية ، وقد ألغيت في مطلع القرن الميلادي الخامس واستعيض عنها بعد ذلك بضريبة الرخص .

٢ ـ ضريبة عرفت باسم إيريكون (Aerikon) وهي ذات طبيعة غامضة بالرغم من كثرة ما كتب عنها . وقد قيل إنها وضعت في عهد جستنيان وكانت تدل على أنواع مختلفة من الضرائب .

٣ ـ ضريبة الإرث : ويصدق عليها ما قيل عن سابقتها .

والحق أن النظام المالي البيزنطي وخاصة نظام الضرائب كان نظاماً صارماً شديداً . فنحن وإن لاحظنا حدوث انتعاش في الرخاء التجاري خلال العقود الأولى من القرن الميلادي السادس وفي عهد جستنيان نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلها هذا الإمبراطور لتنمية التجارة والنهوض بها ، فإنا لا نستطيع أن نقول إلا أن ذلك الجهد قد قضي عليه وهو بعد في أكمامه إذ إن فوائده لم يسمح لها قط أن تؤتي أكلها أو تثمر ثمارها لأن جباة الضرائب هبطوا على الناس سراعاً ، مما جعل سكان الإمبراطورية يزدادون على الأيام إرهاقاً وامتعاضاً وقد زادهم مصيبة على مصائبهم انتشار الطاعون الكبير سنة ٥٤٤ م . وقد انعكست هذه الحقيقة في تصرف الشعوب في ليبيا ومصر وبلاد الشام وقت قدوم الفاتحين العرب فلم يحاول أهل هذه الأقاليم الذين كانت بيزنطة تتهمهم بالزندقة وتضطهدهم وترهقهم بالضرائب أن يحافظوا على سيادة الإمبراطور بل رحبوا بتغيير السيد[1] .

وفي أثناء القرن الخامس استخدمت في الولايات طريقة شراء الوظائف وهي الطريقة التي اشتهرت باسم سفراجيا (Suffragia) حيث كان حاكم المقاطعة يشتري منصبه بمال كان بعضه يذهب للإمبراطور والبعض الآخر يذهب للحاكم البرايتوري العام . وعندئذ كان حاكم المقاطعة يعود فيعوض نفسه بما هو فوق الكفاية من الضرائب المحلية . وقد حمل هذا الوضع الإمبراطور جستنيان على إلغاء بيع بعض الوظائف ومنح كل حاكم مرتباً كان يتحتم عليه أن يعيش عليه وأعيد تنفيذ القانون الذي كان يقضي على الحاكم بالبقاء بمقاطعته مدة خمسين يوماً بعد التخلي عن منصبه للإجابة على ما قد يوجه إليه من تهم . وصار يعين لكل مدينة موظف باسم حامي المدينة (Defensor Civitatis) ينتخب محلياً ليكون شبه كابح لغلواء حاكم المقاطعة وليقوم بالنظر في القضايا الصغيرة . وفي الفترة ما بين سنة ٥٣٦ م. و ٥٣٧ م. أعيد توزيع الولايات من جديد بحيث ربطت المقاطعات الغنية

١ رنسيمان ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٥ .

بالفقيرة حتى تقوم الأولى بتسديد بعض ما على الثانية. ومن ناحية أخرى اتبع جستنيان مبدأ دبوقليتيان في ربط الناس بمهن آبائهم حتى يضمن استقراراً للشعب من ناحية واستقراراً للضرائب التي تجبى منه من الناحية الأخرى .

وبالنسبة للتركيب الاجتماعي لسكان الريف في هذا العصر فإن بوسعنا القول ان المجتمع الريفي كان يتكون من فئتين هما : المزارعون الأحرار والمزارعون الأرقاء من أقنان الأرض . وكان مولى الأرض مرتبطاً بها كما ان أبناءه كانوا يرثون مهنته فيصبحون موالي أرض مثله . وكان السيد ، مالك الأرض ، يدفع عن مواليه الضرائب ويستولي على ثمار الأرض . وكان هنالك أيضاً مزارعون مستأجرون في كثير من مزارع الأغنياء يدفعون الأجرة نقداً أو عيناً ويعتبرون أحراراً . والواقع أنهم كانوا يجدون من المحال عليهم أن يغيروا أحوالهم إلى أفضل منها فهم ثابتون حيث هم . أما القروي الحر فلم يكن أقل ارتباطاً بالأرض من رفاقه سالفي الذكر وكان يكلف هو وورثته بأنواع من ضرائب الأملاك سبقت الإشارة إليها . ولقد كانت قرى أرقاء الأرض أكثر شيوعاً في أيام كبار الملاك في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، على أن هذا المجتمع الريفي أعيد تنظيمه إبان الفوضى التي سادت أواخر القرن الميلادي السادس وخلال القرن الميلادي السابع ، وبذلك التنظيم صارت المجتمعات الحرة هي الأصل والقاعدة المرعية . وقد تعودت الدولة أن تدفع أعطيات الجند بوجه خاص على شكل منح من الأرض فخلقت بذلك طبقة من صغار الملاك الوراثيين من العسكريين. ولكن المالك الكبير لم يلبث أن ظهر تدريجياً مع استتباب الأمن والنظام من جديد . وعندئذ صار الغني يتحمل على كاهله التزامات الفقير ، فيدفع عنه الضرائب مقابل الاستيلاء على محصولاته ، فيحيله بذلك إلى مستأجر أو إلى مولى أرض . وقد يخفق المحصول أحياناً ، وعندئذ لم يكن مالك الأرض الصغير ليستطيع أن يعيش كرجل حر[1] .

١ المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

طرابلس في العهد البيزنطي

تولى الإمبراطور جستنيان عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية سنة ٥٢٧ م . وفي هذا الوقت ذاته كان قد مضى على النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية نصف قرن وهو يرزح تحت نير القبائل المتبربرة . وكان جستنيان منذ البداية يحلم باستعادة ذلك النصف المفقود ليضمه إلى إمبراطوريته ؛ وله في ذلك غايات ثلاث :

١ – إعادة رومانطيقية لإحياء ماضي الامبراطورية وتراثها العظيم ،

٢ – إنقاذ النصارى الكاثوليك من ربقة الطغيان والظلم الذي فرضه عليهم الهراطقة ،

٣ – ملء خزينته الخاوية بما يمكن أن يحصل عليه من دخل وجباية من البلدان التي يستردها .

وكانت أولى الولايات المفقودة التي يمكن أن تتيح لجستنيان الفرصة لتحقيق أحلامه ومطامعه هي ولاية إفريقية حيث توفي الملك الوندالي ترانساموند وتلاه في الحكم هلدريك (Hilderic) سنة ٥٢٢ م . وكان هلدريك هذا حاكماً رحيماً متسامحاً فنشأت بينه وبين جستنيان صداقة شخصية . ولكن هلدريك فشل في كبح زمام القبائل الثائرة مما شجع جليمر (Gelimer) ابن أخيه ، على خلعه من الحكم بعد فترة قصيرة . وكانت حركة جليمر فرصة ذهبية بالنسبة لجستنيان فحشد أسطولاً ضخماً في القسطنطينية تحت إمرة بليزاريوس (Belizarius) استعداداً للإبحار إلى إفريقية بحجة مساندة صديقه المخلوع . وعشية إبحار هذا الأسطول وصلت القسطنطينية أنباء من منطقة المدن الثلاث تفيد أن پدنتيوس (Pudentius) ،

أحد القادة الوطنيين من أبناء تلك المنطقة ، قد أعلن الثورة على الوندال باسم الإمبراطور جستنيان ودعا الإمبراطور لمساندة الثورة فوراً . وبناء على ذلك سارع الإمبراطور بإرسال قوة صغيرة تحت إمرة رجل اسمه تتّيموث (Tattimuth) ساندت پدنتيوس في الاستيلاء على منطقة المدن الثلاث التي كانت خالية من الوندال آنذاك لأن جليمر لم يشأ أن يرسل لها أية قوة وندالية . وفي هذه الأثناء كانت حملة جستنيان الرئيسية قد نزلت بسلام على الساحل التونسي وزحفت باتجاه قرطاجة التي سقطت في يد بليزاريوس في سبتمبر – أيلول سنة ٥٣٣ م . ولكن جليمر أعاد تنظيم قواته واستأنف القتال إلا أنه هزم هزيمة ساحقة في شهر ديسمبر – كانون أول من السنة ذاتها . ولما فشلت محاولاته النهائية للصمود في جبل پاپوا (Papua) سلم نفسه لقوات بليزاريوس ، وبتسليمه انتهت مملكة الوندال في الشمال الإفريقي سنة ٥٣٤ م .

ولكن الوندال لم يكونوا الخصم الوحيد الذي كان على البيزنطيين أن يحسبوا حسابه في الشمال الإفريقي فالقبائل الوطنية لم تتدخل مباشرة في الحرب التي قام بها بليزاريوس ، بل نحن نسمع عن استئناف قبيلة لواتة لضغطها على منطقة المدن الثلاث حتى قبل انتهاء حملة بليزاريوس إلى ما انتهت إليه من نجاح مما حمل بليزاريوس على إرسال التعزيزات العسكرية لمساندة تتّيموث وپدنتيوس . وبعد تسليم جليمر بوقت قصير ، وعندما كان بليزاريوس يستعد للإبحار إلى القسطنطينية نشبت ثورتان عنيفتان واحدة في جنوب تونس والثانية في منطقة جبال الأوراس ، وازدادت الحالة سوءاً عندما تمرّد قسم كبير من الجيش البيزنطي . ولكن الحظ أسعف جستنيان في هذا الظرف الطارىء الحرج بضابطين من ألمع الضباط أنقذا الموقف وهما سليمان الدارامي (Solomon of Daras) خليفة بليزاريوس في رئاسة أركان الجيش البيزنطي (Magister Militum) وجرمانوس (Germanus) الذي حل محل سليمان في هذه الفترة العصيبة . وقد استطاع هذان الضابطان سنة ٥٣٩ م . بفضل ما بذلاه من

جهود مخلصة مضنية أن يجنبا الإمبراطورية البيزنطية ما كان يتهددها من أخطار وتدعمت بذلك سلطة جستنيان على الجيش البيزنطي نفسه وعلى قبائل الشمال الإفريقي .

ولكن هذا السلم الذي أمكنت المحافظة عليه بصعوبة لم يلبث أن خرق بعد هذا بخمس سنوات أي سنة ٥٤٤ م . بسبب حادث وقع في لبدة ؛ ذلك أن سيرجيوس (Sergius) ابن أخي سليمان ، كان قد عين مؤخراً حاكماً عسكرياً (Dux) لمنطقة المدن الثلاث ولكنه لم يكن كفؤاً لذلك المنصب فقد قدمت إلى لبدة ، بعد حلوله فيها بقليل ، قوّة كبيرة من قبيلة لواتة وعرضت أن تعلن صداقتها للحاكم الجديد مقابل أن يقدم لها الهدايا المعهودة في مثل هذه المناسبة والتي كان يقدمها كل حاكم جديد رمزاً لاحترامه وتقديره لسلطة القبيلة[١] . وبناء على نصيحة پدنتيوس تعهد سيرجيوس بتلبية طلب رجال القبيلة ودعا من أجل هذه الغاية ثمانين من وجهائهم ورؤسائهم إلى مأدبة داخل لبدة . وتلا تلك المأدبة مؤتمر اتهم الليبيون أثناءه البيزنطيين بنهب محصولاتهم وسرقتها . وعندما تحول سيرجيوس لينصرف دون أن يرد على تهمتهم أمسك به أحد رؤسائهم من كتفه فانقض أحد أفراد الحرس البيزنطي على ذلك الرئيس وضرب عنقه بسيفه . وتلت هذا الحادث مذبحة قتل فيها كل الوجهاء الليبيين إلا واحداً أفلت من الحرس ونقل النبأ لأبناء القبيلة الذين كانوا ينتظرون خارج لبدة فانقض هؤلاء على المدينة ولكنهم فوجئوا بالحرس البيزنطي يهاجم معسكرهم ويستولي عليه بعد معركة دارت وجهاً لوجه بين الفريقين . وفي آخر ذلك النهار أعاد الليبيون الكرة وشددوا النكير على البيزنطيين في هجوم قتل فيه پدنتيوس وأرغم سيرجيوس على الانسحاب إلى داخل المدينة للاحتماء بأسوارها .

ونحن لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانت هذه المذبحة قد وقعت صدفة أو نتيجة

١ كانت تلك الهدايا عبارة عن صولجان مطعّم بالفضة وقبعة مفضضة وعباءة بيضاء وحذاء مذهب .

للغدر والخيانة المدبرة من قبل البيزنطيين . ولكن تأثيرها على أي حال كان الشرارة التي أشعلت برميل البارود في الشمال الإفريقي من منطقة المدن الثلاث حتى جبال الأوراس ؛ ففي وقت لاحق من السنة ذاتها (٥٤٤ م) سقط سليمان صريعاً في إحدى المعارك في ولاية إفريقية وحل سيرجيوس محله في رئاسة الأركان ولكنه فشل في إخماد الثوار مما أدى إلى استبداله . ولكن خليفته وقع ضحية مؤامرة محلية قام بها جنثارس (Guntharis) ، حاكم نوميديا العسكري واستولى على قرطاجة . وأسعف الحظ جستنيان من جديد فلم يلبث مغتصب قرطاجة أن قتل على يد أحد الضباط الأرمنيين المخلصين للإمبراطور . وبالإضافة لذلك فقد وفق جستنيان في اختيار رئيس جديد لأركان القوات الإمبراطورية المسلحة في شمال إفريقيا هو جون تروجليتا (John Troglita) ، الحاكم العسكري لمنطقة المدن الثلاث . وكان جون رجلاً قديراً يتمتع بخبرة من الطراز الأول في شؤون حرب الصحراء .

توجه جون إلى قرطاجة فوصلها في نهاية سنة ٥٤٦ ليجد القبائل الثائرة قد استحكمت في روابي تونس الوسطى بحشود كبيرة من النوميديين والأفارقة تعززها حشود لواتية وأستورية قدمت من منطقة المدن الثلاث . ومكث جون في قرطاجة المدة التي كانت ضرورية لحشد قواته ثم تحرك نحو القبائل الثائرة وحاول أن يصانعها في البداية فلما فشلت جميع محاولاته الدبلوماسية اشتبك مع قوات القبائل واستطاع أن يحرز عليها نصراً ساحقاً بالقرب من سبيطلة في مطلع السنة الجديدة (٥٤٧ م) فمزقها كل ممزق وشتت من ظلوا أحياء من مقاتليها . وكان بين القتلى على أرض المعركة رئيس لواتة وكاهنها جرنا (Jerna) الذي قتل وهو يحاول إنقاذ صورة الثور غرزل (Gurzil) ، إله لواتة . وبعد هذه الواقعة رجع جون إلى قرطاجة حيث استقبل استقبال الفاتحين .

ولكن انتصاره هذا جاء سابقاً لأوانه فقد نشبت بعده بأشهر قليلة ، أي في منتصف صيف سنة ٥٤٧م. ثورة جديدة في منطقة المدن الثلاث حيث نجح كركاسان

(Carcasan) ، ملك الأفارقة ، في إعادة لمّ شتات أتباع جرنا وفي كسب تأييد الناسامونيين والجرامنتيين وقام بهجوم خاطف على ساحل المنطقة ثم واصل حملته باتجاه الشمال الغربي نحو تونس إلا أنه وجد جون يقف في وجهه كالسد عند الحدود فاتجه هذا الثائر إلى الدواخل المقفرة في جهات شط الجريد . واقتفى جون أثره بقواته ولكنها لم تلبث أن رفضت التقدم عندما اشتدت عليها حرارة النهار فاضطر جون إلى العودة . وهنا اغتنم رجال القبائل الثائرة تلك الفرصة فراحوا يتعقبون جيش جون خفية ثم فاجأوه بهجوم مركز في مكان يبعد أربعين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من قابس وأنزلوا به هزيمة منكرة . ولكن جون التجأ إلى مكان اسمه لاريبوس (Laribus) قضى فيه الشتاء منهمكاً في إعادة تنظيم قواته . وفي الربيع التالي اشتبك مع الثوار في معركة في مكان اسمه معسكرات كاتو (Campi Catonis) وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً قتل نتيجة له ملكهم كركاسان وهزموا هزيمة حاسمة . ومنذ هذا التاريخ حتى الفتح العربي لليبيا سنة ٦٤٣م . لم تسجل أية معارك أو اشتباكات في منطقة المدن الثلاث واستتب الأمر في شمال إفريقيا للبيزنطيين .

وأحس البيزنطيون الآن أن عليهم أن يعيدوا تنظيم الإدارة في شمال إفريقيا فأقاموا فيه أجهزة إدارية على غرار نظام ديوقلتيان وذلك بأن قسموا الشمال الإفريقي إلى سبع دوقيات كانت منطقة المدن الثلاث واحدة منها وكانت عاصمتها لبدة . وكانت الدوقيات السبع تخضع لحاكم بروقنصلي عام مسؤول تجاه الإمبراطور مباشرة ومركزه في قرطاجة . وكان هذا البروقنصل يعين دوقاً على رأس كل دوقية يكون مسؤولاً أمامه عن دوقيته كما كان للدوق الحق في الاتصال بالإمبراطور مباشرة . وكانت هذه الدوقيات تقسم إلى أبرشيات على رأس كل منها رئيس أبرشية . والمرجح أن منطقة المدن الثلاث كانت مكونة من أبرشية واحدة يعتبر رئيسها موظفاً من موظفي الدوق . وكان رئيس الأبرشية ومجلسها الاستشاري المكون من خمسين عضواً يساعدون الدوق في القيام بشؤون الدوقية

التي كانت تقسم إلى وحدات إدارية صغيرة بحيث تكون كل مدينة والأرض التابعة لها وكل قرية والأراضي التابعة لها وحدة إدارية واحدة . وأول عمل قام به الإمبراطور جستنيان بعد استعادة شمال إفريقيا وضمه من جديد للتاج الإمبراطوري هو إرسال اثنين من الموظفين من القسطنطينية إلى الشمال الإفريقي لتقدير الضرائب التي تتوجب جبايتها . وقد وصف سكان الشمال الإفريقي هذين الموظفين بأنهما كانا « غير معتدلين وغير محمولين » .

وتبدي مدن منطقة طرابلس في هذا العهد آخر خفقة حياة كالخفقة الأخيرة التي تصدر عن السراج قبل أن ينطفىء ؛ فقد أعيد تحصين لبدة وإن كان سورها البيزنطي لم يضم إلا جزءاً بسيطاً من لبدة الرومانية التي أصبح معظمها الآن مدفوناً تحت الرمال الزاحفة . وبالإضافة للسور كرس جستنيان هيكلاً مقدساً في لبدة لأم الرب « أي لمريم العذراء » وشيد أربع كنائس أخرى كما رمم قصر سويرس . وربما كان الهيكل وقصر سويرس معاً يكونان ما نعرفه بالباسيليكا السويرية التي حولها البيزنطيون إلى كنيسة . وربما كانت أسوار أويا قد جددت كذلك وأقيمت فيها حمامات عامة جديدة وأدخلت على منشآتها المدنية تحسينات أخرى . أما بالنسبة لصبراتة فإن أسوارها جددت كذلك كما أقيمت فيها كنيسة بيزنطية .

أما في دواخل طرابلس فإنه لم يكتشف حتى الآن ما يدل على أن البيزنطيين قد حصنوا حدودها أو رمموها مما يؤيد الاستنتاج أن سلطان البيزنطيين لم يتعد الشريط الساحلي في منطقة المدن الثلاث . ولكن المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس يذكر أن البيزنطيين كانوا نشيطين في مجال نشر الديانة المسيحية بين أبناء القبائل الليبية التي ذكر من ضمنها أهل غدامس والجرامنتيين . وحتى الآن لم يكتشف أي أثر يثبت أن أهل فزان اعتنقوا الديانة المسيحية ولكن قبل إنه وجدت في غدامس بعض الآثار المسيحية . ولعل أهم من ذلك كله أن ثلاثاً من كنائس القرن الميلادي الخامس في داخل منطقة طرابلس (الخضراء، الأصابعة وخفاجي عامر)

زودت في هذا العهد البيزنطي بأجران معمدانية جديدة مصلبة من النوع البيزنطي مما قد يعني تحول أبناء هذه المنطقة عن المذهب الدوناتي إلى المذهب الكاثوليكي .

وبالرغم من إصلاحات البيزنطيين الإدارية وإنعاشهم للكاثوليكية فإن الحضارة البيزنطية لم تضرب جذوراً عميقة في المنطقة ، والواقع أنها لم تكن أكثر من مظهر يخفي وراءه الانحدار السريع الذي كانت البلاد تتردى إليه في تحولها إلى مستوى الرعاة الرحل . وفي هذا العصر تشكلت الجماعات القبلية البربرية في منطقة طرابلس من مثل نفوسة وهوارة الذين أبدوا قدراً من المقاومة في مدافعة العرب الفاتحين عن بلادهم . ولقد انهار المظهر الحضاري البيزنطي بسرعة تحت وطأة جيش عمرو ابن العاص ، فاتح مصر ، عندما غزا برقة وطرابلس (٦٤٢ — ٦٤٣ م.) ولم تبد أية مدينة بيزنطية أدنى مقاومة باستثناء مقاومة ضئيلة أبدتها مدينة طرابلس .

برقة في العهد البيزنطي

التنظيمات الإدارية حتى عهد جستنيان :

انقسمت ليبيا[1] وفقاً لتنظيمات ديوقلتيان (٢٨٥ — ٣٠٥ م.) الإدارية إلى ولاية في منطقة طرابلس وولايتين في منطقة برقة هما ولاية ليبيا العليا التي أصبحت طلميثة عاصمة لها بدلاً من سيرين وولاية ليبيا الدنيا التي كانت تشمل السواحل القاحلة بين درنة والاسكندرية وكانت باريتونيوم (= مرسى مطروح) عاصمة إدارية لها . وظلت هاتان الولايتان كذلك حتى وحدتا في دوقية واحدة في مطلع عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ — ٣٩٥ م.) وكان ذلك سنة ٣٨١ م . وبعد وفاة ثيودوسيوس الكبير انقسمت الإمبراطورية

١ انظر ص ٣٨٢ — ٣٨١ أعلاه .

الرومانية إلى غربية وشرقية أو بيزنطية فانعكست تلك القسمة على ليبيا إذ إن طرابلس استمرت تابعة للإمبراطورية الغربية ثم للوندال حتى استردها منهم جستنيان بينما تبعت دوقية برقة للإمبراطورية البيزنطية . ومن هنا اختلفت حظوظ المنطقتين الليبيتين : فإن طرابلس لم تلبث أن خضعت للوندال طيلة قرن كامل عادت بعده للتاج البيزنطي في انتظار مقدم الفاتحين العرب بينما ظلت برقة تابعة للبيزنطيين طيلة الوقت حتى فتحها العرب سنة ٦٤٢ م .

ورغم قلة المعلومات المتوافرة لدينا عن برقة البيزنطية فإننا نرجح أن المنطقة من خليج سرت الكبير في الغرب حتى الاسكندرية في الشرق صارت منذ سنة ٣٨١ م. تشكل دوقية واحدة مكونة من أبرشيتين واحدة تشمل منطقة البنطابولس وكانت عاصمتها الإدارية طلميثة والأخرى تشمل المنطقة الساحلية بين درنة والاسكندرية وعاصمتها الإدارية باريتونيوم كما أسلفنا[1] . ولعل الأبرشية الأولى حملت أسم البنطابولس بينما حملت الثانية أسم ليبيا . وعلى هذا الأساس فإن برقة كانت دوقية بيزنطية يترأسها دوق واحد ويساعده في حكمها وإدارة شؤونها رئيسا الأبرشيتين ومجلساهما الاستشاريان . ويبدو لنا أن دوق برقة كان مسؤولاً تجاه الدوق الأوجستال (أي نائب الإمبراطور في مصر) بالإضافة إلى مسؤوليته المباشرة تجاه الإمبراطور . وفي زمن الإمبراطور أنسطاسيوس (٤٩١ — ٥١٨ م.) انقسمت برقة إلى دوقتين تتألف كل منهما من أبرشية واحدة وصارت دوقية البنطابولس تابعة لحاكم إيالة الشرق البرايتوري الذي كان نائباً للإمبراطور في حكم الأملاك البيزنطية في آسيا ومصر بينما ظلت دوقية ليبيا (من درنة حتى الاسكندرية) تابعة إدارياً للدوق الأوجستال بمصر وصارت تعتبر إقليماً من أقاليم الحدود (Limes) نظراً لما كانت تتعرض له من غارات رجال القبائل . ولم تكن لدوق هذه المنطقة إلا السلطة المدنية وقد استمر هذا الوضع حتى أيام

١ صارت درنة في وقت من الأوقات عاصمة لهذه الولاية .

جستنيان عندما ألغى هذا الإمبراطور وظيفة الدوق الأوجستال في مصر وقسم مصر بموجب القانون رقم ١٣ الذي أصدره سنة ٥٣٨ م أو ٥٣٩ م . إلى خمس دوقيات هي : مصر ، أوجستامنيكا ، أركاديا ، طيبة وليبيا . وبموجب قانون جستنيان المذكور صارت دوقية ليبيا تخضع لدوق يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية ويكون مسؤولاً تجاه الإمبراطور مباشرة وتجاه الحاكم البرايتوري لإيالة الشرق (Oriens) .

وبعد منتصف القرن الميلادي الرابع[1] كانت الأجهزة الإدارية الرومانية بشكل عام وفي منطقة برقة بشكل خاص قد دب فيها الفساد والتعفن خاصة فيما يتعلق بالنظام المالي ونظام جباية الضرائب . وبالطبع وقع السكان ضحايا لجباة الضرائب وما وراءهم من سلطات الجهاز الإداري الذي بدأ يتجه حثيثاً نحو التحول إلى بيروقراطية صارمة لا ترحم إلى حد أن الإمبراطور فالنتيان الأول عجز عن حماية السكان من استبداد الموظفين وظلمهم فلجأ في سنة ٣٦٤ م. إلى استحداث وظيفة حامي المدينة (Defensor Civitatis) لحماية دافعي الضرائب وأصحاب الشكاوى والضعفاء بشكل عام . وكان حاكم الشرق حتى سنة ٣٨٧ م هو الذي يعين الحماة لمدن دوقيات إيالته . وفي تلك السنة صدر قرار إمبراطوري يقضي بأن تقوم المدن بانتخاب حماتها ، وظلت الحالة كذلك حتى سنة ٤٠٩ م . عندما أدرك الأباطرة أن الفقراء من السكان كانوا في حاجة ماسة للحماية فعدّلت اختصاصات حماة المدن وطريقة انتخابهم بحيث صاروا ينتخبون من قبل رجال الدين والأعيان والملاكين ونواب البلديات . ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً لأن ما تحمله الحماة من مسؤوليات ثقيلة جعلهم لا يقلون عن نواب البلديات رغبة في التخلص من الالتزامات المفروضة عليهم . وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها

١ بالرغم من أن برقة سلمت من شر الوندال إلا أن حالتها ساءت بسبب تكرار غارات القبائل الليبية عليها مما أدى إلى نقل عاصمتها الإدارية من قورينة إلى طلميثة أولا عندما صار الأسقف سونيسيوس أسقفاً لها من ٤١٠ إلى ٤١٣ م . ثم إلى أبولونيا التي سميت سوسا (Sozusa) أي مدينة المنقذ .

أباطرة مختلفون لتحسين وضع حماة المدن أملاً في الإبقاء عليهم ليدافعوا عن سكان مناطقهم إلا أن وظيفة حامي المدينة اختفت قبل عصر جستنيان ؛ ومما يؤكد اختفاءها قبل زمنه هو أن جستنيان كثيراً ما فكر في إحياء تلك الوظيفة ومن ناحية أخرى فإن تفكيره في إحياء تلك الوظيفة دليل آخر يضاف للأدلة الكثيرة التي تشير إلى استشراء الفساد في الجهاز الإداري واشتداد الظلم الواقع على الأهلين . «والواقع أن ما رفع من الأقاليم من الشكاوى ، وما تكرر إصداره من الأوامر الإمبراطورية ، ليس إلا دليلاً على أن كل ما جرى من محاولات للإصلاح في القرنين الرابع والخامس لم يؤد إلى نتيجة طيبة »[1] .

النظام المالي :

كان النظام المالي لا سيما ما يتعلق منه بالضرائب مشكلة بالغة التعقيد ؛ فالخزائن خاوية من الأموال ، والحاجة جد ماسة لها . فلما تربع جستنيان على عرش الإمبراطورية لم تكن النظم المالية إلا ما أجراه المصلحون في القرن الميلادي الرابع فيما يتعلق بنظم الضرائب وطرق جبايتها والمسؤولين عن الجباية ؛ وهي إصلاحات وتعديلات لم ينجح النظام المالي معها في إصلاح الأحوال الاقتصادية ، ولم يحسن الموكلون بجباية الضرائب استخدام السلطة التي بأيديهم فكانت النتيجة أن دافعي الضرائب تحملوا فوق طاقتهم وصاروا يؤدون أكثر مما هو مقرر عليهم من الضرائب ولم يجدهم نفعاً كل ما لجأ إليه الأباطرة الذين توالوا على العرش البيزنطي قبل جستنيان من التهديدات وفرض العقوبات على الموظفين الذين لم يكترثوا بمصالح الخزينة بل تمادوا في الإمعان في ظلم السكان . ولقد فشلت كذلك تدابير الحكومة المركزية ضد نواب البلديات الذين لم يتركوا حيلة إلا ولجئوا إليها من أجل التخلي عن القيام بواجباتهم . ولقد دفع هذا الموقف السيء أعداداً

١ العريني ، السيد الباز ، مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ .

كبيرة من السكان إلى هجر مدنهم وأراضيهم واللجوء إلى الصحراء حيث لا تصل إليهم أيدي جباة الضرائب . ولم تكن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي لجأ إليها دافعو الضرائب للتهرب من جباة الضرائب فقد التمسوا كل الوسائل التي كانت كفيلة بتخليصهم من دفع الضرائب وتأدية ما عليهم من التزامات فلجئوا إلى استخدام أساليب الخداع والغش لكي يفلتوا من قبضة عمال الخراج . فالملاكون من الأهالي رأوا أنه من الخير لهم أن يتخلوا عن أراضيهم حتى لا يدفعوا ما تقرر عليهم من ضرائب جائرة فخربت حقول وقرى عديدة بعد أن لجأ أصحابها إلى الصحراء أو الأديرة أو انخرطوا في سلك الجيش .

ولقد ذهبت سدى كل الوسائل والإجراءات التي اتخذتها الحكومة المركزية لمنع هذا الفساد كما ان النظم والإصلاحات والتعديلات التي أجرتها تلك الحكومة عجزت عن إيجاد العلاج الناجع لذلك الفساد المستشري . ونحن نجد في مقدمة القانون رقم ١٣ الذي أصدره جستنيان إشارة إلى خلاصة ما كان عليه الموقف قبيل إجراء إصلاحات جستنيان ؛ ففي مقدمة ذلك القانون إشارات إلى ما كان يتصف به جباة الضرائب من أخلاق جعلت جستنيان يفكر طويلاً في حقيقة استقامتهم وإخلاصهم ؛ فقد استغلوا ما أصاب الإدارة المالية من اضطراب وصاروا يستفيدون من ذلك لمصالحهم الخاصة فلا يرسلون إلى خزينة القسطنطينية من الضرائب التي يجبونها سوى النزر اليسير كما ان ما كانوا يرسلونه إلى العاصمة من القمح صار ضئيلاً إلى درجة جعلته يبدو كأنه صدقة . ومع ذلك فإن دافعي الضرائب كانوا يؤكدون دائماً أنهم كانوا يؤدون كل ما كان مقرراً عليهم من ضرائب . وعلى الرغم من كل المحاولات التي قامت بها الحكومة المركزية في القسطنطينية لمناهضة التقاليد الإدارية السيئة ، بما أجرته من إصلاحات جديدة ، فإنه كان لزاماً على جستنيان — بعد أن تعرضت تلك الإصلاحات للتداعي والانهيار — أن يبدأ من جديد بإجراء إصلاحات شاملة تصلح لتحقيق نتائج مثمرة . ولا شك أن جستنيان قد أفاد في وضع إصلاحاته من كل التجارب والإصلاحات التي سبقت عصره .

الجند :

في مستهل القرن الميلادي السادس أصدر الإمبراطور أنسطاسيوس مرسوماً موجهاً إلى الدوق دانيال ، دوق البنطابولس ، يوضح بعض الأمور الهامة المتعلقة بالإدارة لا سيما ما يرتبط منها بحقوق وواجبات الجند الذين كانوا يرابطون في هذه المنطقة .

ويتضح من ذلك المرسوم ما كان عليه الوضع الحربي في البنطابولس حيث كانت ترابط فئتان من الجنود : الجنود النظاميون ، والفلاحون من جنود الحدود الذين كانت الحكومة تمنحهم الأراضي على الحدود مقابل تعهدهم بالدفاع عن مناطقهم وبحراسة الطرق ومراقبة القبائل المتمردة ومنع الرعايا البيزنطيين من العبور إلى أراضي البربر إلا بعد الحصول على إذن من الدوق . وهكذا كان جيش من حرس الحدود الفلاحين يرابط على طول امتداد الحدود التي أقيمت عليها قلاع وحصون متقاربة . والراجح أن ما حدث في دوقية البنطابولس من إقامة جيش حدود ، أو أطراف ، من الجنود الفلاحين جرى أيضاً في دوقية ليبيا وعلى الحدود الشرقية والجنوبية لمصر . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخدمة في جيش الحدود كانت وراثية تنتقل من الأب إلى الأبناء .

تنظيمات جستنيان الإدارية

وفقاً للقانون رقم ١٣ الذي أصدره هذا الإمبراطور

(سنة ٥٣٨ م أو سنة ٥٣٩ م .)

سبق أن بيّنا أن منطقة برقة صارت في عهد جستنيان تنقسم إلى دوقيتين تابعتين للحاكم البرايتوري لإيالة الشرق ، وهما دوقية البنطابولس وعاصمتها الإدارية طلميثة ، ودوقية ليبيا وعاصمتها الإدارية باريتونيوم (= مرسى مطروح) ، ورجحنا أن كلاً من هاتين الدوقيتين كانت تتألف من أبرشية واحدة[1] .

الدوق :

ولقد كانت للدوق في دوقيته سلطات واسعة للغاية فقد كان يمثل السلطة الإمبراطورية ، كأنه بذلك يعتبر نائباً محلياً للإمبراطور ، فهو يلي كل الأعمال المدنية والعسكرية ، ويعتبر الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة . وما اجتمع تحت إمرته من العساكر في دوقيته هيأ له بوجه خاص أن يقوم بحفظ الأمن العام في المدن وأن يقدم المساعدة المطلوبة لعمال الخراج لتمكينهم من تحصيل الضرائب . ومن الناحية العسكرية كان الدوق يعتبر رأس كل ما يتعلق بالجيش من الوظائف فكان يتولى إدارة فرق الجيش ويحرص على انتظام صرف رواتب العساكر وملابسهم . ومن أعماله أن يوالي الطواف بإقليم دوقيته ليتفقد أحوال الناس به وليقف على أحوال الحاميات والاستحكامات . وعندما كانت دوقيته تتعرض للخطر كان يتولى قيادة قواته في الميدان أو يعهد بقيادتها لأحد نوابه لحماية دوقيته والدفاع عنها . وكان على الدوق أن يسهر على حدود دوقيته ويحافظ عليها ويحميها

١ انظر ص ٤٧٤ أعلاه .

من غارات البدو ، كما انه كان مخولاً بعقد معاهدات الصلح مع الأعداء .

ولقد زاد سلطان الدوق داخل دوقيته بفضل ما ركزه الامبراطور جستنيان في يديه من سلطات حتى أصبح الدوق كأنه ملك في دوقيته . والراجح أن وظيفة الدوق لم تكن مقيدة بمدة معينة فكان متى عين لا يصرف عن منصبه إلا بناء على مرسوم إمبراطوري أو إذا نقل إلى وظيفة أخرى .

وحتى تبقى يد الدوق نظيفة طاهرة عمل جستنيان على زيادة راتبه لا سيما بالنسبة لكل من دوق مصر ودوق ليبيا فقد كان المرتب السنوي للأول أربعين صولداً أو ديناراً ذهبياً أي ما يقابل (٢٨٨٠) ديناراً ، بينما كان المرتب السنوي لدوق ليبيا (١٤٥٣) ديناراً ، وكان مرتب دوق إفريقية (١٥٨٢) ديناراً . ولم يكتف جستنيان بذلك بل غمر الدوقات بكرمه من ناحية وفرض عقوبات صارمة على المخالفين منهم من الناحية الأخرى .

وكان الدوق يتولى بنفسه التنظيم الفعلي لديوانه ثم يرفع تشكيلات الديوان للإمبراطور للمصادقة عليها . وكان ديوان الدوق يشمل الإدارات التالية :

١ – الإدارة المالية وتتولى الشؤون المالية في الدوقية وجباية الضرائب والخراج وتحويل ما يجب تحويله منها إلى القسطنطينية .

٢ – إدارة التجنيد وقد أشار إليها مرسوم أنسطاسيوس الموجه لدوق ليبيا ولكن لم يرد لها ذكر في النصوص المعروفة عن عهد جستنيان . وكان مدير هذه الإدارة ، بالاتفاق مع مدير الإدارة المالية ، يتولى إصدار الشهادات للمجندين بأنهم أصحاء وأنهم لم يلتحقوا بالجيش تهرباً من الالتزامات البلدية .

٣ – إدارة الشؤون القضائية : وكانت لمديرها السلطة العليا في القضاء الجنائي .

٤ – إدارة المحفوظات أو ديوان الإنشاء حيث كان يجري تحرير الوثائق وحفظ السجلات .

٥ – إدارة المظالم وإليها ترفع الالتماسات والشكاوى .

٦ – إدارة المنشآت العامة وكانت تنظر فيما يتعلق بالعمائر والمباني .

٧ – إدارة الخزينة وكانت تتولى الإشراف على ما يجبى في الدوقية من ضرائب عينية أو نقدية .

وكان يرتبط بحاشية الدوق موظفون آخرون كالموثقين والرسل ورجال البريد ورجال الحرس والمقومين أو المقدرين (Assessors) والأطباء والمدرسين . وكانت نفقات ديوان دوقية ليبيا حوالي ½ ١٨٧ ديناراً ذهبياً في السنة أي ما يعادل (١٣٥٠٠) دينار .

رئيس الأبرشية :

كانت الدوقية الواحدة تتألف من أبرشية أو أكثر حسب مساحتها وظروفها وقد سبق لنا أن أشرنا إلى وجود دوقيتين في برقة تتألف كل منهما من أبرشية واحدة عليها رئيس أبرشية . وليس في مصادرنا ما يوضح عمل رئيس الأبرشية وبحدده ولكنا نرجح أنه كان ينوب عن الدوق في قيادة شرطة الأبرشية وربما كانت له بعض الصلاحيات القضائية . ونحن نعرف أنه بعد أن ضمت لدوقية ليبيا منطقتا مناليتس ومريوط المصريتين عهد الإمبراطور لدوق ليبيا أن يتولى مسؤولية اختيار موظف نشيط ينوب عنه في حكم هاتين المنطقتين ومباشرة القضاء وحفظ الأمن فيهما . وقد عرف هذا الموظف باسم توبوتيريت (Topoterete) ، وقد ندب دوق ليبيا عشرين من موظفي ديوانه لمساعدة التوبوتيريت في أعماله كما حتم على العساكر المرابطين في المنطقتين أن يقدموا له كل ما يحتاجه من مساعدة . والذي دعا لتعيين هذا الموظف هو كون المنطقتين المذكورتين بعيدتين عن باريتونيوم ، العاصمة الإدارية للدوقية ، وكونهما مضطربتين مما جعل سكانهما يقاسون كثيراً من المصاعب في سبيل تقديم شكاواهم لمحكمة الدوق . ولعل وجود دوق على رأس منطقة تشمل أبرشية واحدة فقط كان يقلل من شأن رئيس الأبرشية حتى يصبح مجرد موظف في ديوان الدوق .

الباجرك :

على ضوء ما كان معمولاً به في مصر نستطيع أن نقول إن وظيفة الباجرك وجدت في دوقيتي برقة . وكان الباجرك موظفاً يستمد سلطاته من الإمبراطور مباشرة فإذا لم يقم بتأدية واجباته لم تكن للدوق السلطة في عزله وكان أقصى ما يستطيع القيام به في مثل تلك الحالة أن يكتب تقريراً بشأن الباجرك للإمبراطور فيتخذ الأخير بحق الباجرك ما يراه مناسباً . أما عمل الباجرك فمن المرجح أنه كان يختص بجباية الضرائب من القرى والأراضي التابعة لعاصمة النوم (Nomo) أو الإقليم باستثناء القرى والضياع التي كانت تتمتع بحق الجباية الذاتية . وفي القانون رقم ١٣ ما يشير إلى أن الطابع المالي هو الذي كان يغلب على طبيعة عمل الباجرك وإن كان هذا الأخير ، على ما يبدو ، يشارك في الأمور القضائية من مثل تنفيذ القرارات والأحكام الصادرة عن محكمة الدوق . وكانت تحت إمرة الباجرك جماعة من الموظفين كالجباة والمراقبين والكتّاب والمساعدين ، كما كانت توضع تحت تصرفه وسائل المواصلات المناسبة ليتمكن من الطواف بالبلاد والوقوف على أحوالها .

وحتى يلتزم الباجرك جانب الأمانة والإخلاص فرض الإمبراطور عقوبات مالية على كل باجرك أهمل واجباته أو تهاون فيها أو خان الأمانة وكان من بين تلك العقوبات أن يقرر الإمبراطور مصادرة أموال ذلك الباجرك .

إدارة المدن والبلديات :

كان في كل مدينة من مدن الأبرشية إلى جانب الباجرك نواب البلدية الذين ورد ذكرهم في القانون رقم ١٣ على أنهم عمال لجباية الخراج . وكان يجوز لهم أن يقدموا إلى عاصمة الدوقية للتشاور مع ممثلي السلطة المركزية في أمور الضرائب . وكان يساعدهم في أداء أعمالهم مجلس البلدية الذي كان من جملة

أعضائه كاتب الحسابات والكاتب العام ومتولي الدعاوى والخازن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها . وكان يرتبط بالمدينة وبلديتها أيضاً كبير الأطباء، والموظفون الموكلون بالإشراف على المرافق العامة كالحمامات والجسور .

ولقد اهتم الإمبراطور جستنيان بإعادة تنظيم إدارة المدن ، بعد أن كانت قد تعرضت منذ القرن الميلادي الثالث للانهيار والتداعي ؛ إذ إن نواب البلدية بعد أن تجردوا من سلطاتهم وتخلوا عن واجباتهم لممثلي الحكومة ـ أخذوا بالتدريج يخضعون لنوع من الوصاية الحكومية التي كانت تهدف إلى الوحدة وإلى إقرار الأمن .

ثم أخذت أعمال البلدية في التضاؤل ، بسبب وجود وظيفة حامي المدينة التي طالما فكر جستنيان في بعثها وتعديلها بصورة تضمن الحيلولة دون ابتزاز الأموال ، وهو ما عجز الحماة السابقون عن تحقيقه بل صاروا هم أنفسهم يمارسون عمليات الابتزاز . ولكن محاولة جستنيان لم يكتب لها النجاح نظر اعي نظام البلديات بشكل عام وبسبب ازدياد نفوذ كبار الملاك .

وازداد نفوذ الكنيسة في القرن الميلادي السادس بازدياد مشاركتها في الإدارة البلدية إذ صار الأسقف يشترك مع الأعيان في اختيار بعض الموظفين كحامي المدينة مثلاً ، وفي الإشراف على الموارد المالية للمدينة وصيانة مرافقها العامة .

أما بالنسبة للقرى فقد ظلت القرية بمثابة وحدة إدارية تابعة للمدينة التي هي المركز الإداري للمنطقة أو الإقليم ؛ فكانت القرية هي التي تملك الأرض وتتحمل مسؤولية زراعتها وتأدية ما يتقرر عليها من الضرائب .

وكانت لكل قرية هيئة أشبه ما تكون بمجلس محلي يتكون من أعيانها ويتولى مسؤولية تسيير أمورها الداخلية كإدارتها المالية وجمع المؤونة اللازمة للجند وتنظيم شرطة القرية . وفي حالة كون القرية تتمتع بحق الجباية الذاتية كان أعضاء مجلسها المحلي يصبحون على علاقة دائمة بديوان الأبرشية فيما يتعلق بالشؤون المالية .

وفي القرن الميلادي السادس بلغ الاهتمام بتأدية بعض الخدمات العامة حد الإلزام أو التكليف الذي كان يقع على كاهل بعض أبناء الطبقة الثرية مما جعل بعض أعمال السخرة تصبح وراثية من مثل وظيفة جابي الخراج وفئة المجدفين في سفن الدوق . وتعتبر وظيفة حامي المدينة من أهم أعمال السخرة والإلزام فقد كان على شاغلها أن يتولاها لمدة سنتين لا يستطيع أثناءهما أن يتخلى عن الأعباء الملقاة على عاتقه مهما انتحل من أعذار .

التنظيم المالي منذ زمن جستنيان :

لقد سبق أن أشرنا إلى مدى ما كان عليه التنظيم المالي وخاصة نظام الضرائب من تعقيد . وسنحاول فيما يلي أن نستعرض أنواع الضرائب البيزنطية المعروفة وطرق تقديرها وجبايتها .

كانت هنالك ضرائب مباشرة تجبى عينية أي من نفس المحصول أو نوعية أي نقدية مقدرة على محصول من المحصولات . وكانت هنالك أيضاً ضريبة الرأس أو الضريبة الشخصية (Capitatio) ولكنا لا نعرف عنها سوى أنها فرضت في الفيوم بمصر على الذكور البالغين من العمر ١٢ — ٤٥ سنة ولكن لم يصلنا من الوثائق ما يثبت أنها دفعت فعلاً . ويظن بعض المؤرخين أن هذه الضريبة لم تكن إلا ضريبة الأرض نظراً لأن الناس كانوا مرتبطين بأراضيهم بصفة دائمة .

وبالإضافة لهذه الضرائب المباشرة كانت هنالك ضرائب غير مباشرة من مثل مكوس الجمارك على الواردات والصادرات ، وما كان يتحمله دافعو الضرائب من السخرة كصيانة الجسور وزراعة الأراضي العامة وتزويد الجيش بالمؤن .

وقد كانت لجان خاصة تقوم وفقاً للعرف والعادة بتقدير الضرائب حسب طبيعة الأرض وقوتها الإنتاجية ، وخير مثال على هذا أن دوقية ليبيا حينما اختلت بها زراعة القمح صارت ضريبتها نوعية .

ونظراً للمسؤولية الجماعية التي تحملها دافعو الضرائب منذ زمن الإمبراطور

قسطنطين في كل الإمبراطورية ازداد الاهتمام بتوزيع الضرائب على جميع أراضي الإقليم سواء كانت مهملة أو لا مالك لها فألزم من تبقى من المزارعين في القرى أن يدفعوا الضرائب المطلوبة كما ألزموا بزراعة الأراضي المهملة أو المهجورة المجاورة لأراضيهم ، ومن المرجح أن الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان لم يلغوا هذا الإجراء .

أما أساليب جباية الضرائب غير العقارية فليست لدينا معلومات تذكر عنها .

أما الضرائب النوعية التي كانت برسم الخزينة فقد كان على الدوق وديوانه القيام بجبايتها .

وقد جعل جستنيان لدوق مصر ودوق ليبيا ، اللذين لم تتجاوز سلطة الواحد منهما حدود دوقيته ، الحق في التدخل في أمر الدوقيات الأخرى المجاورة والحق في أن يستخدما القوة لإرغام الملاك الهاربين على العودة واستخلاص الضرائب منهم .

ومع انخفاض قيمة العملة لجأت الحكومة في القرن السادس إلى تحصيل الضرائب عيناً بدلا منها نقداً . وصارت إجراءات الحكومة لتحصيل الضرائب على ذلك النحو تشتد أكثر فأكثر ابتداء من سنة ٥٥٩ م . مما جعل العاجزين عن دفع الضرائب وحتى مختلسيها يلجأون للكنائس من أجل الحماية .

إيداع الضرائب والنفقات العامة :

أصر جستنيان في قانونه رقم ١٣ على ضرورة إقامة موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات في برقة حتى يتجنب الوسائل التي حاول بعضهم بمقتضاها زيادة النفقات على الإيرادات . وأشار الإمبراطور في ملحق مرسوم هذا القانون إلى ما ينبغي أن يرد إلى خزينة الشرق من برقة ومناليتس ومريوط ومقدار ما ينفق محلياً فيها على الموظفين والدواوين وجراية الجند المرابطين في مواضع مختلفة منها والأموال المخصصة كنفقات لملاهي المدن .

ولما لم يكن بدوقيتي برقة خزينة تحفظ فيها الأموال التي يجب أن تؤدى للإمبراطور ، تقرر نقل تلك الأموال إلى الاسكندرية حيث كان يتسلمها مندوب الخزينة العامة ويحولها إلى القسطنطينية . وكان الدوق هو المسؤول عن التصرف في النفقات في دوقيته على أنه كان هو وديوانه يتحملان المسؤولية في تنظيم صرفها في النواحي الثلاث المقررة : نفقات حربية ، نفقات مدنية من مثل مرتبات الدوق وموظفيه ونفقات البريد والمدارس وبقية المرافق العامة ، ثم نفقات عامة كانت تعرف باسم سلمنيا (Solemnia) .

وحدد جستنيان أنواع العقوبات التي تلحق بالمخالفين ، وقد كان من بينها التغريم والعزل ومصادرة الممتلكات والتعذيب حتى الموت .

ضريبة القمح أو الميرة المدنية (Annona Civica) :

فرضت هذه الضريبة منذ أيام ديوقلتيان ولكن مقدارها لم يحدد مما جعلها عرضة للتعديل المتعاقب لكي تلائم أغراض الدولة كإطعام العاصمة أو تموين الجيش . وقد اهتم جستنيان بإعادة تنظيم هذه الضريبة المهمة ، التي قدر أن دوقيات مصر وحدها كانت تشحن بموجبها من الإسكندرية للقسطنطينية كل سنة ثمانية ملايين إردب « ولم تشترك في ذلك ليبيا[1] لأنها لم تنتج من وافر القمح مثلما تجود به مصر ، ويعتبر هـذا الإقليم مديناً باستمرار للخزانة » .

التنظيمات القضائية زمن جستنيان :

١ — محكمة الدوق : وكانت تنعقد في عاصمة الدوقية وتعتبر أهم محاكمها . وكان للدوق صلاحية ممارسة القضاء الجنائي العالي والقضاء المدني كما كان يفصل

---

١ العربني ، السيد الباز ، مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٠٣

في الخصومات التي تقع بين الموظفين كالنظر في الدعاوي المالية والحكم في القضايا المدنية الهامة وينظر في المظالم .

والذي حدث هو أن السلطة القضائية وبقية السلطات المدنية تجمعت في يد الدوق ففقد رئيس الأبرشية بذلك كل امتيازاته تقريباً ولم يعد إلا مجرد قاض موظف عند الدوق ربما كقائد للشرطة له بعض الصلاحيات القضائية المحدودة .

وكانت اختصاصات الباجرك أن ينظر في عقود الضمان وفي الشكاوي فيرد الحقوق إلى أصحابها . أما حامي المدينة فكان له حق القضاء الجنائي والمدني من مثل النظر في قضايا المعاملات المالية التي لا تتجاوز قيمتها (٣٥٠) صولداً ذهبياً . ومنذ سنة ٥٣٥ م . صار اختصاص حامي المدينة مطابقاً لاختصاص رئيس الأبرشية . وبموجب ملحق جستنيان رقم ١٥ صار للحامي الحق في أن ينظر في القضايا التي لم تكن الجرائم فيها بالغة الخطورة وأن ينفذ ما أصدره من عقوبة . أما إذا كانت الجناية كبيرة فإن الحامي كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيالها سوى أن يأمر بالقبض على الجاني وإيداعه السجن ثم يقدم إلى محكمة رئيس الأبرشية ، وبعد صدور القانون رقم ١٣ صار الجاني يقدم لمحكمة الدوق بدلاً من محكمة الأبرشية وبالإضافة لذلك فقد كان حامي المدينة يقوم بوظيفة قاضي الصلح .

أما في القرى فإن رجال الشرطة كانوا يباشرون السلطة القضائية في بعض الأمور ، فإذا عجزوا عن الإصلاح بين المتخاصمين أرسلوهم إلى المدينة حيث يتولى الباجرك وحامي المدينة محاكمتهم . وفي بعض الحالات كانت قضايا الريف تحل عن طريق التحكيم .

وقد نشأ القضاء الكنسي منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الكبير فكان المتخاصمون — إذا كان أحدهم رجل دين أو كانت الخصومة في أمور دينية — يحتكمون للأسقف ، وكان القانون يقر ما يتخذه الأساقفة من قرارات .

وكان يحق للمشتكي بعد ذلك كله أن يستأنف أي حكم صادر ضده لمحكمة الإمبراطور في بيزنطة فيكون القرار الصادر عنها بمثابة أمر لا بد من تنفيذه .

وبالرغم من أن محكمة الدوق كانت تنظر في القضايا المختلفة بما فيها القضايا العسكرية إلا أنه كانت هنالك محاكم عسكرية خاصة تنظر في القضايا التي يكون أحد الجنود طرفاً فيها .

وحتى يوفر جستنيان على أصحاب الدعاوي مشاق ونفقات الاستئناف لمحكمة القسطنطينية قرر إنشاء محاكم متوسطة بين الأخيرة ومحاكم الأقاليم كانت تفصل نهائياً في القضايا التي لا تزيد الدعوى فيها عن (٥٠٠) صولد من الذهب .

الشرطة والجيش :

كان الدوق يعتبر الرئيس الأعلى للشرطة في دوقيته بينما كان رئيس الأبرشية يعتبر قائداً للشرطة فيها تصدر عن ديوانه أوامر القبض والاعتقال ويودع في سجنه المذنبون والمجرمون . وقد درج دوق ليبيا على أن يرسل نائباً عنه إلى منطقتي مينالينس ومريوط المضطربتين بسبب قربهما من الإسكندرية المضطربة . وكان ذلك النائب يلقي القبض على من يلجأ لهاتين المنطقتين من مثيري الشغب بالاسكندرية ثم ينفذ ما صدر عن محكمة نائب ليبيا من أحكام أو يسلم المقبوض عليهم لمندوبي أوجستال الاسكندرية . وكان لدى ذلك النائب بالإضافة إلى الموظفين المدنيين الذين يؤلفون ديوانه خمسون جندياً اتخذهم من بين الحامية العسكرية التي كانت ترابط في منطقته .

ويذكر بهذا الصدد أن البربر كانوا يعتبرون من أخطر المغيرين على مصر ، ومعروف أن أريستوماك ، دوق مصر ، قاد في عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢ م) حملة ضد المغيرين منهم الذين كانوا قد بلغوا النيل فألحق بهم هزيمة منكرة ، وهاجم المازيكي (Maziques) الليبيين الذين كانوا قد عرفوا بإثارة القلق والاضطراب في برقة وسيوة وأديرة وادي النطرون خلال القرنين الميلاديين الخامس والسادس .

ولما كانت الطريق مفتوحة إلى مصر من دوقية ليبيا فإن الحكومة البيزنطية

بذلت جهداً هاماً في تنظيم الدفاع عن الحدود في القرنين الخامس والسادس للميلاد ، فقد أصدر الإمبراطور أنسطاسيوس الثاني بالنسبة لدوقية ليبيا مرسوماً شرح فيه بالتفصيل ما يجب أن تؤديه القوات المرابطة بتلك الدوقية . ولذلك فإن الجند الفلاحين كانوا يرابطون على طول الحدود في القلاع والحصون المتقاربة التي قامت على أطرافها . ومن المرجح أن جستنيان أبقى على هذا الاتجاه .

وكان جستنيان حريصاً على توفير الأمن والسلام على حدود دوقية ليبيا ، فلم يكتف بإعادة تنظيم الجيش بل أنشأ الفرقة المعروفة بفرقة جستنيان الليبية ورمم وعمر أسوار المدن والحصون العديدة في برقة البيزنطية . ومن الدليل على متانة تلك التحصينات ما حدث بعد قرن من الزمن حينما قاوم فلافيان ، دوق البنطابولس ، الغزو العربي من خلف أسوار توكرة . والمعروف أنه كانت في دوقية ليبيا ثلاثة مواضع ترابط فيها القوات البيزنطية الحربية فكان في كل مدينة من مدنها الثلاث حامية يتراوح عددها بين (٣٠٠) إلى (٥٠٠) جندي ، وتلك المدن الثلاث هي باريتونيوم وأنتيرغوس (= طبرق) وربما كانت المدينة الثالثة هي مدينة تافوزيرس التي يخبرنا بروكوبيس أنها كانت على مسيرة يوم من الاسكندرية وأن جستنيان أقام فيها منشآت كثيرة منها محلات إقامة الحكام والحمامات .

اقتصاديات منطقة برقة

في عهد الرومان الشرقيين والغربيين

سبق أن تحدثنا عن اقتصاديات منطقة برقة في العصور السالفة وبينا أنها ظلت متطورة مزدهرة في العهدين الإغريقي والبطلمي في المجالات الاقتصادية الرئيسية الثلاثة : الزراعة والتجارة وتربية المواشي[1] . ومع أواخر العصر البطلمي كان هذا الاقتصاد قد تضعضع نتيجة للاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية ومغامرات المغامرين وغارات القراصنة . وزادت الحالة سوءا خلال النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد وخاصة بالنسبة للتجارة فقد اتخذ القراصنة جزيرة كريت قاعدة لعملياتهم وراحوا يغيرون وينهبون ويخربون كل ما تصل إليه أيديهم فوقعت تجارة مدن ساحل برقة المقابل لكريت ضحية لتلك الأعمال التي ظلت تشل التجارة البحرية خاصة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط إلى أن تمكن بومبي سنة ٦٧ ق . م . من وضع حد للقرصنة والقراصنة بالقضاء على قواعدهم في كريت وعلى سفنهم في عرض البحر قبيل ضم برقة وكريت في ولاية واحدة . وكانت تجارة برقة المزدهرة بين أواسط إفريقيا وبلدان الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط قد شلت تماماً خلال المدة التي اشتد فيها نشاط القراصنة ، وهي لم تبدأ تنتعش وتنهض من تلك العثرة إلا بعد أن حل عهد أوغسطس وحل معه السلام والأمن في الداخل والخارج ليس في برقة وحدها بل في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية . ولكن تجارة برقة ظلت دون المستوى الذي كانت عليه بالرغم من انتعاشها النسبي ذلك أن تبادلها التجاري

١ انظر ص ٢٥٤ – ٢٥٩ أعلاه .

أصبح الآن ينحصر تقريباً مع روما . أما الرعي وتربية المواشي فقد كانت حظوظها أوفر من حظ التجارة لأن أهالي برقة استأنفوا ممارسة نشاطهم المعهود في ظلال الأمن والسلام اللذين ضمنهما لهم عهد أوغسطس فصاروا يربون الخيول والمواشي وينتجون القمح والشعير والذرة والتمور والعسل وزيت الزيتون والنبيذ والسلفيوم ودام ذلك الانتعاش في تصاعد وتقدم حتى قيام الثورة اليهودية (١١٥ – ١١٧ م .) . وقد أكد بيترو رومانلّي أن « حقول قورينة وطلميثة كانت تجود بإنتاج الحبوب والزيت والنبيذ في أيام نيرون (٥٤ – ٦٨ م .) وفسبسيان (٦٩–٧٩ م) »[1] ؛ وتلك هي المحصولات التي كانت المنطقة تنتجها في أحسن عصورها . ونحن نرى أن ما يصدق على هاتين المدينتين كان يصدق على بقية المناطق الزراعية في منطقة برقة .

ويظهر القرن الميلادي الأول وكأنه فترة خصصت لزراعة الحبوب لا سيما القمح والشعير . ويشير كايوس پلايني الكبير في كتابه « التاريخ الطبيعي » إلى هذه الحقيقة بقوله : « إن الطبيعة منحت أرض إفريقية بتمامها وكمالها للإلهة سيريس [إلهة الزراعة والفلاحة والحصاد عند الرومان] »[2] وإذن فليس من المستغرب أن يصف الرومان منطقة الشمال الإفريقي بأنها أرض الحبوب .

ونظراً لإقبال إيطاليا في القرن الميلادي الأول على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات فإن روما والمدن الإيطالية الأخرى صارت تعتمد في سد حاجاتها من الحبوب ، خاصة القمح ، فيما تجبيه وما تستورده منها ؛ على صقلية وسردينيا وأقطار الشمال الإفريقي التي صارت تعرف في روما باسم « ولايات الحنطة » . وبناء على هذا فإن السياسة الرومانية صارت تعتمد تشجيع زراعة الحبوب في برقة

١ Romanelli, Pietro, *La Cirenaica Romana* (96 a.c. — 642 d.c.), Centro Italiano di Studi Mediterranei, A. Airoldi — Editore, 1943 — XXI, pag. 41.

٢ پلايني الكبير كاتب روماني كان عالماً في التاريخ الطبيعي . ولد بمدينة قومة سنة ٢٣ م. وهلك ضمن من هلكوا نتيجة لثورة بركان فيزوف سنة ٧٩ م. أي بعد نشر كتابه (التاريخ الطبيعي، ٣٦ جزءاً) بسنتين .

فازدهرت تلك الزراعة نتيجة لتضافر جهود الأهلين والحكومة على النهوض بها . ولم تقتصر جهود الدولة على تشجيع زراعة الحبوب فقط بل شملت مختلف المجالات الزراعية . ومما يؤيد هذا القول ويؤكده تلك البرك الرومانية التي وجدت في برقة وفي بقية الشمال الإفريقي لتجميع مياه المطر واستغلالها في الزراعة وفي سقاية المواشي ، وما وجد من آثار معاصر زيت الزيتون من مثل معصرة الكويفية قرب بنغازي . ولقد أشرنا في موضع آخر من هذا الكتاب إلى أن زيت الزيتون الإفريقي ، رغم ثقله ، كان يلقى إقبالاً ورواجاً للاستعمال في أغراض الإضاءة ومن أجل التدليك في الحمامات . وبعد هذا الازدهار الذي شهدته منطقة برقة في القرن الميلادي الأول ازداد عبء الضرائب الرومانية ممّا أدى إلى بدء تلاشي صغار الملاكين وظهور كبار الملاكين الذين صاروا يكدسون الأراضي في أيديهم فيستغلونها ويستولون على معظم إنتاجها وهم يسكنون بعيداً عنها خارج المنطقة أو في مدنها ممّا أدى مع نهاية القرن الميلادي الرابع إلى اختفاء الزراعة العلمية لتحل محلها الأساليب التقليدية المتأخرة[1] .

أما فيما يتعلق بتربية الحيوانات فقد استمرت برقة تربي الخيول البرقاوية المشهورة بأصالتها وسرعة عدوها ، بالإضافة للبقر والحمير والأغنام والنعاج والطيور الداجنة كالحمام والدجاج ، ثم النحل ، كما انها كانت تتاجر في الأفيال وفي الحيوانات الضارية كالأسود والنمور والفهود فتجلبها من السودان وأواسط إفريقيا بواسطة القوافل وتصدرها من موانئها إلى روما لاستعمالها في المسارح المدرجة . وحتى نكوّن فكرة واضحة عن أهمية الحيوانات الضارية والفيلة كمادة لتجارة برقة نشير إلى أن ثلاثة آلاف وخمسمائة من تلك الحيوانات قتلت خلال حفلة واحدة جرت على مسرح روما المدرج واستمرت مدة ستة وعشرين يوماً متتالية وذلك في بداية العصر الإمبراطوري في أيام أوغسطس ، ولا شك أن ذلك الرقم قد تصاعد فيما بعد . وتجدر الإشارة هنا إلى أن المتفرج الروماني العادي

١ انظر أيضاً الصفحات ٥٢٩ – ٥٣١ أدناه .

في روما كان يعرف تلك الحيوانات باسم الحيوانات الليبية[1] .

ولكن هذه النهضة التي شهدتها منطقة برقة في القرن الميلادي الأول سرعان ما تحطمت في بداية القرن الميلادي الثاني إثر ثورة اليهود التي لم تسفر عن حرق وتخريب المدن والقرى والمزارع الإغريقية التي كانت قائمة على ساحل برقة فحسب بل تعدتها وامتدت يدها المخربة إلى المناطق الداخلية المجاورة للساحل بالقتل والحرق والتدمير فأنزلت بمنطقة برقة كارثة عجزت جهود الأباطرة الرومان بمن فيهم هدريان عن إقالة تلك المنطقة من عثارها . ومنذ ذلك الحين صارت قدّماً منطقة برقة بأسرها تغوص أكثر فأكثر في حمأة الفقر ، وراحت هي تتردى من المستوى الحضاري الرفيع الذي كانت قد بلغته إلى مستوى المجتمع البدوي الفقير الذي يعتمد في معيشته على رعي الماشية . ومنذ النصف الثاني من القرن الميلادي الثالث حتى نهاية العهد البيزنطي أضيف إلى كل العوامل السابقة عامل جديد مدمر هو أن كراهية القبائل البربرية الليبية للرومان والبيزنطيين بدأت تعبر عن نفسها عملياً على شكل هجمات راحت تلك القبائل تشنها على مدن منطقة برقة المختلفة فتقتل وتنهب وتخرب كل ما تصل إليه أيديها . ولقد سبق أن أشرنا إلى غارات الأستوريين بشكل خاص وبينا كيف إنها لم تقتصر على برقة بل امتدت إلى طرابلس كذلك . ومن الواضح ممّا نقلناه عن بروكوبيس أن غارات القبائل الليبية لم تتوقف حتى في عهد جستنيان ، الذي اتسم بكثرة التحصينات والاستعدادات العسكرية بل ظلت متواصلة إلى نهاية العصر البيزنطي . ولم يكن الأستوريون وحدهم هم الذين يشنون الهجمات على منطقة برقة ، فقد كان جميع البربر الذين يسكنون الأجزاء الداخلية من المنطقة – والذين أشار إليهم بروكوبيس باسم المور – يمارسون نشاطاً مماثلاً . وقد سبقت الإشارة للحملة التي قام بها أريستوماك ، دوق مصر ، ضدهم في عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢ – ٦٠٢ م .) ، وإلى

١ صقر ، أحمد ، مدنية المغرب العربي في التاريخ ، ج ١ ، دار النشر – بوسلامة – تونس ، ص ٢٢٢ – ٣٢١

هجومه على قبيلة المازيكي الليبية التي كانت تواصل إثارة الاضطرابات والمتاعب في برقة وسيوة ووادي النطرون طيلة القرنين الميلاديين الخامس والسادس. ومما كان يزيد المأساة أسىً وقوع الزلازل وغزوات الجراد من حين لآخر. والواقع أن الحالة استمرت تسير من سيء إلى أسوإ على ذلك النحو الذي وصفنا حتى قيض الله لبرقة من أنقذها من براثن الفقر والفوضى والاستبداد والاستغلال فدخلها عمرو بن العاص صلحاً ودون أية مقاومة وضمها لحوزة الإسلام سنة ٦٤٢ م.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن دوقية ليبيا البرقية أصبحت في العصر البيزنطي عاجزة عن تقديم أية كميات من الحبوب للدولة بل هي بالعكس صارت دائماً مدينة للخزينة البيزنطية. ويصور پروكوپيس القيصري[1] حالة برقة في أيامه بقوله: «ويتفق أن يكون الجزء الأعظم من أرض ليبيا هذه [برقة] لم يعنَ به على وجه العموم، غير أن إمبراطورنا [جستنيان] نظر إلى هذه البلاد كذلك بعين الاهتمام حتى لا تكون عاثرة الحظ فتقاسي من غارات المور الذين يسكنون البلاد المجاورة، فأسس من أجل هذا حصنين بحاميتيهما يدعى أحدهما پاريتونيوم، بينما أطلق على الآخر الذي يقع بعيداً عن المدائن الخمس، اسم أنتيبرغوم [طبرق]»[2] وعندما يتعرض پروكوپيس لطلميثة يقول إنها كانت في الأزمنة الغابرة مزدهرة وآهلة بالسكان ولكنها أصبحت بعهده شبه مهجورة بسبب افتقارها الشديد للماء مما جعل سكانها ينزحون عنها، وهذا ما دعا جستنيان

١ مؤرخ بيزنطي ولد في قيصرية بفلسطين حوالي نهاية القرن الميلادي الخامس. وفي سنة ٥٢٧ م. عين أمين سر خاص للقائد البيزنطي المشهور بليزاريوس ورافقه في حملاته على الشمال الإفريقي وإيطاليا وفارس، ثم عاد إلى القسطنطينية سنة ٥٤٠ م. وكل ما عرف عنه بعد ذلك أنه كان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٥٥٩ م.

٢ خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية، دار مكتبة الفكر، طرابلس ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٦٧، ص ٢١٣ – ٢١٤.

إلى إعادة بناء قناطرها وربما إصلاح قناة الماء الرئيسية التي كانت تمد المدينة بالماء فأعاد لها بذلك شيئاً من ازدهارها القديم.

والواقع أن جستنيان لم يدخر جهداً في سبيل تحصين برقة وضمانة أمنها الداخلي والخارجي كأساس لإنعاشها من جديد حتى تسهم بنصيب أوفر في ملء الخزينة البيزنطية، ولكن جهوده، كجهود أسلافه لم تحقق النتائج المتوخاة منها لأن فساد البيروقراطية البيزنطية كان مستشرياً إلى درجة أثبت معها أن العطار لا يستطيع أن يصلح ما أفسده الدهر والناس معاً.

فزان منذ حريق جرما

سنة ٣٩٥ م. حتى الفتح العربي سنة ٦٤٤ م.

لقد سبق أن بينا أنه مع نهاية القرن الرابع الميلادي كانت السلطة الرومانية في الشمال الإفريقي قد بلغت حداً خطيراً من الضعف ، وأن مملكة الجرامنتيين كانت في منتهى الضعف مما سهل على الدوناتيين المنحرفين اجتياح جرما وحرقها وتدميرها[1] . وعندما استولى الوندال على الشريط الساحلي من منطقة طرابلس لم يحاولوا بسط نفوذهم على غير مدن ذلك الساحل . وتلا الوندال البيزنطيون فاكتفوا أيضاً بالشريط الساحلي وفشلوا في فرض سيطرتهم على القبائل الليبية التي ما انفكت تهاجم مدن ذلك الساحل . وعلى ضوء هذا كله ، ونظراً لعدم توافر معلومات كافية لدينا عن أحوال فزان وبقية المناطق الداخلية من ليبيا في هذه الفترة فنحن لا نستطيع إلا أن نقول إن فزان والمناطق الداخلية من ليبيا قد ارتدت من جديد إلى الانغماس في الحياة البدوية التي يسيطر عليها النظام القبلي الصرف . وحتى المناطق المجاورة للشريط الساحلي في طرابلس وبرقة فإنها تقهقرت إلى نفس المستوى المعيشي والاجتماعي والسياسي نظراً لحيلولة الحدود الساحلية البيزنطية بين سكان تلك المناطق والاحتكاك بسكان المدن الساحلية وحضارات ما وراء البحر . وكانت النتيجة المنطقية لمثل هذا الموقف أن قبائل الدواخل الليبية انكفأت على أنفسها وأصبحت معزولة عن العالم المتحضر فتفرغت لشن الغارات على المناطق البيزنطية والمزارع والواحات الجرامنتية ، ومحاربة بعضها البعض في مضمار تنازع

١ انظر ص ٢٧٧ أعلاه .

البقاء مما أدى إلى سيادة قانون الغاب وإقفار المزارع وانحطاط السكان إلى مستوى الرعاة الرحل . ونحن نعرف أن قبائل هوارة ومزانة مثلاً – وهي قبائل كانت تسكن حول خليج سرت الكبير – راحت تهاجم واحات فزان وأفلحت في انتزاع واحات الجفرة ووادي الشاطىء وزويلة من أيـدي الجرامنتيين بفضل استخدامها للجمال واستمرار الجرامنتيين في الاعتماد على الخيول والعربات[1] .

ونتيجة لذلك فإن تلك القبائل لم تنتزع مصادر الثروة الزراعية فقط من أيدي الجرامنتيين بل استولت أيضاً على طرق التجارة عبر الصحراء ففقد الجرامنتيون بذلك الموردين الاقتصاديين اللذين كانا شريان النهضة الجرامنتية التي سبقت نهاية القرن الميلادي الرابع .

ولقد حاول الجرامنتيون أن يدرأوا عن أنفسهم أذى القبائل المغيرة بتوفير نوع من الحماية البيزنطية لعاصمتهم جرما ولما بقي في أيديهم من مزارع وممتلكات فتوصلوا إلى نوع من التفاهم مع البيزنطيين تم بموجبه إرسال حامية بيزنطية رابطت في قلعة لوروكو بوادي الآجال ، على بعد ستين كيلومتراً من جرما ، لحماية جرما وبقية واحات ذلك الوادي مقابل أن يدفع الجرامنتيون نفقات تلك الحامية وأن تتحول جرما إلى الديانة المسيحية . ولكن مملكة جرما الهرمة عجزت عن دفع نفقات الحامية البيزنطية مما أدى إلى انسحاب تلك الحامية تاركة جرما والجرامنتيين ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم .

وبوسعنا أن نتصور أن فزان وبقية المناطق الداخلية من ليبيا ظلت نهباً لنزوات القبائل وغاراتها على بعضها البعض منذ ذلك الحين حتى الفتح العربي . وفي مثل

١ أيوب ، محمد سليمان ، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة ١٨١١ م. ، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب ، ليبيا ، ١٩٦٧ ، ص ٥٦ – ٥٧

تلك الحالة فإن سبيل الحماية الوحيد للفرد والجماعة هو النظام القبلي بوصفه بديلاً للفوضى المطلقة .

ومن الطبيعي أن تزايد الأخطار يؤدي في مثل هذه الحالة إلى تقوية الرابطة بين الفرد وقبيلته مما يزيد في حدة العصبية القبلية وعمقها فيزيد بالتالي ضراوة التناحر القبلي وعنفه . ولذلك فإننا يجب ألا نستغرب قلة المقاومة التي لقيها الفاتحون العرب عند استيلائهم على ليبيا لأن هذه البلاد ولا سيما أجزاءها الداخلية كانت قد بلغت أقصى درجات الضعف والانحطاط مع مطلع القرن السابع للميلاد .

اليهودية والنصرانية في ليبيا

لقد سبق أن تحدثنا عن اليهود في ليبيا وقدرنا أنهم بدأوا يتوافدون إلى منطقة طرابلس مع الفينيقيين بعد القرن الرابع قبل الميلاد . وعلى برقة خلال عهد الاسكندر وخلفائه البطالمة . ومن المؤكد أن اليهود كونوا لهم جاليات منظمة في هاتين المنطقتين كانت لها كنسها أو بيعها حيث كان اليهود يمارسون طقوسهم الدينية دون تدخل من أحد . ويكاد يكون من المؤكد أنهم كانوا يبشرون بديانتهم بين الوثنيين من البربر القدماء . فقد رجح أوريك بيتس أن البربر كانوا يندمجون مع اليهود بسهولة وأن الكثيرين منهم اعتنقوا الديانة اليهودية « وتلك ظاهرة تفسر لنا اشتراك أعداد كبيرة من الثوار في ثورة اليهود في برقة سنة ١١٥ م . »[١]

ولعل اليهود هم أول من نقل فكرة الديانة المسيحية لبرقة فنحن نعرف أن سيمون القوريني هو الذي حمل صليب المسيح على طريق الآلام في القدس[٢] وعلى هذا فإن الديانة المسيحية لا بد أن تكون قد دخلت برقة وبقية الشمال الإفريقي في وقت مبكر . ولقد دلت الآثار على أن أتباع الديانة المسيحية كانوا منتشرين في مساحة واسعة من الشمال الإفريقي . ولكن المسيحيين ظلوا يقاسون من الاضطهاد الوثني على أيدي السلطة الرومانية حتى سنة ٣١٣ م . عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان المشهور الذي ضمن للمسيحيين الحرية الدينية ، إلا أن ذلك المرسوم لم يحل المشكلة لأن أتباع الكنيسة المسيحية كانوا قد أصبحوا كثيرين

Bates, Oric, *The Eastern Libyans*, Macmillan & Co Limited, St Martin's St. London, 1914. p 208

Romanelli, Pietro, *La Cirenaica Romana* (96 a.C. – 642 d.C.), Centro Italiano di Studi Mediterranei A. Airoldi Editore 1943 XXI. pag 229

وفي الوقت ذاته منقسمين فيما بينهم . وقد سبق أن أشرنا إلى ظهور مذهب دوناتس وانتشاره في منطقة طرابلس سنة ٣١١ م . كتعبير عن الأماني الوطنية في وجه السلطة الرومانية وكنيستها الكاثوليكية . وقبل أن ينتهي القرن الميلادي الرابع كانت الدوناتية قد انحرفت عن مبادئها وأصبحت محوراً يلتف حوله اللصوص وقطاع الطرق . وإن صح ما سبق أن ذهبنا إليه من أن الدوناتيين هم الذين حرقوا جرما وخربوها فإن ذلك يعني امتداد المسيحية إلى منطقة فزان ولو في شكلها الدوناتي . وفي موضع آخر من هذا الكتاب تعرضنا كذلك للمذهب الآريوسي الذي انتشر في الاسكندرية ومصر والشرق ولم يلبث أن امتد لبرقة حوالي نفس الفترة التي انتشر فيها المذهب الدوناتي [1] . وبالرغم من انتشار الديانة المسيحية على نطاق واسع في الشمال الإفريقي إلا أن الوثنيين كانوا لا يزالون موجودين في عهد جستنيان — القرن الميلادي السادس — الذي حملهم على اعتناقها تنفيذاً لسياسته في نشر الديانة المسيحية وتعميمها في الإمبراطورية . ويحدثنا بروكوبيس عن هذا الموضوع ، بعد ذكره لجالو وأوجلة ، بقوله : « إنهما احتفظتا بعبادات الأقدمين ، إذ كانوا جميعاً في ضلال الشرك حتى يومي هذا » . وتوجد هنا معابد من الأزمنة الغابرة مكرسة (لآمون) و (الاسكندر المقدوني) ، وقد تعود الأهالي فعلاً أن يقدموا لها القرابين حتى عهد جستنيان ، وكان في هذا المكان عدد كبير ممن يدعون (عبيد الهيكل) . لكن الإمبراطور أخذ أهبته الآن ، لا لأمن أشخاص رعاياه فحسب ، بل هو وضع في اعتباره إنقاذ أرواحهم كذلك ، فاعتنى من كل سبيل بمن يعيش هناك من الناس . والحق أنه لم يترك وسيلة للتفكير في حاجاتهم المادية تفكيراً يفوق العادة . وهو علمهم كذلك مذهب العقيدة الحقة فحول السكان جميعهم إلى المسيحية ومهد السبيل لتبديد عادات أجدادهم

١ انظر هامش (١) ص ٤٥٧ — ٤٥٨

الرجسة . وبنى لهم فضلاً عن ذلك كنيسة لأم الرب ، لتكون حارساً لأمن المدينتين والعقيدة الحقة .

أما مدينة بوربوم ، التي تقع بالقرب من المور ، فإنها لم تذعن قط لدفع الجزية حتى الوقت الحاضر ، كما لم يأتها جامع جزية أو ضرائب منذ أن خلق الإنسان . وقد عاش اليهود بالقرب منها منذ الأزمنة القديمة ، وكان لهم معبد عتيق هناك أيضاً يوقرونه ويكرمونه ، منذ أن بناه (سليمان) — كما يقولون — حين كان يحكم الشعب العبري . لكن الإمبراطور جستنيان مهد الطريق إلى أن يغير جميع هؤلاء عبادة أسلافهم كذلك ويصبحوا نصارى ، وحول معبدهم إلى كنيسة »[1] . وعندما يشير بروكوبيس إلى غدامس يقول : « وفيها يعيش المور الذين كانوا متسالمين مع الرومان منذ غابر الأزمان . وقد كسب الإمبراطور جستنيان هؤلاء جميعاً واعتنقوا العقيدة المسيحية طوعاً »[2] . وبعد أن يستعرض بروكوبيس أعمال الترميم التي قام بها جستنيان في لبدة الكبرى يقول إن جستنيان « جعل من أهل القبائل التي تعيش بالقرب منها ، والتي تدعى (الغادابيتاني Gadabitani) — وكانت حتى ذلك العهد منغمسة فيما يسمى شكل الإلحاد الإغريقي [الوثنية] — جعل منهم الآن مسيحيين ، متحمسين »[3] .

ولكن بالرغم من جهود جستنيان وغيره من الأباطرة فإن الديانة المسيحية لم ترسخ في المنطقة ، ولذلك فإن المسلمين لم يصطدموا بأية معارضة عقائدية مسيحية عندما استولوا على ليبيا (٦٤٢ — ٦٤٣ م) .

١ خشيم ، علي فهمي ، نصوص ليبية ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧ ، ص ٢١٦ — ٢١٨ .

٢ المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

٣ المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .